الثقافة الجديدة

فكر علمي . . . ثقافة تقدمية

351 - 350
2012

ملف العدد
متألقا يعتلي محمود صبري
صهوة الوداع الاخير!

مقالات
حسن الجنابي عباس التميمي
كاظم المقدادي عدنان عاكف
صباح كنجي

نصوص قديمة
عبد الرحيم شريف

طاولة مستديرة :
حول ازمة الكهرباء في العراق

نصوص مترجمة :
جنهاي يانغ منكي لي

حوارات
حوار مع ياسين النصير

ادب وفن :
عبد الرزاق الصافي
شوقي بدر يوسف
سلام القريني نزار محمد سعيد
هلال حميد حسينة بنيان
عبد الله حسين جلاب
اوس حسن
حسن لطيف جعفر

الثقافة الجديدة

فكر علمي- ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

المواد المنشورة تعبّر عن آراء اصحابها

351-350

اغلق تحرير العدد في 20 أيار 2012

السعر : 2000 دينار

الاشتراك السنوي : (6 أعداد) : 50 دولار أو ما يعادلها و 100 دولار للمؤسسات.
ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير :
thakafajadida4u@gmail.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت :
http://www.iraqicp.com
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة : بغداد – شارع ابو نؤاس، والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع في المكتبة الوطنية :781
يمكن تحويل مبالغ الاشتراك على الحساب المصرفي للمجلة :

ALJADID
Lloyds TSB Bank plc
Sort Code 30-93-89
Account No: 1871659
UK

ترجو هيئة التحرير المساهمين في المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
*أن تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلا للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الألكتروني أو على قرص مدمج. أما المكتوبة باليد فنرجو إرسال نسختها الأصلية. وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير، فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لاتعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الألكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والاعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد :

7- ملف العدد:

8- متألقا يعتلي محمود صبري صهوة الوداع الاخير !.....هيئة التحرير

10- نعي اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي

13- المثقف والسياسة والاستبداد.....محمود صبري

23- ملاحظات على ملاحظات.....محمود صبري

34- عندما تصب العلوم المعاصرة في بؤرة فنية واحدة.....صادق الصائغ

42- محمود صبري.. أطياف وألوان ومُدن (فن حديث لعصر جديد).....شوقي الموسوي

46- محمود صبري .. غواية الرسم والأحتراف الخلاق .....جواد الزيدي

50- محمود صبري – جدل الفكر والمواقف الجريئة .....صلاح عباس

53- محمود صبري فنان الشعب .. رائد بين التطبيق والانجاز .....قاسم العزاوي

مقالات:

56- الريف العراقي ... شروط الحياة الكريمة "شط العرب نموذجا" .....حسن الجنابي

63- مشكلة السكن في العراق وآفاق المعالجة .....عباس التميمي

75- حلبجه.. ضحية سلاح كيمياوي عراقي قاتل .....كاظم المقدادي

85-آينشتاين والدولة اليهودية .....عدنان عاكف

94- بدايات الفكر الماركسي بين الإيزيدية في العراق .....صباح كنجي

101- تعقيبان .....جاسم الحلوائي

نصوص قديمة:

104- علام يدل سقوط موسوليني؟ .....عبد الرحيم شريف

طاولة مستديرة:

114- طاولة مستديرة حول: ازمة الكهرباء في العراق *

نصوص مترجمة:

130- مجددا الصين .... الى أين؟

133- الأهمية التاريخية للجمع بين الاشتراكية واقتصاد السوق.. جنهاي يانغ .....ترجمة: عزيز سباهي

138- إنسجام بين الرأسمالية والاشتراكية... منكي لي .....ترجمة: عزيز سباهي

حوارات:

144- ياسين النصير.. اسهامات نقدية ودراسات في حقول شتى.....حاوره : سعدون هليل

ادب وفن:

157- من ذاكرة الزمن.. احداث وشخصيات عراقية .....عبد الرزاق الصافي
162- الرواية ومتخيّل السرد"الحلم العظيم" للروائى أحمد خلف نموذجا .....شوقى بدر يوسف

قصص قصيرة

175- قصتان قصيرتان .....سلام القريني
177- قصص كردية .....نزار محمد سعيد
183- الترجمة : قصة ايطالية لأنتونيو تابوكى .....ترجمة: هلال حميد

شعر

186- قصائد للشاعرة .....حسينة بنيان
188- قصائد شعرية .....عبد اللّه حسين جلاب
190- قصيدتان .....اوس حسن
192- حوار الريح والصمت .....حسن لطيف جعفر

196- **تقرير:**
المربد التاسع يحتفى بالشاعر ألفريد سمعان .....اعداد: سكرتارية تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)

الغلاف الاول : لوحة للراحل محمود صبري
الغلاف الاخير: لوحة للفنان عماد محمد

كلمة العدد

تشهد الساحة السياسية اليوم تسخينا لا ينقطع والبلاد على اعتاب منعطف خطير.. المشهد السياسي محتقن.. والقوى المتنفذة تتحاور مع بعضها البعض، في غالب الأحيان، عبر وساطات معظمها اقليمية ودولية ولكنها، وبدلا من توفير الشروط للحوار من دون منغصات، يلاحظ أن ما يحدث هو العكس. وبسبب الصراع المحتدم بين القوى المتنفذة حول السلطة والثروة والنفوذ، وتمسك كل طرف بمواقفه، وعزوفه عن إبداء المرونة وعن المبادرة الى تقديم التنازلات، فشلت محاولات التوصل الى توافق سياسي بين الأطراف المتنفذة في أكثر من مرةً. وما زاد الامر صعوبة هو ما تقوم به الماكنات الاعلامية لكل طرف من "المتحاربين" حيث تمارس "قصفها اليومي" لتدك قلاع "الخصم" بهدف الحاق اقصى الخسائر وليس بناء جسور للتوصل الى تفاهمات كبرى لحل الازمة!

في مواجهة هذه الاوضاع يبقى السؤال التقليدي الذي يصفع الجميع بقسوته: كيف السبيل الى إخراج البلاد من هذا الاحتقان ومن الازمة البنيوية المتعددة الصعد؟

ثمة جواب واحد لا غير. المطلوب من جميع الاطراف والاقطاب، ومن باب أولى المتمترسين وراء طوائفهم، اتخاذ خطوات جريئة واعتماد حلول وتنازلات متقابلة كفيلة بتغيير الوضع الراهن، الذي بلغ من الخطورة درجة لا يمكن معها الاستمرار في التخندق خلف المواقع المتقابلة، والمواقف المتنافرة.

نعم، المطلوب في هذه اللحظات المتوترة تجنب صب الزيت على نار هي أصلا مشتعلة، وضرورة طرح أفكار وابتكار حلول وتقديم تنازلات متبادلة ومقبولة للخروج من الازمة البنيوية الراهنة. وحتى لا نبسط الأمور علينا أن نذكّر بان الكرة الآن ليست في ملعب أحد.... إنها في ملاعب جميع القوى المتنفذة، فالمسؤوليات متقابلة. ولهذا فإن المطلوب من الجميع إعادة النظر في المواقف والطروحات التي تعد بمثابة "مسلمات" لا تقبل النقاش، للاقتراب خطوة نحو طاولة الحوار، للبحث عن حلول وسط لا البقاء في خنادق المتحاربين.

في مثل هذه اللحظات المضطربة والمفتوحة النهايات لا بد من التأكيد مجددا على تجنب الخيارات "السهلة" وتلك الحلول التي تراهن على تصعيد العنف والوصول به الى الذروة وتثمير نتائجه لفرض شروط على الآخرين. فالمطلوب اليوم، كما في كل وقت، العودة مجددا الى لغة الحوار المباشر والجاد ودون وساطات والخروج بحزمة توافقات كبرى حول كل المواضيع التي هي حاليا موضع تجاذب واختلاف. وليس هناك من طريق آخر للخروج من هذا الوضع سوى هذا الطريق، فهو وحده القادر على تأمين الوصول الى بناء العراق الديمقراطي الفيدرالي الموحد.

تقف البلاد اليوم أمام خيارين، إما الاتفاق على حلول سياسية كبرى من خلال تقديم تنازلات متقابلة، قد يكون بعضها مؤلما، عن طريق الحوار، او الذهاب الى الفوضى والاحتكام الى حلول غير ديمقراطية يحكمها منطق صقور الخيارات اللاديمقراطية وحسم الامور بلغة المسدس أو المفخخات أو الهاونات، ومخاطرها هذا كله معروفة!

إن الأزمة التي تواجه البلاد اليوم هي أشد تعقيداً، بل وخطورة، من أن تنهيها دعوات لتجاوز ما حدث عبر اعتماد تكتيكات "تبويس اللحى"، بل لا بد من استئناف الحوار الجاد الذي يبدو واضحاً أنه قد يكون في لحظة ما في عداد الماضي إذا لم يرتق الساسة الى مستوى المخاطر التي تحيط بالوطن. ولهذا تحتاج بلادنا، في مثل هذه اللحظات، الى ساسة يتمتعون بأقصى قدر من الحصافة السياسية وليس الى "ساسة" محرضين ومولعين بالخطابات المحمومة أو متفرجين على طقوس دفن شهدائنا الذين عادة ما يذهبون ضحايا بعض الساسة قصيري البصر والبصيرة.

وفي ظل الظروف الحالية الخطيرة التي تواجه بلادنا، وحيث تتفاقم الأزمة البنيوية العميقة، على مختلف الصعد، يبرز دور المثقف الى المقدمة وهو يسعى إلى تجسيد مسؤوليته تجاه قضايا شعبه وثقافته التي ينتمي إليها، ومشاركته في مقاومة الاستبداد والعسف، بأشكال مختلفة من خلال المشاركة الفعالة في تحديد ملامح الأزمة الراهنة واقتراح البدائل للتغلب عليها.

ومن هنا أهمية التأكيد الخاص والاستثنائي، في هذه المرحلة المضطربة، على أهميّة دور المثقفين والمبدعين في تثبيت التوجهات والخيارات الوطنية الكبرى، والرهان المستمر على قدرة النخب الثقافية الوطنية بمختلف اتجاهاتها الفكرية والسياسية في مجال بلورة الرؤى، وصياغة الأفكار وإنتاج التصورات لإثراء الحوار حول كبريات القضايا التي تواجه بلادنا، وفي مقدمتها بناء الدولة الديمقراطية العصرية والمساهمة النشيطة في استشراف المستقبل.

ومن بين اهم مستلزمات تحقيق المشروع الوطني الديمقراطي العابر للطوائف هي تدشين مشروع ثقافي وطني انساني النزعة وديمقراطي المحتوى، يكون حاضنة لكل التيارات الداعية الى بلورة تكوين هوية وطنية منفتحة متجددة، تحترم التعددية الثقافية والفكرية، وتتفاعل مع سائر روافد الفكر العالمي وتياراته. وهذا يستلزم تحرير الثقافة من قيود الفكر الواحد والرأي الواحد، ومن الجمود والانغلاق وكل سمات الفكر الشمولي، وضمان عدم تسييس المؤسسات الثقافية للدولة او تسخيرها لمصالح حزبية او مذهبية، ورفض تهميش المثقفين والمبدعين، واحترام استقلاليتهم، ورعايتهم وتكريمهم والاحتفاء بانجازاتهم.

ليتجنب الجميع دورة صراع جديدة يضيع العراقيون فيها في تفاصيل التفاصيل، ويرتكب بعض الساسة خطأ قاتلاً عند الترتيب الخاطئ للتناقضات الناظمة للمرحلة الانتقالية، من خلال الانبهار بـ"الانتصارات" الراهنة ونسيان حقيقة أن المهمة المركزية التي ينبغي تحشيد كل القوى لتحقيقها ما زالت هي: استكمال استعادة السيادة والاستقلال التامين وتدشين العملية الديمقراطية، وهي المهمة المفضية لبناء عراق ديمقراطي اتحادي حر وسيد نفسه.

ملف العدد

متألقا يعتلي محمود صبري صهوة الوداع الاخير!

متألقا يعتلي محمود صبري

صهوة الوداع الاخير!

متألقا اعتلى محمود صبري صهوة الوداع الأخير وفي رصيده ريادة فنية مبكرة وكشوفات نظرية جريئة. وعليهما معا يستحق منجزه تقيما عاليا واعترافا صريحا. دخل محمود صبري عالم الفن هاويا، وحين امتلك أدواته سخره لان يكون مرآة للقضية الإجتماعية التي وهب حياته وفنه لها. وظل يدور في مدار الفن الملتزم مجسدا في سلسلة أعمال أنتجها في حقبة الخمسينيات وبداية الستينيات. إن الأفق الذي فتحه الفنان الكبير محمود صبري لنفسه سرعان ما جذب إليه بعض رموز الحركة التشكيلية، إذ خطا جواد سليم، على طريقته، نحو ذلك المدار مقتربا من نبض الحياة ووقع التاريخ الحي. من تلك الانعطافة بدا الموضوع الجاهز للوحة مستهلكا، ولاح خفوت البعد التعبيري للشكل الأكاديمي للبحث.

تلك الريادة المبكرة كانت الأولى له في تاريخ الحركة التشكيلية في العراق. ألحقها عام 1971 بريادة ثانية لخصها بيانه الذي اتخذ اسم "واقعية الكم" ودعا فيه لإخراج الفن من العالم العياني الى العالم المجهري، ومن عالم الكتل الظاهرة الى عالم الجزئيات والعمليات الداخلية. لقد كان البيان المذكور (المانيفستو) الذي اطلقه من براغ في حينه هو اتجاه جديد في الفن التشكيلي يتطلع نحو المستقبل.

عندما ظهرت "واقعية الكم" أثارت اهتماما لافتا في المشهد التشكيلي العراقي بين مؤيد ومعارض. فهناك من رحب بها بوصفها تجربة جمالية غير مسبوقة، عربيا على الأقل في منطلقاتها النظرية والتجريبية. والبعض الآخر، كان معارضا وطرح العديد من الأسئلة والاعتراضات. هكذا اذن، وعلى مدى أربعة عقود، انهمك محمود صبري في مشغل نظري، وتطبيقه لم يسبقه إليه سواه. منه انبثقت أسئلة وحلول، وحوله أثيرت قضايا ونقاشات محفزة للتفكير، وإعادة التفكير في علاقة الفن بالعلم ومصير الفن في سياق ثورة المعرفة والتكنولوجيا.

لقد اطلق محمود صبري على بيانه تسمية "واقعية الكم" كبداية للدرب الذي سيمضي فيه. ولم يكن اختياره ذلك شكليا، بل نابعا من حدس نظري. فهو لم ينحاز للتجريد على حساب التشخيص، بقدر ما أراد ان يكسر معادلة التعارض بينهما لصنع لغة معاصرة للفن. لذلك يمكن ان يصف مسعاه النظري والجمالي كنقيض مباشر لحركة (البوب آرت)، التي حولت الفن الى مجرد وسيط أو بضاعة في مجتمع استهلاكي غمر أوربا الغربية في ستينيات القرن الماضي.

في اعماله الفنية المتنوعة كما في حياته الشخصية، انحاز محمود صبري لبسطاء الناس وللمضطهدين وللمكافحين ضد العسف والاستغلال، ومن اجل الديمقراطية والعدالة الإجتماعية. ويدلل على ذلك العديد من لوحاته مثل "جنازة الشهيد" التي استوحاها من تشييع السجين السياسي نعمان محمد صالح في بغداد في عام 1951، ولوحة "ثورة الجزائر" عن نضال الشعب الجزائري وبلد المليون شهيد. ولوحة "تل الزعتر" عن المجزرة التي راح ضحيتها مئات الفلسطينيين، و"حامل الصليب" التي تجسد مأساة الشعبين اللبناني والفلسطيني. كما ان لوحاته "دفن الشهيد" المتعددة الشخوص، و"موت طفل" التي رسمها في عام 1950، تذكر المشاهد بالأحداث المأساوية للحياة، حتى لكأن المشاهد يسمع صراخ الأمهات والأرامل يختلط بصوت التظاهرات الهادر. علما انه كان قد صرح في احدى مقابلاته (لقاء مع محمود صبري، مجلة المثقف، عدد 2، بغداد 1958) قائلا: "كفنان ثوري لم آتِ بشيء جديد مطلقا. لقد كنت مجرد مرآة عكست روح هذا المجتمع المناضل".

وفي عمله الملحمي "دفن الشهيد" تنتصب مجموعة المشيعين مثل حائط منحوت/ صنو لجدارية آشورية/ تلتحم الأشكال، "والأبطال" يبدون متشابهين من بعيد لا يفرقهم عن بعضهم، بحسب الفنان يحيى الشيخ، إلا درجات الغضب أو الأسى الذي عفر وجوههم الملفوحة بالشمس والجوع. إن قوة أبطال محمود صبري في صمتهم، صمت ثقيل كالرصاص وشفاف كالحب. صمت يقظ وغائب في الأعماق مثل قطعة سلاح باردة محشوة بالبارود.

حسبنا الآن ونحن نعد هذا الملف، والذي يبقى مفتوحا لمساهمات جديدة في اعدادنا القادمة، ان نوجه تحية الوداع الواجبة مقرونة بإعجاب كبير بما انجزه محمود صبري الفنان والمنظّر وهو يغادرنا في رحلته الابدية باحثا عن اكتشافات جديدة وربما واقعية جديدة!

"الثقافة الجديدة"

نعي اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي

تنعى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي بأسف وأسى بالغين الشخصية الوطنية والثقافية والفكرية البارزة، الفنان الكبير الاستاذ محمود صبري، الذي اختطفه الموت صباح اليوم في العاصمة البريطانية لندن عن عمر يناهز الخامسة والثمانين.

لفت الفقيد الانظار في سن مبكرة بنباهته ونهمه الى المعرفة، وبسخطه على التخلف الذي يطبع الحياة في وطنه، والواقع المحزن الذي يعيشه ملايين العراقيين المضطهدين والمحرومين. ولم يكن قد بلغ العشرين بُعيد الحرب العالمية الثانية، حين دفعته رغبته المتنامية في التغيير الى تلمس طريقه، من ناحية، نحو الحزب الشيوعي العراقي، الذي وجد فيه القوة السياسية الوطنية المعنية حقا بالتغيير، والمنغمرة فعلا في السعي الى تحقيقه، ومن جانب ثانٍ نحو المعرفة والثقافة، وصولا الى التعبير الفني عن المشاعر والافكار والتطلعات الى تجاوز الواقع القائم، وبناء عراق مغاير ينعم فيه ابناؤه بالحرية والسعادة.

درس العلوم الإجتماعية في احدى الجامعات البريطانية في مسعى لمعرفة اسرار حياة المجتمع وادراك آليات حركته، بما يتيح له تحديد موقعه فيه وإسهامه في رسم مساره اللاحق. وحين عاد الى العراق مطلع الخمسينيات، كان قد ازداد تعلقا بالحزب الشيوعي وانهماكا في النضال في صفوفه.

وفي الوقت ذاته، وبرغم انه لم يتمكن من تحقيق رغبته الشديدة في دراسة فن الرسم، فاضطر الى تعليم نفسه بنفسه عمليا، فتفتح عن رسام مبدع، بعيد عن التقليدية في مضامينه واشكال تعبيره، قريب الى الواقع القاسي للانسان العراقي، لصيق بالمرحلة الثورية التي كان يعيشها المجتمع، وأمين في التعبير عنها تشكيليا. وسرعان ما تحول بواقعيته التعبيرية، الى ركن من اركان الحركة التشكيلية العراقية المعاصرة في انطلاقتها المشهودة في خمسينيات القرن الماضي، الى جانب جواد سليم وفائق حسن والرواد اللامعين الآخرين.

بقي محمود صبري في العقود الماضية وحتى السنوات الاخيرة مستغرقا كليا في هموم الوطن وهموم الثقافة. وقد قادته هموم الوطن الى المزيد من تأمل ودراسة الواقع الإجتماعي والسياسي والتعاطي معه، والى الاحاطة بالكلاسيكي والجديد في الفكر والفلسفة، لا سيما في الماركسية التي بقيت ملجأه الثابت في السعي الى فهم وتوضيح العمليات الجارية في المجتمع العراقي والانساني عموما. وكان من ثمار انصرافه الى ذلك عديد من الابحاث المهمة المنشورة في كتب او في مجلات، بدءاً بالدراسة اللافتة والفريدة من نوعها لفكر البعث الفاشي، الصادرة غداة انقلاب شباط سنة 1963.

وانغمر الفقيد بجانب ذلك في مشروعه الفني التشكيلي، الذي ظل يطوره ويتطور معه في الستينيات والسبعينيات، حتى توصل الى رؤية جديدة تربط بين الفن والعلم، وتفيد من التقدم العلمي الهائل في الفن التشكيلي. وهو ما تجلى في اسلوبه الجديد في الرسم، الذي سماه

"واقعية الكم"، ووضع له اساسا نظريا نشره في كتاب حمل التسمية نفسها، ونشره بالعربية والانجليزية.

في الميدانين: الوطني –السياسي، والثقافي (الفني) –الفكري، المترابطين والمتداخلين، ترك لنا محمود صبري منجزا كبيرا وإرثا غنيا، جديرين بالاعتزاز، وبالدراسة والتعلم منهما والانطلاق من خلاصاتهما.

لكننا لا نودع في محمود صبري الراحل مناضلا وطنيا –شيوعيا كبيرا، وفنانا متوهج الابداع ثرّ العطاء، ومثقفا – مفكرا عميقا ورصينا.. ليس هذا كله فقط. بل نودع فوق ذلك انسانا نادر المثال في صفائه ولطفه ودماثته وحرارة قلبه وسعة صدره وحدة ذكائه، وفي نكرانه الذات وتواضعه واهتمامه الصادق بالآخرين –قريبين وبعيدين..

لم يكن بيننا، وليس بيننا، كثيرون من امثال محمود صبري..

ما أفدح خسارتنا برحيله!

بغداد13 نيسان 2012

محمود صبري في سطور

● ولد في بغداد عام 1927وانهى دراسته في العلوم الإجتماعية من بريطانيا عام 1949 وله ابنة (ياسمين) وابن (محمد).

● برز في خمسينيات القرن الماضي في مجالات الفن العراقي الملتزم ضمن ما سمي "جماعة الرواد" وله العديد من المشاركات في المعارض العراقية والعالمية.

● عمل في مؤسسات عراقية عدة في بغداد خلال الفترة 1949 – 1960 واخرها مدير عام مؤسسة المعارض العراقية بعد ثورة ١٤ تموز 1958.

● نشط ومنذ اربعينيات القرن الماضي في فعاليات واطر الحركة الديمقراطية والوطنية العراقية، خاصة في المجالات الثقافية والفكرية.

● استقر في العاصمة الجيكية (براغ) منذ عام 1963 منشغلا في الاهتمامات السياسية والنظرية، وقد شارك في العديد من الفعاليات والمؤتمرات والندوات العربية والدولية المهمة، ومن بينها عضوية لجنة الدفاع عن الشعب العراقي الى جانب الجواهري وجلال الطالباني ونزيهة الدليمي وفيصل السامر وذنون أيوب وصلاح خالص ونوري عبدالرزاق..... كما شارك عام 1991 في مؤتمر بيروت للقوى والحركات والشخصيات العراقية المعارضة للنظام الدكتاتوري.

● له العديد من البحوث والدراسات والمقلات الفكرية والسياسية والفنية، وقد نشرت – كما نشر عنه –في الكثير من الصحافة ووسائل الاعلام العراقية والعربية والعالمية وبلغات مختلفة.

● يُعد من ابرز فناني العراق ومثقفيه المعاصرين، وهو صاحب نظرية "واقعية الكم" العلمية الفنية المهمة التي اطلقها سنة 1971، والتي تعني ببساطة "مزج الفن بوظيفته الإجتماعية التي تميز بها عبر العصور: تمكين الانسان من السيطرة على الطبيعة وتغييرها – وبالتالي تغيير نفسه"..... ولها موقع خاص على شبكة الانترنيت:
www.quantumrealism.co.uk

المثقف والسياسة والاستبداد ❖

محمود صبري

1- ملاحظة أولية

قد يكون ابسط تعريف للمثقف يمكن ان نبدأ به هو كمنتج موضوعات وأشكال ونشاطات فكرية –روحية يمارس ويتعامل مع إنتاجه في ظروف حياتية معينة وفي إطار معين من علاقات مجتمعية.

إنه يقوم بهذا الشكل من النشاط بمواصلة وإعادة تقييم وتطوير تراث فكري معين في سياق اجتماعي تاريخي جديد. وبذلك فإنه يضع قضية التطور الروحي للمجتمع وبدائل المستقبل في جدول عمل الحاضر، ويتبناها كمسؤولية ذاتية. إنه يصبح البوتقة الفكرية التي يصهر فيها الحاضر (خلال الصراع الإجتماعي) صورة الماضي ويحوّلها إلى رؤية مستقبلية.

غير ان السياق الإجتماعي ليس كياناً مفكك الأجزاء من وحدات منعزلة مستقلة. إنه في جوهره شبكة علاقات مترابطة متفاعلة. لهذا فإن الموروث الفكري الذي هو مركز اهتمام المثقف ومادة نشاطه الأساسية يرتبط دوماً، على نحو معقد غير واضح أو غير منظور، مع مضامين أخرى (اجتماعية، سياسية، الخ). الترابط يكشف عن نفسه إلى هذا الحدّ أو ذاك في فترة أزمة، أو حينما يصبح الإنسان على وعي به وبالتالي يصبح هدفاً للاستقصاء.

ميزة عصرنا هي أنه عصر أزمة. وهو أيضا عصر وعي بترابط الأشياء جوهرياً على المستويين الفيزيائي –المادي والمجتمعي. وبالتالي فهو عصر صراع (يوصف غالباً بأنه صراع واع) من أجل حل أزمته على مستوى جوهري.

هذا يتضح مثلاً حتى في ازمة الاستبداد والقمع التي تسحق المجتمع العراقي. فهي تدفع المثقف، الذي يصبح بالضرورة طرفاً في الصراع، إلى وعي بأهمية توسيع سياق نشاطه النظري والعملي، والتفاعل مع الموروث الفكري –الإجتماعي في علاقاته المتشابكة على نحو شامل. لهذا فإنه يخرج برؤية تمزج التطور الروحي –الإجتماعي، والنظري – العلمي معاً، ويدخل المعترك السياسي – الإجتماعي كإحدى القوى الفاعلة.

المثقف العراقي يعيش صراعه الثقافي الحياتي منقسماً على نفسه بين عالمين مختلفين من الوجود المادي والروحي. فهو في داخل الوطن محاصر بإطار مظلم من العنف والاستبداد والتسلط الأيدولوجي والتعمية. وهو في المنفى مرغم على ممارسة صراعه في ظروف من الغربة والتشرد

وعدم الاستقرار والمعاناة. غير ان مشكلته تقترن أيضا بعوامل أخرى جوهرية:

(1) إنه يخوض هذا الصراع مثقلاً بأزمة إحباط ويأس لفشل قوى المعارضة السياسية العراقية في صهر منبر مشترك فعّال للخلاص من الحكم الدكتاتوري وخلق رؤية واضحة للمستقبل الذي تعد به شعبنا، تلهم الثقة والتفاؤل والأمل.

(2) إنه يعيش صراعه في عالم تحولات سياسية– اجتماعية– فكرية عاصفة. فانهيار تطبيقات الفكر الاشتراكي، خاصة بالشكل المذهل الذي حدث في أقطار عديدة، خلق حالة التباس وغموض وإحباط، وأزمة بدائل ورؤى.

(3) غير أنه يشهد أيضاً هذا الانفجار الكوني في وعي الإنسان بحقوقه وحرياته، ولربما تؤلف هذه الظاهرة، التي تعطي صراعه زخماً جديداً، المؤشر الوحيد المحسوس من التفاؤل والأمل في عالم يمزقه العنف، البؤس واللاعقلانية والتعصب الأعمى.

كان هذا ينعكس عند المثقف العراقي كتجربة حياتية مباشرة، ويعطي صراعه الفكري –السياسي بعداً كونياً يدفعه الى إعادة نظر في كثير من المسلمات السابقة. لهذا بحثه العنيف عن حلّ يعد باختراق هذه الأزمة من المعاناة واليأس والالتباس، ويصبح مقياساً وصحة نشاطه الفكري والسياسي. غير انه (وهذا عامل إحباط آخر) يجد نفسه ملزماً بالاختيار بين البدائل نفسها والأطر الفكرية التقليدية التي لم تعد تلائم الظروف الجديدة.

الاختراق الأمثل للأزمة يتطلب بالضرورة إطاراً آخر جديداً خارج نطاق هذه البدائل. هذا ممكن فقط بإعادة تقييم مفهوم المثقف وموقعه ودوره المجتمعي، في سياق المعرفة الجديدة التي تقترن بالثورة العلمية– التكنولوجية. هنا نصطدم بجدار سميك من الأغراض والتعمية، بموروث محبط من مفاهيم وتنظيرات خاطئة حجّمت دور المثقف والفكر تاريخياً. لهذا نحتاج مقداراً غير قليل من الجرأة الذهنية والخيال لخرق هذه السدود الفكرية الموروثة.

الملاحظات التالية هي خطوة في هذا الاتجاه. بيان بموقف المثقف العراقي الجديد الذي يأخذ قضيته (وبالتالي قضية مجتمعه) بيده.

2– المثقف كفردية بامتياز

نقطة التأكيد الأولية عند الكلام عن المثقف هي أنه (كمنتج فكري– روحي) يمارس وظيفته كمنتج فردي بامتياز. لهذا بدلا من الانطلاق مما هو عام، فإننا نبدأ بالفرد. هذا هام أيضا، أولاً، لأن مشكلة الفرد، دوره وعلاقاته وحقوقه... الخ، هي كميات جرى خطأ قبلاً إهمالها أو تجاهلها الى حدٍّ كبير لصالح المجموعة. وهي تكتسب الآن، بحق، أهمية متزايدة. فالتطور التاريخي يتجه بالضرورة نحو نوع من التوازن والانسجام بين حقوق الفرد والمجموعة. ثانياً، لأن من الضروري، أيضا الاهتمام بذلك الدافع الغامض الغريب الكامن في ذات الإنسان، والذي يعمل بشكل خاص داخل المثقف كمنخس أو شوكة في لحمه تدفعه دوماً إلى اختراق الضباب الكثيف الذي يغلفه بحثاً عن معان وقيم جديدة.

هذا يؤكد أيضاً صعوبة تحديد دقيق

لمشكلة المثقف والخلق. الدافع الذي دفع اقتصادياً كماركس، أو فناناً كسيزان، أو طبيباً كفرويد، أو عالماً كاينشتاين، أو شاعراً كبريشت، الخ، الى بحث متواصل عنيد لتحقيق مثل هذا الاختراق. أين هي الدوافع الاقتصادية في هذه النماذج الرائعة وغيرها من الجهاد الفكري؟ عبثاً نبحث عنها فيهم. إنها الإطار المجتمعي العام، بينما دافعهم المسيطر هو فكري، لفهم العالم وتغييره، يخلقه ويغذيه صراعهم الذاتي الفكري المتواصل.

بكلمة أخرى، بالنسبة للمثقف، الدافع الأساسي يكتسب هذه الصفة الفردية المتميزة لأنه فكري. إنه يرتبط عضوياً بوظيفته الحياتية. وهو يوجّه دوره المجتمعي، اعني التعبير عن المعاني والقيم التي يكتشفها، بأشكال من الوعي. لهذا فإنه مشكلته ترتبط جوهرياً بحرية الفكر والتعبير. إذ كيف يمكن للمثقف (كفرد) البحث عن معانٍ وقيم جديدة في العالم (بجانبيه الطبيعي والإجتماعي)، أو التعبير عنها أو إيصالها، إذا كانت هناك قيود تمنع حريته في التفكير والتعبير باللغة التي يختارها لنفسه؟

3- قضية المثقف (الخاصة والعامة)

المثقف، كما اشرنا، يمارس إنتاجه الفكري- الروحي في ظروف حياتية معينة ونظام معين من علاقات مجتمعية. هذا هو أساس دايلكتية العلاقة التي تربط قضية المثقف، الخاصة والعامة.

السمات المميزة لهذه العلاقة تتضح بمقارنة المثقف بالعامل. الأخير مثلاً يؤسس نقابة عمال للدفاع عن مصلحته الخاصة (مستوى الأجور، الساعات وظروف العمل، الخ). المصلحة جوهرياً اقتصادية -مادية، وهي قابلة للتحديد كمياً. وتسري على مجموعة العمال كمقياس محسوس محدّد. العامل ينتج (عادة) ضمن مجموعة، وإنتاجه مادي.

المثقف يؤسس رابطة مثقفين للدفاع عن مصلحته الخاصة (حرية الفكر والتعبير والإيصال، الخ). المصلحة جوهرياً فكرية، وهي غير قابلة للتحديد كمياً. ولكنها تؤلف بالنسبة لمجموعة المثقفين مثلاً أعلى، هدفاً أو معياراً مطلقاً. المثقف ينتج (حتى في النشاطات الفنية التي تتخذ شكلاً جماعياً كالمسرح والسينما، الخ) على نحو فردي، وإنتاجه فكري -روحي.

من ناحية أخرى، العامل والمثقف على وعي بأهمية التعاون المتبادل بينهما ومع قوى أخرى ضمن الإطار المجتمعي الأوسع. وبهذا فإن نشاطهما ينتقل من إطار قضية خاصة إلى إطار القضية العامة. العامل يعي دوره كقوة مادية، التأثير الذي يمارسه صراعه الاقتصادي مثلاً في تحفيز أو تطوير أو تفجير الصراع المجتمعي. المثقف يعي دوره كقوة فكرية ذات بعد اجتماعي. صراعه الخاص من اجل حرية الفكر والتعبير مثلاً، يكتسب أهمية مجتمعية ويصبح هدفاً وشعاراً عاماً شاملاً. إنه أيضاً على وعي بالدور الذي تلعبه أفكاره في صياغة أهداف وشعارات الصراع الأوسع، في تكوين وتوجيه الوعي الإجتماعي، في خلق الرؤية المستقبلية للمجتمع، ولكنه، قبل كل شيء، يدرك ان الأفكار تصبح، كما هو معلوم "قوة مادية عندما تسيطر على أذهان البشر".

4- وحدة وتناقض الفكر والعمل

المقارنة السابقة تظهر اختلاف الفكر والعمل في طبيعة المصالح والإنتاج والدور المجتمعي. هذه الاختلافات تفرض تمايزاً (وحتى تناقضاً ظاهرياً) في الأولويات والتفاصيل الخاصة في جدول عمل كل منهما. غير أنها (وخاصة ضمن متطلبات الصراع المجتمعي) تخلق في الوقت نفسه الدافع والحاجة إلى وحدة بينهما.

فالثقافة والعمل يمثلان القطبين الأساسيين النقيضين، ولكن الضروريين، في أية عملية تستهدف تغيراً خلاّقاً في العالم. هذه العلاقة تكاد تكون بديهية الآن. ماركس تكلم عن وحدة كهذه بين العمل والفكر في الصراع المجتمعي قبل حوالي قرن ونصف، حينما أشار إلى أن الفلسفة تجد سلاحها المادي في "العمل" و"العمل" يجد سلاحه الروحي في الفلسفة.

حقاً إن هذه العلاقة التي توحدّ بين مبدأين متناقضين هي صيغة أخرى للتعبير عن نمط الخلق الطبيعي، كما يتجلى، مثلاً، على مستوى الوجود الإنساني. فالإنسان كأعلى نتاج طبيعي، هو النموذج الأسمى لوحدة وتناقض الروح والجسد، الفكر والمادة.

5- تكافؤ الفكر والعمل

هذه العلاقة المتبادلة من الوحدة والتناقض بين الفكر والعمل تعبّر أيضاً عن نمط وجود وتعامل الانسان الفعلي مع العالم. حقاً لقد جرت تجزئة هذا التعامل إلى فكري ومادي منذ آلاف السنين. النقطة الهامة التي اقترنت بهذه التجزئة، والتي تهمنا هنا على نحو خاص هي أولوية أيّ من الموقفين على الآخر: الفكري أو المادي. هذا يكمن على أساس الصراع التاريخي بين المثالية والمادية. المثالية غذّت مفهوم أولوية العمل المادي/ اليدوي.

هذا هو الإطار الكلاسيكي الذي ساد حتى نهاية القرن الـ19 واستمر حتى وقت قريب.

العلم الطبيعي الحديث فتح الطريق أمام رؤية مختلفة تعطي هذين الموقفين النقيضين (المادي والمثالي) وجوداً متكافئاً : الفكر ليس وظيفة للمادة أو اشتقاقاً منها، كما يقول الماديون. كما أنه ليس أصل الكون المادي أو خالقه كما يقول المثاليون. الرؤية الجديدة تنظر الى الفكر والمادة كتعبيرين أو صفتين لماهية كونية أولية هي ما يسميها العلم بـ"المجال" أو كما يقول أنشتاين "المجال هو الواقع الوحيد". ومنه تستمد مختلف الظواهر الطبيعية- اللاعضوية، والحياتية والفكرية، خصائصها وأنماط سلوكها. غير أن هذا هو موضوع آخر لا موجب للخوض في تفاصيله هنا. المهم بالنسبة لموضوعنا هو أنه (أي المجال) يؤلف، كواقع فيزيائي، نقطة الانطلاق الجديدة لتحديد موقف معين من علاقة الثقافة بالعمل، كعلاقة متكافئة. أهمية هذا التكافؤ كمبدأ جديد في الصراع المجتمعي هائلة. انه يعني أن العمل لا يمكنه لوحده بمعزل عن الفكر تغيير العالم، بل تشويهه فقط.

فالتغيير، بلا صورة فكرية مسبقة فعّالة موجّهة، يكون دوماً اعتباطياً أعمى. أهمية التكافؤ كمبدأ ينظّم علاقة الفكر بالعمل في اطار الصراع المجتمعي.

6- القرن الـ20 - عصر ظهور المثقف كقوة مستقلة

العالم منذ ظهور الحضارة والتناقض الطبقي الذي اقترن بها، قبل حوالي 5000 سنة، قام على وجود "مراكز قوى"، مراكز تمتلك السلطة أو النفوذ أو المال. الفكر كان دوماً "تقنية في خدمة الأقوياء". والمثقف كان مؤمناً بدوره الثانوي وقانعاً بقدره. (ولم يكن"العمل" أوفر حظاً، فقد كان بالمثل دوماً تقنية مادية في خدمة الأقوياء).

النظام الرأسمالي غيَّر هذه العلاقة باخضاع المثقف (وكذلك العامل) إلى متطلبات اقتصاد السوق. وبالتالي فإنه حرّره من تبعيته المباشرة لـ"مراكز القوى" التقليدية. ولكنه استبدلها بمراكز قوى جديدة أقل مباشرة، ترتبط بالسوق. المثقف أخذ يتحرك في المجتمع بالحرية وإلى الحدود التي تسمح له بها قوانين الاقتصاد الحر وأنظمة الامتيازات المتوارثة، التي استطاعت تمديد بقائها بتحالفها مع الرأسمال. هذا التحول في وضع المثقف أصبح واضحاً على نحو خاص في عصرنا. إنه عصر ظهور المثقف كقوة اجتماعية مستقلة (وهو يقترن أيضاً بظهور العامل كقوة اجتماعية واعية بذاتها على المستوى الانتاجي المادي). التحول هو من نوع يتعذر إلغاؤه، لأنه يرتبط عضوياً بثورة العلم والتكنولوجيا التي تمتد جذورها إلى القرن الـ19. هذه الثورة أدت إلى تفجير قوى الانتاج والمعدات الحياتية المادية للإنسان، وإلى انقلاب في معداته التفكيرية ورؤيته للطبيعة وللمجتمع. إنها ثورة الفكر والعمل معاً من أجل نمط جديد من الوجود البشري الإجتماعي.

غير أن الثورة العلمية- التكنولوجية كشفت أيضاً عن الصلة الوثيقة التي تربط مختلف فروع المعرفة والنشاط البشري والمشاكل التطبيقية التي تقترن بها. لهذا فإنها فتحت الطريق أمام وحدة جديدة في الثقافة ذاتها تتناول فروع المعرفة العلمية والتطبيقية والفنية.

هذا التطور الجديد يجد تعبيراً الآن في المفهوم الجديد للتعامل الكلي، متعدد الفروع، مع المشاكل الإجتماعية - الاقتصادية- الروحية- البيئية للإنسان مع الطبيعة والمجتمع في آن واحد.

التحول الجديد أخذ ينتشر مع انتشار المعرفة والتكنولوجيا حتى في أقطار ما يسمى بالعالم الثالث. كل هذا معلوم، ومعلوم أيضاً أن العراق أصبح منطقة محرّمة على هذا النمط الجديد من الثقافة. فحكام العراق أفلحوا على نحو كارثي في الارتداد بهذا البلد إلى الوراء في الفضاء- الزمن التاريخي إلى أيديولوجيا وميكانيزم الاستبداد الشرقي للعصر البرونزي.

7- مشكلة المثقف الواعي بدوره الإجتماعي

غير ان مشكلة المثقف الذي يعي دوره الإجتماعي، "المثقف المجاهد"، هي حتى أكثر تعقيداً. إنه أدرك منذ البداية ضرورة وأهمية مزج صراعه من أجل حرية الفكر والتعبير مع الصراع المجتمعي الأوسع. وقد قام بذلك عبر انتمائه إلى "مراكز قوى" معينة، وجد في تمردها ضمن القديم ورؤيتها المستقبلية ما ينسجم مع رؤيته وتمرّده.

الأزمة انفجرت بسبب عوامل محلية

وعالمية، مترابطة في الجوهر. العامل المحلي تمثّل في فشل هذه "المراكز" في فهم الدور الحقيقي الحيوي للثقافة الحرة في الصراع المجتمعي. بين "وحدة الثقافة والعمل" فتحوّلت في التطبيق (بسبب قمع المبادرة والتجديد لاعتبارات ايديولوجية دوغماتية) إلى "قمع للثقافة باسم العمل" لهذا تعذّر على هذه "المراكز" بلورة الرؤية الملائمة اللازمة في الصراع من أجل الديمقراطية والحرية والعدل الإجتماعي.

العامل العالمي تمثّل في تفتّت جوانب أساسية من الرؤية التي كانت مصدر إلهام كثير من البشر لسنوات طويلة وانهيار تطبيقاتها على نطاق واسع. الانهيار حدث لأسباب كثيرة، ربما أهمها هو: أولاً، فشل هذه التطبيقات في عصر الثورة العلمية– التكنولوجية– المعلوماتية، في رفع الانتاج المادي والمعدات الحياتية إلى مقاييس مقبولة، أو إعادة إنتاج منجزات التكنولوجيا الحديثة لتصبح جزءاً من البيئة الحياتية للمواطن العادي. ثانياً، فشلها في تحويل الرؤية الجديدة للعلم الطبيعي إلى جزء أساسي من مكونات الوعي البشري، لأنها لم تدرك أهمية هذه الرؤية على الصعيدين الفكري والإجتماعي في بناء وتطوير المجتمع الجديد. لهذا فانها أخفقت في فهم وتقييم المضمون الحقيقي للصراع الايديولوجي العالمي في هذا العصر. وهو الصراع الذي كان له في النتيجة الدور الحاسم. ثالثاً، فشلها الكارثي في إدراك التطور المفجِّر للوعي بالحرية والديمقراطية في عصرنا، وتحويله الى واقع محسوس فعّال. فقضية بناء مجتمع جديد (اشتراكي) هي عملية طويلة معقدة، ولا يمكن أن تتم بمعزل عن الديمقراطية. انها ليست (ولا يمكن أن تكون) حقاً استثنائياً مقصوراً على فئة مختارة، "نخبة"، مهما كانت. بل انها بالأحرى قضية القرار الحر والجهد الفكري –العلمي المشترك الواعي لكامل المجتمع.

المثقف وجد نفسه فجأة بلا موقع ثابت واضح، بلا رؤية مستقبلية مقنعة تماماً في الصراع المجتمعي المحلي والعالمي. لهذا احتجاجه المليء بالغضب والمرارة: "مع من أتصارع؟ ومن أجل ماذا؟".

المشكلة تتناول تحديد أمرين: "الخصم (وبالتالي، الحليف)"، و"القضية".

في كلتا الحالتين ينبغي ان ينطلق الحلّ من طبيعة نشاط المثقف كمنتج فكري– روحي، والعلاقة الدايلكتية التي تقترن بهذا النشاط وتربط مصلحته الخاصة والعامة. العلاقة معقدة.

(1) المثقف يدخل صراعاً من أجل حرية الفكر والتعبير وضد أعداء حرية الفكر والتعبير.

(2) إنه يربط هذا الصراع الخاص بالصراع الإنساني الأوسع لتغيير هذا المجتمع اللا أخلاقي إلى مجتمع من الحرية والعدل والوفرة يليق بالإنسان. وهو يقوم بذلك بالتحالف مع القوى الأخرى التي لها مصلحة في تحقيق مثل هذه الأهداف وخلق مثل هذا المجتمع، وفي مقدمتها قوى "العمل".

(3) غير أن المثقف يدخل أيضاً في صراع من أجل ثقافة تتلاءم مع هذه الأهداف والرؤية، وبالتالي فإنه يدخل في صراع ضد أعداء هذه الثقافة.

لهذا فإن بلورة أشكال وقيم ومعاني هذه الثقافة تصبح ضرورة تتطلبها، ليست فقط

مسؤولية المثقف الفكرية كمنتج أشكال ونشاطات روحية يقوم بإعادة تقييم الموروث الفكري، بل مسؤوليته الإجتماعية- السياسية أيضاً. فهذه الأشكال الفكرية هي الأدوات الأيديولوجية اللازمة لخوض الصراع المجتمعي الأوسع. الأشكال التي "يصبح البشر خلالها على وعي بصراعاتهم ويقومون بحسمها".

مسؤولية المثقف إذن مزدوجة: إنها التزام اجتماعي سياسي، وآخر جوهري، فكري- روحي. هذا الالتزام الأخير يشمل رؤية المثقف وأشكال وقيم ومعاني الثقافة التي ينتجها. حقاً يمكن النظر الى هذه المسؤولية كوحدة ثقافية يؤلف الالتزام الإجتماعي- السياسي أحد عناصرها أو مضامينها.

هذه المسؤولية الثقافية هي قضية المثقف التي يدخل الصراع من أجلها وضد خصومها.

هذا يقودنا إلى مسألة تحديد الملامح الأساسية لهذه الثقافة التي أخذت تبرز تدريجياً في عصرنا مع تطور الثورة العلمية- التكنولوجية.

8- ثقافة واحدة لعصر علمي

الثورة العلمية- التكنولوجية جهّزت الإنسان بأداتين (وثيقتي الارتباط، للتعامل مع العالم وتغيره:

(2) فكرية- علمية، كرؤية وكفهم جديد للعالم، كشفت (كما رأينا) عن الصلة الوثيقة التي تربط مختلف فروع المعرفة البشرية وتطبيقاتها، وبالتالي العلاقة المتبادلة بين الظواهر الطبيعية- البيئية، والفكرية والإجتماعية والاقتصادية. وهكذا فتحت الطريق أمام مفهوم جديد للتعامل الكلي، متعدد الفروع، مع المشاكل المختلفة التي يواجهها البشر.

هذا الموقف الجديد هو تأكيد لمفهوم قديم للعالم، يرجع إلى هيراقليطس، ودعا إليه مفكرون (مثاليون وماديون، كل من زاوية نظره الخاصة) كهيغل وماركس/انجلز ووايت هيد، الخ. المفهوم ببساطة هو أن العالم ينبغي فهمه دايلكتياً كنظام دينامي من عمليات متفاعلة متطورة ترتبط فيما بينها على نحو شامل، متعدد الجوانب والأشكال. وهو يتناول ظواهر الطبيعة والمجتمع، وعمليات التاريخ والفكر معاً.

ورغم ان العلم الحديث أكّد (كما قلنا) هذا المفهوم الدايلكتي بصيغته العامة، إلا أنه كشف عن تحديداته التأملية والميكانيكية. مثل هذه التحديات طبيعية، وهي تعكس تحديدات عصرها. فهذه الأنظمة الدايلكتية (باستثناء نظام وايت هيد) صيغت في وقت كان الاطار العلمي الكلاسيكي للمعرفة ما يزال سائداً، أي قبل ظهور فيزياء النسبية وميكانيكا الكم. مثلاً، إذا أخذنا الصورة الدايلكتية التي تقترن بالفكر الماركسي، فإن تحديداتها تتضح عند مقارنتها مع دايلكتية الطبيعة على المستوى الميكروسكوبي كما كشف عنها العلم الحديث. لهذا من الصعب الكلام الآن عن الدايلكتيك الماركسي كنهج فعّال لفهم وتغيير العالم الإجتماعي على مستوى جوهري (وهو ما يردد عادة)، إلا اذا أعيد تقييمه في إطار الرؤية العلمية الجديدة.

(2) مادية- تكنولوجية، كنتاج تطبيقي للإدارة الفكرية، لتغيير العالم. هذه كشفت عبر منجزاتها المذهلة (في ميدان الذكاء الاصطناعي والطاقة النووية والتكنولوجيا

المعلوماتية، الخ) عن الإمكانيات الهائلة الكامنه في التكنولوجيا الجديدة، في تطورها المستقبلي، كأداة للسيطرة على الطبيعة وتحسين حياة البشر. الأحلام اليوطوبية للبشر عبر العصور لخلق عالم من الوفرة والحرية والجمال أخذت تكتسب لأول مرة في التاريخ ملامح واضحة لواقع ممكن التحقيق. غير أن كل هذا يتوقف على نجاح البشر في تدجين هذه التكنولوجيا واستخدامها على نحو عقلاني.

بكلمة أخرى، الثورة العلمية- التكنولوجية تضع أمام المثقف إطاراً جديداً يربط بين مفهوم لثقافة واحدة تلتقي فيها فروع المعرفة كافة في سياق علمي، ورؤية أكثر وضوحاً وإقناعاً لعلم مستقبلي من الجمال والوفرة والحرية.

هذا الإطار الجديد يصطدم الآن بالقصور الذاتي المتأصل في كامل التاريخ البشري، كما يتجسد في موروث من بدائل متناقضة تخيّم كقدر مظلم على البشر.

مثلاً، هناك البديل الكلاسيكي الذي اقترن بظهور الرأسمالية والذي، بقدر ما كان مفجّراً للثقافة بادئ الأمر، أصبح الآن يقيّد حركتها نحو آفاق جديدة. فهو ينطلق (خلافاً للموقف العلمي الحديث) من رؤية للعلم كنظام من أشياء وظواهر وقوى متمايزة منعزلة جاهزة الصنع. وبالتالي فانه يقوم على وجود حواجز ثابتة بين فروع المعرفة التي تتعامل معها (مثلاً بين العلوم الطبيعية والإنسانية، أو بين العلم والفن/ الأدب.... الخ). هذا البديل يرتبط على الصعيد الاقتصادي -الإجتماعي بمفهوم يرسم الحياة الإجتماعية كميدان "طبيعي" للصراع والمنافسة الحرة التي يفترض فيها "البقاء للأصلح". ويقترن بمبدأ "عدم التدخل" في النشاط الاقتصادي الحر للأفراد، حتى في ذلك التنافس المخبول الذي يتحول إلى "سباق للجرذان". بالنسبة لهذا المفهوم، الفقر والبؤس والجشع والعنف والحرب، تصبح مظاهر ملازمة للوجود البشري. فهي السمات والأعراض والنتائج الطبيعية لهذا الصراع الحر.

غير أن هناك أيضاً بديلاً آخر تعود جذوره إلى بربرية فجر التاريخ. وهو يتمثل في هذا الطوفان المظلم من التعصب الأعمى واللاعقلانية والتعمية، الذي يهدّد باكتساح الوجود والخيال الإنساني. إنه يقترن على الصعيد الإجتماعي- الاقتصادي بمفاهيم وممارسات من الاستبداد المطلق والجبرية والتمركز الاقتصادي- الإداري، والهيمنة الأيديولوجية وسحق إرادة الفرد.

المثقف ملزم بالصراع ضد هذه المفاهيم والقيم، سواء التي تدفع الانسان الى تمجيد القديم المتحجّر ونبذ الجديد الواعد بالحياة، والارتداد الى عالم من الخرافة والكانيبالية، أو التي تسفّه وتسخر من أحلامه ومسعاه لتغيير العالم وخلق مجتمع من التعاون والعدل والوفرة، كوهم يوطوبي ساذج.

المعيار الذي يحتكم إليه المثقف هو هذه الحركة التاريخية الكبرى لوحدة الفكرة والعمل التي تصهرها الثورة العلمية- التكنولوجية، والتي تتمثل بمفهوم الثقافة الواحدة للعصر العلمي الجديد.

9- المثقف والعمل السياسي- الإجتماعي

كل هذا يقود الى النقطة الأخيرة، الهامة: مسؤولية الثقافة في إطارها الواحد الجديد

في ميدان النشاط السياسي- الإجتماعي. هذه المسؤولية تعني نوعاً من الانتقال من النظرية إلى التطبيق. وقد يتخذ هذا أشكالاً مختلفة، مثلاً، تكوين منبر ثقافي، أو إصدار مطبوع دوري الخ... إذا أراد المثقف العراقي أن يلعب دوراً كقوة فكرية- روحية فعّالة في ميدان الصراع السياسي- الإجتماعي، فان عليه أن يدخل هذا الميدان انطلاقاً من مبدأ التكافؤ (الذي أشرنا إليه) بين الثقافة والعمل. أي ينبغي أن يدخل الصراع كقوة فكرية مستقلة على نحو متكافئ مع القوى الأخرى، كـ"مركز قوة" جديد يتبنى قضية المستقبل عبر نقد الإطار الفكري- الروحي الإجتماعي السائد للحاضر. أي أن عليه أن يدخل كقوة ثقافية- فكرية ذات برنامج ثقافي تؤلف السياسة جانباً منه فقط. وتضم المبدعين من مختلف فروع الفن/الأدب والعلم بجانبيه الطبيعي والإجتماعي، هدفها أن تبلور وتفرض على السياسة رؤيتها المستقبلية لمجتمع جديد.

المثقف ينبغي ان يدخل معترك العمل السياسي، لا كسياسي محترف يهتم بالثقافة، بل كمثقف محترف يهتم بالسياسة. وهكذا يستطيع أن يحرر نفسه من خدمة "مراكز القوى". انتماؤه الأساسي، الذي هو أوسع وأهم من أي انتماء آخر، هو الى الفكر والثقافة وليس الى السياسة. بل انه يستطيع أن يقلب الآية ويفرض على السياسة أن تنتمي بتبنّي رؤيته.

وإذ يربط المثقف المسؤولية السياسية بمسؤولية ثقافية (وبالتالي. أخلاقية- روحية)، فانه يفتح الطريق أمام نقد شامل للعملية السياسية ذاتها. مثلاً، الجانب الماكيافيللي في السلوك السياسي: بدلاً من مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" الذي أدّى ويؤدّي إلى نتائج فاجعة، فان المثقف يدعو إلى مبدأ "انسجام الغاية والواسطة" أو "الهدف والوسيلة". وينبغي أن يكونا متوافقين كلياً، ومتماثلين في القيمة الأخلاقية ذاتها. إذ لا يمكن تحقيق هدف انساني بوسائل لا إنسانية، أو بناء مجتمع عادل بوسائل أو طرق غير عادلة. فهذا يؤدي إلى تشويه انسانية الهدف وعدالة المجتمع على حدّ سواء. وهو يعني (حتى في إطار ديمقراطي) تغليب التعامل اللا أخلاقي في العملية السياسية. وبالتالي فانه يخلق جواً من الاحباط واللا مبالاة واليأس في المجتمع، ويقود الى نقص التطلع الديمقراطي وتثبيت الدكتاتورية والحكم الفردي.

الاعتراف بذلك يعني أيضاً رفض مفهوم دور النخبة القيادي في تغيير المجتمع كيفياً وفقاً لرسالة ايديولوجية، أو تبرير تاريخي، أو روية يوطوبية، الخ. فميكانيزم ممارسة السلطة من قبل النخبة يؤدي دوماً، رغم نيّاتها الأخلاقية المعلنة، إلى خلط النخبة بالهدف أو تحويلها إلى هدف قائم بذاته. لهذا بدلاً من أن تكون ادارة لتحقيق غاية اجتماعية معينة فإنها تصبح هي الغاية ذاتها. مثل هذه الأنظمة تدخل بالضرورة في تناقض مع أهدافها وتتحول إلى أشكال جديدة من الاستبداد. لهذا فان المثقف يرفض، كوهم ضارّ، ادعاء أية فئة، مهما كانت، بحق استثنائي في تغيير المجتمع بمعزل عن العملية الديمقراطية. فالطريقة الوحيدة المشروعة والفعّالة لإدارة المجتمع هي الجهد التعاوني الحّر المشترك الذي تقّره المؤسسات الدستورية المنتخبة على نحو ديمقراطي من قبل كافة الأفراد.

كل هذا يبين أهمية منبر ثقافي مستقل في بلورة وتثبيت وعي عقلاني- ديمقراطي بحقوق الأفراد ودورهم في الميادين الروحية/ الأخلاقية والاقتصادية والسياسية كأساس لبناء مجتمع من العدل والحرية والوفرة. تَمثل هذا الوعي لابد أن يكون علمياً، في إطار المعرفة الجديدة في ميادين الطبيعة والمجتمع، وبالتالي خارج الأطر السياسية التقليدية.

الفكر الماركسي كان يمكن أن يقوم بذلك، غير ان السياسة استطاعت احتواءه بدلاً من أن يحتوي هو السياسة. وهكذا حولته من نظرية علمية لتغيير العلم وتحرير الإنسان إلى أطروحة أيديولوجية لمشروع براغماتي للوصول إلى السلطة والانفراد بها من قبل نخبة.

أهمية هذا التأكيد على دور المثقف الجديد لقوة مستقلة ترجع إلى أن مسؤولية تحديد هوية "القضية" والخصم وبلورة "الرؤية" المجتمعية الصحيحة الضرورية في عصر الثورة العلمية- التكنولوجية، تقع على عاتق المثقف. إنها المسؤولية الأكثر أهمية الآن في هذا الصراع، ليس فقط على النطاق المحلي بل العالمي أيضاً.

هذا هو التحدي الجوهري الذي يجابه المثقف العراقي الذي يعي دوره الإجتماعي عشية القرن 21.

براغ: نهاية شباط- بداية مارس 1993

* (**الثقافة الجديدة**)، **العدد 2005/328**

ملاحظات على ملاحظات ❖

محمود صبري

قسمت الملاحظات ❖ ❖ في اربعة ابواب للسهولة:
اولا: حول مفهوم المجال.
ثانيا: حول الماركسية.
ثالثا: حول المنبر الثقافي.
رابعا: متفرقات.

أولا: حول مفهوم المجال

الصورة الكلاسيكية للعالم كما وصفها (نيوتن) هي صورة مجزأة: العالم نظام من وحدات مستقلة تتحرك في فضاء مطلق محايد وتؤثر على بعضها البعض بسبب وجود قوة حالة فيها تمارس فعلها عن بعد على نحو قوي وفقا لقانون التربيع العكسي. هذه الصورة انهارت في مطلع القرن العشرين بسبب انجازات العلم الحديث (خاصة النظرية النسبية وميكانيكا الكم).

الصورة الجديدة التي يرسمها العلم الطبيعي الان هي صورة كلية:

(أ) إن العالم هو مجموعة مجالات طاقة.

(ب) إن هناك نقاط تركيز في هذه المجالات تقترن بما يسمى بالجسيمات الاولية للمادة.

(ج) إن المجالات تتفاعل فيما بينها، وهذا يعني تفاعل الجسيمات الاولية التي تقترن بها.

بكلمة اخرى، العالم لم يعد يوصف كنظام من جسيمات واشياء وأجرام، الخ، تسبح في فضاء، كما افترض العلم الكلاسيكي، بل في مجالات متفاعلة. هذه الصورة مماثلة بوجه عام للصورة الدايلكتيكية التي رسمها انجلز للعالم، والقائلة بان العالم ينبغي ان لا ينظر إليه كنظام من اشياء/ مواضيع مستقلة بل من عمليات. في إطار هذه الصورة فإن مفهوم الجسيمات كنقاط تركيز في مجالات، يتطابق الى حدّ كبير مع المفهوم الذي ترسمه الموضوعة الرابعة حول فيورباخ، بان الانسان هو مجموعة علاقات اجتماعية. المجتمع لم يعد يفهم كنظام من "افراد" بل كمجال من "الارتباطات والعلاقات التي يجد الافراد انفسهم فيها".

لهذا ينبغي ان لا ينظر الى مفهوم المجال كابتداع في فرع معين من العلم الطبيعي، بل كتغيير جوهري في رؤية الانسان للعالم (بجانبيه الطبيعي والإجتماعي).

المفهوم الكلاسيكي للعالم، كنظام من وحدات مستقلة تتحرك في فضاء محايد مطلق (الذي ساد حتى نهاية القرن التاسع

عشر)، هو ليس إلا ذروة معرفة الانسان الزراعي وفهمه لعلاقة الاجسام (في الطبيعة والمجتمع) بالفضاء المحيط بها، وسببية الحركة والتطور والاحداث. الانسان تحرى تاريخيا هذه العلاقة، مفترضا السببية حالة في الاجسام ذاتها.

الانسان في عصرنا يقلب المعادلة بين الموضوع والفضاء المحيط به، فيعطي الأولوية الى الفضاء، ويبدأ بتحريه (كما تحرّى الاجسام/المواضيع قبلا) باعتباره في التحليل النهائي مصدر وسبب الحركة والتغيير والوجود. الخطوة قد تبدو، ظاهريا صغيرة، ولكنها تمثل انقلابا فريدا في علاقة الانسان مع الطبيعة والمجتمع، فهو يخالف المدلولات الحسية المباشرة كافة للانسان حول علاقة الاجسام بالفضاء المحيط بها.

جرى انقلاب مماثل (ولكن على نطاق اكثر محدودية بكثير) في نظرة الانسان الى (وعلاقته مع) الكون مع الثورة الكوبرنيكية، التي نقلت مركزية الكون (المعروف في حينه) من الارض الى الشمس. وانظر أي النتائج التي ترتبت على ذلك في علاقة الانسان مع الطبيعة والمجتمع ومع نفسه: ثورة في علوم الفيزياء والكيمياء والاركيولوجيا والبيولوجيا والاجتماع اضافة الى الفن والادب، الخ، بين القرنين 17 و 19. وهذه اصبحت، مع ما اقترن بها من تحولات في قوى الانتاج، الاساس لقيام وتطور الرأسمالية. السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما الذي سيؤدي اليه نقل مركز اهتمام الانسان وتحرياته من الموضوع/الشيء المادي، الى الفضاء (المجال) المحيط به، في ميادين المعرفة المختلفة وفي ميدان التطبيق الإجتماعي؟

ثانيا: حول الماركسية
(2) مسألة تطوير الماركسية

واضح ان النظرية التي لعبت (وما تزال) دورا مركزيا في الثورة الإجتماعية للقرن العشرين، هي الماركسية. أحد اهم المفاهيم التي تقترن بهذه النظرية، كما معلوم، هو المفهوم الدايلكتيكي: العالم بجوانبه الطبيعية والإجتماعية والفكرية، هو نظام كلي موحّد في عمليات متطورة وترتبط فيما بينها بعلاقات متشعبة وكونية. وفي مركز هذه الصور يقف الانسان (في سياق المجتمع) كتجسيد للعلاقات الانتاجية –الإجتماعية.

مفتاح هذه الصورة هو نشاط الانسان الانتاجي: "الانسان يعمل على العالم الخارجي (الطبيعي والإجتماعي) ويغيّره، وبهذا فانه يغير نفسه". بكلمة اخرى، عملية الانتاج تربط الانسان والمجتمع والطبيعة في كل واحد متطور. لهذا عندما يقوم الانسان خلال عمله على الطبيعة باختزالها الى مستوى جوهري مكونا صورة جديدة لنسبيتها وقوانينها فإن هذه الصورة الجديدة لا بد وان تنعكس في (وتلوّن) الصورة التي يكونها الانسان عن نفسه وعن المجتمع ايضا.

الدايلكتيك الماركسي (المادي والتاريخي) صيغ قبل الاختراق الثوري الذي تحقق في ميدان العلم منذ نهاية القرن التاسع عشر. لهذا:

(أ) ينبغي تطويره في ضوء المدلولات والمفاهيم التي اقترنت بهذا الاختراق.

(ب) اختبار الصيغة الدايلكتيكية الجديدة في التطبيق في ميادين النشاط المعرفي – الإجتماعي– فالماركسية ينبغي التعامل معها

قبل كل شيء –كعلم –وبالتالي ان تكون قابلة للتغيير/للتطوير، خاصة مع كل تجديد ثوري في العلم الطبيعي.

ومع ذلك ينبغي التأكيد هنا بقوة: ان الدايلكتيك الماركسي حتى في صيغته التي وضعها وانتجها ماركس منذ منتصف القرن التاسع عشر لم يجر تطبيقه (خاصة في تقاليد الماركسية السوفيتية) بإدراك كاف لجوانبه الدقيقة الاختلاف عن الفكر الكلاسيكي. مثلا: مفهوم العالم كنظام من العمليات، او مفهوم الموضوع (أو "الواقع") "كنشاط حسي بشري"، او مفهوم الانسان كنظام عن علاقات اجتماعية... الخ. هذه المفاهيم الهامة عوملت، لا كمنطلقات جديدة للبحث والتطبيق في ميادين النشاط البشري المعرفي المختلفة (على ضوء اكتشاف العلم الطبيعي الجديد في القرن العشرين)، بل كصيغ مجردة تردد في الدراسات والابحاث على نحو مدرسي (سكولاستي).

(2) نظرية المعرفة

تشير الى ثلاثة اقتراحات:

(أ) ثنائية الذات –الموضوع.

(ب) الغاء الثنائية.

(ج) حجيرة رباعية لكيان عضوي معرفي: "ذات عارفة؟ نظام أو جهاز اشارات معرفي؟ موضوع المعرفة؟ ذات اخرى تنتقل اليها المعرفة".

من بين هذه الاقتراحات الثلاثة، فان الأول (ثنائية الذات –الموضوع) هو خارج الصدد. انه مفهوم كلاسيكي. وقد انهار كليا مع الثورة العلمية الحديثة. أنا مع الاقتراح الثاني، وحدة الذات –الموضوع. انها أبسط علاقة معرفية. وبهذا المعنى يمكن تسميتها بـ"عملية" او "حدث" أو "كم" معرفي. ماركس في الموضوعة الاولى حول فيورباخ أطلق على "الشيء"، "الموضوع" اسم "نشاط حسي بشري". وبذلك فانه من ناحية يرسم صورة العالم المحيط بنا كوحدة ذات –موضوع. ومن ناحية اخرى يقيم هذه الوحدة على اساس "الممارسة" (ولو ان هذه النقطة يمكن مناقشتها على مستويات مختلفة). من ناحية اخرى "البساطة" تتعلق بجانب اساسي في المنهج الماركسي، اعني، "نقطة البداية". فتحليل أي موضوع ينبغي ان يقودنا من المحسوس الى المجرد، أو بالاحرى الى ابسط علاقة مجردة يمكن الابتداء/الانطلاق منها ثانية عبر التفكير نحو المحسوس. أبسط علاقة عندئذ ينبغي ان تكون بين جانبين او تحديدين، وبالتالي تؤلف وحدة بينهما.

كما نعلم جيدا، في "الرأسمال" ماركس يبدأ بـ"البضاعة" كأبسط علاقة في الاقتصاد السياسي. (لينين يعتبرها "حجيرة المجتمع البرجوازي"). انها وحدة بين جانبين "قيمة الاستعمال + قيمة التبادل". وخلال تحرّي هذين الجانبين وعلاقتهما يجري الكشف تدريجيا عن العلاقات والتناقضات التي تقترن بهما والتي تمتد الى كامل المجال الإجتماعي. طبعا يمكن القول ان تحليل تركيب البضاعة هو مسألة تتعلق بالمنهج (الماركسي). غير ان "البساطة" تبقى عاملا اساسيا وهدفا (حتى في ميدان العلم الطبيعي) عند تحديد تركيبة نظام –أو شيء ما كما هو الامر مع "الحجيرة المعرفية" مثلا.

وحدة الذات –الموضوع تبقى ابسط علاقة ممكنة. اما الجانبان الاخران (اعني "النظام الاشاراتي" + "الذات الاخرى التي تنتقل اليها المعرفة") فانهما يتبعان منطقيا من

تحليل تلك العلاقة البسيطة. اللغة مثلا هي جزء من معدات "الذات الاخرى التي تنتقل اليها المعرفة" فانها تقع في (أو بالاحرى تمتد الى) هذا النسيج (الذي يسميه ماركس بمجموعة العلاقات الإجتماعية) والذي يضم العمليات الجوهرية الإجتماعية والتراكيب الفوقية التي يقوم عليها.

تجدر الاشارة الى ان "موضوع" المعرفة (في الحجيرة المعرفية) هو الميدان الذي حدث فيه هذا التحول الثوري في علاقة الانسان مع الطبيعة في هذا القرن. حيث انتقلت هذه العلاقة من مظهر الطبيعة الى جوهرها (مستوى الجسيمات الأولية والمجالات). هذا الاخير اصبح اساس "موضوع المعرفة" الجديد. هذا التحول انعكس في فروع النشاط المعرفي والعملي الاخرى. وقد ترتب عليه مثلا: الغاء ثنائية الذات –الموضوع، تثوير مفهوم "جهاز الاشارات المعرفي"، زوال مفهوم أولوية المثالية او المادية، الخ.

(3) بنية الانتاج العالمي

(أ) تقول هناك "نقلة من الاقتصاد القومي –القاري الى الكوني". هذا صحيح. غير ان هذه النقلة هي جانب واحد من التثوير الذي تحقق في بنية الانتاج العالمي. إنها تمثل الجانب الافقي من العملية. هناك جانب اخر، عمودي. وهذان الجانبان يمثلان المحورين اللذين يمكن خلالهما اعطاء صورة أدق – وأصح –لعملية الانتاج الحديث وامكانياتها. وأظن ان الجانب العمودي هو الاكثر أولية. فالثورة العلمية التكنولوجية، التي اقترنت باختراق المادة الى عمق جوهري وبلورة فهم جديد للعالم الطبيعي، هي اساس النقلة الكونية (الافقية) للاقتصاد. اقرب مثال، الثورة المعلوماتية، لولا التكنولوجيا الالكترونية لما امكن بناء اقمار اصطناعية، ولولا هذه لما حدث ما نسميه بالثورة المعلوماتية. هذا يكشف ايضا عن أن مفهوم ثنائية العلم الطبيعي –العلم الإجتماعي لم يعد نافذا. هناك وحدة فعالة تصهر علاقة الانسان بالطبيعة وعلاقته بالمجتمع خلال الانتاج، وبالتالي تؤكد وحدة العلم الطبيعي والعلم الإجتماعي. ماركس اكد هذه الوحدة في كتاباته الاولى.

(ب) تشير الى "غياب أي مركز ثقل" للاقتصاد العالمي. ربما يمكن تناول هذه المسألة من زوايا النظر التالية:

1– انتهاء التفوق الاستثنائي الامريكي الذي اعقب الحرب العالمية الثانية وبروز قوى اخرى، مثلا، اليابان وأوربا كمراكز ثقل اخرى الى جانب أمريكا.

2– ان المؤسسات الاقتصادية الكونية متعددة الجنسية أخذت تدرك بأن اللامركزية اكثر فائدة لها في عملها على المستوى العالمي (من المركزية). حق اتخاذ القرار نُقل الى المناطق المختلفة التي يمارس فيها النشاط الاقتصادي –الانتاجي دون الرجوع الى المركز الرئيسي. الدور الرئيسي للمركز اصبح رسم سياسة واهداف عامة، الخ، وليس اتخاذ القرار، (وهذا تطور هام جدا).

3– غير ان هناك ايضا الفهم العلمي الجديد للعالم الطبيعي كنظام من عمليات ومجالات لا مركزية تمتد الى كامل الكون. وهو فهم اصبح يغذي وعي وسلوكية كثير من الناس الذين يملكون سلطة اتخاذ القرار (من سياسيين الى رجال اعمال تنفيذيين الى مهندسين اداريين، الخ). وهذا يجد صدى في

القرارات الاقتصادية –الانتاجية.

(ج) اشكالية القرار "كمحصلة تفاعلات اخرى".. " خارجة عن ارادات كل الاطراف المشاركة".

هناك رسالة من انجلز الى بلوخ (21 سبتمبر 1890) اعتقد انها يمكن ان تلقي ضوءاً على هذه الاشكالية. الرسالة تتناول دور الافراد في تقرير احداث التاريخ، وكذلك دور عناصر البناء الفوقي في تقرير شكل الصراعات التاريخية بالمقارنة مع العامل الاقتصادي. انجلز يرسم صورة... "للمحصلة" كنتيجة "خارجة عن ارادات الاطراف المشاركة في لعبة القوى... الخ". فهو يتكلم ايضا عن "صراعات بين ارادات فردية كثيرة..."، عن "قوى متقاطعة لا تحصى، مسلسلات لا نهاية لها من محصلات القوى التي تؤدي الى حصيلة واحدة –الحدث التاريخي"... "ما يريده كل فرد يعرقل من قبل كل فرد اخر وما يظهر هو شيء لم يرده أي فرد".

انجلز يرسم هذه الصورة في اطار التفسير الماركسي لتركيب المجتمع كنظام في مستويين: فوقي وقاعدي. هذا الاخير –الذي يسميه "مستوى الضرورة" –هو الذي يقرر "في التحليل النهائي" سير التاريخ، وبالتالي يحبط رغبات القوى المتفاعلة.

(4) حول صناعة الثقافة Culture Industry و/او صناعة المعلومات Informa-tion Industry

إن نشوء وتطور هذا القطاع الانتاجي بهذا الشكل المذهل خلال جيل واحد فقط.... يحتل ٤٠٪ من قوى العمل في الولايات المتحدة واليابان، ويشكل نسبة مقاربة من الدخل القومي، يفرض اعادة نظر فهمنا التقليدي للبدائل الممكنة امام التاريخ العالمي أو طوبوغرافية الصراعات الإجتماعية القائمة. مثلا: الاستنتاج الماركسي الخاص بالدور التاريخي القيادي للبروليتاريا في الانتقال الى الاشتراكية. أو مثلا: الاستنتاج القائل بان "عصر البرجوازية.. جعل التناحر الطبقي اكثر بساطة". أو: أن حركة البروليتاريا هي حركة "الاغلبية الساحقة"، الخ. فهذا التطور الثوري في نمط الانتاج، الذي ادى الى تنوع وتعقيد تركيب القوى العاملة (القوى التي ترتبط بالانتاج الصناعي، وصناعة الثقافة والمعلومات والخدمات، الخ، وعلاقاتها ومواقعها في عملية الانتاج) لم يعد يسمح باستنتاجات كهذه. إنها استنتاجات ايديولوجية اكثر مما هي عملية. لهذا فانها تتطلب تعديلا يأخذ نتائج التطورات الجديدة بنظر الاعتبار. ان مفهوم "التكافؤ" الذي انطلقت منه في "بيان المثقف..." والذي يقوم على وحدة "العمل الجسدي –الفكري" أو وحدة "العمل – الثقافة" هو خطوة في هذا الاتجاه.

(5) حول "المجتمع المدني" و "الدولة"

أ. هناك اهتمام متزايد بالاطر التنظيمية الإجتماعية للقرن الثامن عشر، خاصة اطار "المجتمع المدني –الدولة". الاهتمام دون شك يرتبط بالبحث عن صيغ مناسبة للعلاقات التي تربط الاشكال والمؤسسات السياسية والقانونية والايديولوجية فيما بينها، ومع مختلف جوانب الحياة المادية للافراد، في ظروف هذا الارتداد العالمي الى مفاهيم وممارسات الليبرالية الاقتصادية. واضح أن

هذا الارتداد هو نتاج لانهيار التجارب "الاشتراكية"، وتفسير هذا الانهيار كفشل الفكر الماركسي. ولكن هل أن مفاهيم وصيغ القرن الثامن عشر يمكن ان تصح لحل مشاكل تتعلق بنهاية القرن العشرين.

الاطار المفهومي الماركسي هو في جوهره تطوير وقلب للأطر المفهومية للقرن الثامن عشر. ورغم ان هناك نواقص في هذا الاطار فانه يبقى قفزة معرفية بالمقارنة مع الاطر المفهومية للقرن الثامن عشر. لهذا فان الموقف الاكثر صحة في اية محاولة لتحديد وفهم علاقات ووظائف الاشكال والمؤسسات السياسية والقانونية، الخ، هو في تطوير الاطار الماركسي ذاته، اخضاعه الى تحليل دقيق من زاوية نظر مدلولات الحاضر (ورؤية المستقبل) وليس من زاوية نظر الاطار المفهومي للقرن الثامن عشر.

المجتمع المدني، بالنسبة لماركس، هو نظام "علاقات الانتاج"، او ما يسميه بـ"التنظيم الإجتماعي". انه يتكلم عن مستويين من هذه التراكيب: الاول: يسميه "المجتمع المدني" – وهو تلك المجموعة من الاجهزة والمؤسسات، الخ، والتي تمارس ما يسميه وظيفة "الهيمنة" (hegemony) السياسية – الايديولوجية. والثاني: يسميه "المجتمع السياسي/الدولة". وهو مجموعة الاجهزة والمؤسسات الرسمية التي تمارس "السيادة المباشرة" أو الحكم والقمع. (احيانا يتكلم غرامشي عن الدولة بكونها تشمل هذين المستويين معا. فهي = "المجتمع المدني" + "المجتمع السياسي". أي انها جهاز هيمنة ايديولوجية –سياسية وجهاز قمع في ان واحد. ربما هذا يصح على اقطار العالم الثالث).

كل هذا يعني توسيعا لمفهوم "التركيب الفوقي" و"الصراع الايديولوجي"، وكذلك بصورة خاصة لدور المثقفين في الصراع المجتمعي (السياسي). غير ان هذا التوسيع (الذي يأخذ بنظر الاعتبار تطور وتنوع المؤسسات الفوقية وزيادة تعقيد دورها في حياة المجتمع) يبقى في اطار المفهوم الماركسي لتركيب المجتمع كنظام من بناء قاعدي وفوقي.

ب. ينبغي التريث في الحكم على الاتجاهات الجديدة في بلدان اوربا الشرقية والاتحاد السوفياتي سابقا. هدف التحولات –كما هو معلوم –هو بناء مجتمع يقوم على التداول الحر للبضائع والافكار، أو اقتصاد حر + مؤسسات/أجهزة "مجتمع مدني". هذا يعني فتح الباب امام تناقضات كالتي تقوض استقرار المجتمعات الغربية. غير ان البلدان الشرقية جرّبت حياة من ضمانات مادية –اقتصادية في ظل الاقتصادات المخططة السابقة (حتى وان كانت تقترن بنهج بيروقراطي مبتذل). هذا يعني وعيا بضرورة توسيع جدول عمل هذه المجتمعات ليشمل –الى جانب "المجتمع المدني" –ضمانات كهذه، وخاصة بالنسبة لميداني العمل اليدوي والفكري. وهو شيء يمكن ان يصهر وحدة تاريخية بين هذين الميدانين تقوم على التكافؤ. عندئذ فقط يمكن الحديث عن اساس واقعي لـ"هيمنة مقلوبة". فهي تعتمد على امكانية تطوير الاجهزة والمؤسسات الخاصة التي يمكن بواسطتها أو، خلالها، الهيمنة على "المجتمع المدني" (ايديولوجيا، فكريا). من هذه الناحية لا يختلف موقف هذه الأقطار الغربية، غير انها مع ذلك تبقى "أضعف الحلقات".

ثالثا: حول المنبر الثقافي

المسألة لا تتعلق بوضع تمايز بين "الثقافي" و"الفكري" بحيث ان الخيار يصبح بين "انشاء جماعة ثقافية" أو "جماعة فكرية" بالمعنى الذي تصبح فيه الاولى "نقابة مثقفين" والثانية "ستوديو للبحث والاستقصاء..."، بل اتخاذ موقف جديد تجاه الدور الإجتماعي للمثقف.

"بيان المثقف..." يتكلم عن دور اجتماعي جديد، اجتماعي –سياسي في اطار دور ثقافي فكري مستقل للمثقف. العنصر الجديد في هذا الدور هو الاستقلالية. أي ان دور المثقف ينبغي أن يرى، لا كملحق بهذه القوة الإجتماعية.. السياسية أو تلك (كما هو الامر حتى الان)، بل كقوة لها مصلحتها وموقفها الفكري (الايديولوجي) الخاص الى جانب القوى الاخرى.

كل هذا يعني كيانا يجمع بين الفكري والثقافي/المهني والسياسي معا. إننا نتكلم هنا عن دور جديد في طور التكوين مما يتطلب وحدة وتماسك هذه الجوانب كافة. الصيغ السابقة التي تفصل الفكري عن الثقافي/المهني (والسياسي) تقوم على نمط من العمل يفترض ويستند الى ارتباط المثقف عضويا بقوى خارجة عنه. بينما النمط الجديد من العمل ينطلق من استقلال دور المثقف عن هذه القوى.

الثورة العلمية –التكنولوجية (التي دفعت الانتاج نحو عالم من الصناعة المعلوماتية –الثقافية والذكاء الاصطناعي، وبالتالي وضعت الاساس لدور جديد للمثقف كقوة مستقلة في القرن العشرين) عنت شيئين بالنسبة لموضوعنا:

(1) تأكيد الرؤية الدايلكتيكية للطبيعة والمجتمع، وبالتالي مفهوم وحدة المعرفة والثقافة الواحدة.

(2)خلق وعي بالتكافؤ بين الانتاجين المادي والفكري/الثقافي. مثل هذا الوعي يدفع في اتجاه رؤية "العمل" كحليف طبيعي لـ"الثقافة" في الصراع من اجل تحقيق مجتمع انساني من العدل والحرية. فهاتان القوتان (بسبب علاقتهما القانونية المتماثلة مع وسائل الانتاج) لا تفقدان (اذا وسعنا مقولة ماركس قليلا) سوى قيودهما وتربحان عالما جديدا بكامله.

مفهوم التكافؤ بهذه الصيغة الجديدة يعني ان وحدة "الثقافة –العمل" هي الوحدة التاريخية التي يكون لها الدور الحاسم في عملية التغيير الإجتماعي. وهذا يعطي لشعار "وحدة شغيلة الفكر واليد" مضمونه الحقيقي.

بكلمة اخرى: المسألة ليست تكوين جماعة ثقافية/مهنية أو جماعة فكرية ("ستوديو فكري") "للبحث والاستقصاء.. الخ"، بل تكوين تجمع واسع للمثقفين، كمنبر ثقافي، يمارس الـ"ستوديو الفكري" عمله في اطاره. ومهمة الـ"ستوديو الفكري" عندئذ تكون المساهمة (خلال "البحث والاستقصاء... الخ ") في صياغة الموقف الجديد للمثقف كقوة اجتماعية ذات دور جديد مستقل في الصراع الإجتماعي –الثقافي –السياسي، يتطابق مع ويعكس دوره المتطور في الانتاج الإجتماعي كمنتج افكار (اشكال وعي)، اضافة الى بلورة اهداف المنبر الاخرى الثقافية والسياسية (الايديولوجية).

رابعا: ملاحظات متفرقة

أ. حول "اشكالية المعرفة" والمجال

تمسكي بمفهوم المجال يتعلق طبعا باشكالية المعرفة. فهو يعني رؤية وفهم العالم (الطبيعي والإجتماعي) على نحو آخر جديد –أعني كنظام من مجالات اساسية تقترن بتكوينات مظهرية فوقية –لرسم صورة اصدق وأكثر صحة للعالم.

ان اشكالية المعرفة تكمن بدرجة رئيسة في انها لقرون طويلة (خاصة منذ ظهور العالم الكلاسيكي) تعاني من التجزئة: تجزئة في النظرة الى العالم (الطبيعي والإجتماعي) كأشياء/ ظواهر/ وحدات منفصلة. وتجزئة في ميدان المعرفة ذاته الى ميادين جزئية، فرعية ودون فرعية (اجتماعية، طبيعية، فنية، الخ).

مفهوم المجال هو الطريق الى حل هذه "الاشكالية" وتحقيق وحدة في النظرة/الرؤية وفي ميدان المعرفة، ليس فقط ضمن العلوم الطبيعية والإجتماعية ذاتها، بل وفيما بينها ايضا. فهو يعني فهم العالم على نحو كلي على مستوى عملياته وعلاقاته الجوهرية، لا تكويناته الظاهرية.

انجلز تكلم عن اهمية وضرورة ازالة هذه التجزئة خلال فهم العالم كنظام من عمليات وتطبيق هذا الفهم في ميادين النشاط المعرفي المختلفة. لأنها، أي التجزئة، كما قال، مناقضة للفهم الدايلكتي. ماركس تكلم عن "علم واحد" مستقبلي، يجمع "العلم الطبيعي" و"علم الانسان" معا. القرن العشرين شهد تقاليد معرفية كلية (holistic) انطلاقا من انجازات الثورة العلمية –التكنولوجية.

ب. المعرفة هي من زاوية نظر الانسان، غير ان هذا يفترض التعامل مع المعرفة على نحو كلي –أعني لهذه المستويات كافة وعلاقاتها المتبادلة، وخاصة الطبيعية. هذه الاخيرة تكتسب أهمية استثنائية في عصرنا.

فالتعامل بين الانسان والعالم (على مستوياته المختلفة من الفيزيائي الى الإجتماعي – التاريخي) كان دوما على مستوى المظاهر. وقد أعطانا في ذروته ما يسمى عادة بالمعرفة الكلاسيكية.

ما حدث في القرن العشرين هو أن الانسان اخترق حاجز المظاهر. وأخذ خلال أجهزته وادواته المعقدة يتعامل ويتحرى العالم على مستوى جوهري عميق. المعرفة تمدّ الان جذورها الى مستوى من الوجود، كان حتى وقت قريب خارج نطاق التحري، ولم يكن يعرف عنه الانسان شيئا. وهذا هو أساس الثورة العلمية –التكنولوجية.

مشكلة المعرفة المعاصرة، ببساطة، هي في قدرتها على استيعاب وتقييم هذا الامتداد العميق الى جوهر الطبيعة على نحو صحيح.

باختصار، ما تم اكتشافه في ميدان العلم الطبيعي هو جزء من المعرفة على المستوى الإجتماعي –التاريخي. بل إنه يصبح الان مقياسا وأساسا لهذه المعرفة. نلمس هذا بوضوح في تأثير مفاهيم نظريتي النسبية وميكانيكا الكم على العلوم الاخرى (بما فيها الإجتماعية –التاريخية). مثلا، مفهوم نسبية قياسات الطول والزمن، الخ، (بالنسبة لحركة الاجسام)، أو مفهوم ثنائية الخصائص الجسمية –الموجبة للمادة الذرية، أو مبدأ الريبة (Unertainty Principle) لهايزبرغ، أو مبدأ بوهر في الـ (Complementairity) أما مسألة نشاط الذات في عملية التعرف أو وحدة الذات – الموضوع فقد تكلم عنها ماركس وقبله كانط

مثلا. غير انها لم تصبح جزءاً من وعينا الا بعد تجارب النسبية وميكانيكا الكم التي اثبتت على نحو قاطع العلاقة المتبادلة التأثير بين الذات والموضوع (الشاهد والمشاهَد). كل هذه المفاهيم وغيرها اصبحت جزءاً من ترسانة العاملين في فروع المعرفة الإجتماعية –التاريخية (الفلسفية، التاريخ، السايكولوجي، علم اللغة، الانثروبولوجي، الخ) كعنصر اساسي في نهجهم في البحث.

اما مفهوم المجال فان الكلام حوله كان بوجه عام أقل شيوعا (من مفاهيم ميكانيكا الكم) في الأطر التي رسمها الانسان لمعرفته في المستوى الإجتماعي –التاريخي لأسباب تتعلق باتجاه تطور المفاهيم الفيزياوية في القرن العشرين. مثلا إن بعض استنتاجات النظرية النسبية العامة بقيت مثار نقاش لفترة طويلة (من اواخر الكتب التي ظهرت حول الموضوع هو Was Einstein Right? - نشر Oxford University Press 1988). أو مثلا، إن مشكلة توحيد المجالات كافة في مجال موحد (وهي المشكلة التي كرس لها اينشتاين اخر ربع قرن من حياته) ما تزال حتى الان طموحا (مستقبليا) كبيرا بالنسبة للعلم الطبيعي.

جوهر الماركسية كانجاز معرفي هو بالضبط في كونها نظرية مجال. الموضوعة الرابعة تتكلم عن الانسان "كمجموعة علاقات اجتماعية". انجلز يتكلم عن ضرورة فهم العالم، لا كما يبدو في اشكاله المظهرية المنفصلة، بل في عملياته وعلاقاته الجوهرية. ماركس يعبر عن ذلك في الصورة التي يرسمها للمجتمع كتركيب من مجال قاعدي وآخر فوقي (الاساس المادي الاقتصادي، واشكال الوعي والمؤسسات الفوقية التي تعبر عنه). ماركس ثوّر معرفتنا للمجتمع وتطور التاريخ بهذه الصيغة. المشكلة الان هي تطوير هذه الصيغة في ضوء المعرفة الجديدة في ميدان العلم الطبيعي. فكما يقول ماركس: "فقط عندما يبدأ العلم من الطبيعة فهو علم حقيقي".

ج. في عملي الفني (التطبيقي والنظري) خلال الربع الاخير حاولت.. في (واقعية الكم) تطبيق معرفة فيزياوية مجردة (مفاهيم في فيزياء الكم والنسبية + مدلولات نظرية) في ميدان الفن. افترض اننا لا نختلف في ان المعرفة الفنية هي جزء من المعرفة البشرية، وان أشكال الوعي الفنية (كجزء من البناء الفوقي الايديولوجي الذي يؤثر على ويتأثر بالبناء القاعدي) تدخل ضمن "حقل الفيزياء الإجتماعية وتفاعلاتها". فأين المشكلة إذن؟ هل هي في الشكل؟

في (واقعية الكم) الشكل لا يتطابق مع الشكل الطبيعي المألوف. ويبدو للمشاهد الاعتيادي "تجريداً". غير ان هذا "التجريد" هو بالضبط صورة جوهر عالمنا الطبيعي، وهو ما يميزه عن عالم المظاهر.

(هناك اشارة لماركس بصدد العلم حول "اللا –تماثل" بين المظهر والجوهر. اشعر انها تصح هنا ايضا. يقول، لو كان جوهر الاشياء يطابق مظهرها لما كانت هناك ضرورة للعلم).

د. حول تقسيم العمل

فيما يتعلق بتقسم العمل أتفق أن هذه العملية في تشعب مستمر. غير أن هناك في الوقت نفسه اتجاها آخر معاكسا نحو ما يسمى بالموقف الكلي (Holistic) أو تعدد الاختصاص المعرفي (Multi- Disipli-nary) في الثقافة. هناك مثلا جامعات

انكليزية وامريكية تتبع هذا المنهج، ومعاهد تنظم كورسات دراسية مختلطة ، مثلا حول (Art- Physics)، ومراكز ابحاث علمية تمنح تسهيلات خاصة لفنانين يقومون باعمال فنية ذات علاقة بالعلم الطبيعي والتكنولوجيا. من ناحية اخرى هناك اعداد متزايدة من الندوات والحلقات والمجلات والكتب، الخ حول علاقة العلم والفن والتكنولوجيا...

لهذا تأكيدي في "بيان المثقف..." على مفهوم وحدة الثقافة. هذا التأكيد هو ليس اجراءً تكتيكيا، بل انه يقترن بالوعي المتزايد الان بحقيقة ترابط وحدة فروع المعرفة المختلفة (وهي صيغة اخرى للتعبير عن الفكر الماركسي) هذا لا علاقة له بمسألة صعوبة خلق "المفكر الشمولي" بل بخلق الموقف الشمولي/ الكلي تجاه الثقافة.

اما مشكلة خلق "المفكر الشمولي" فانا اعتقد ان السنوات القادمة (أو العقود القادمة) ستضع الحل المناسب لها من خلال الاستعانة المكثفة بالذكاء الاصطناعي. عندئذ سيمكن للذكاء الانساني (حتى الاعتيادي) ان يستعيد مجددا تلك العلاقة التي كنا نجدها قبلا بين الفكر والمعرفة، والتي كانت تجعل في الامكان خلق مفكرين انسكلوبيدين. فالتكنولوجيا، كما قال ماركس، تطيل قامة الانسان. وهي مقولة تصح على التكنولوجيا الذكية الجديدة بقدر ما تصح على التكنولوجيا اليدوية التقليدية (إن لم يكن أكثر). لهذا لا أعتقد أن "المفكر الشمولي" يمكن أن يصبح "حلما" من أحلام الماضي. انه نموذج انسان المجتمع اللاطبقي –متعدد الاختصاصات والهوايات.

أما مسألة خلق الموقف الشمولي/الكل تجاه الثقافة، كموقف نقيض لتشعب تقسيم العمل، فانه يرتبط بنوع المستقبل الذي يطمح اليه البشر ونشاطهم من اجل تحقيقه.

أعني، إذا كنا نعتقد مع ماركس في رؤيته لمجتمع لا طبقي مستقبلي، فان هذا الاعتقاد ينبغي ان يشمل ايضا اعتقادا بزوال تقسيم العمل. فلا يمكن الكلام عن (أو تصور) مجتمع لا طبقي يقوم على تقسيم العمل. انه تناقض في الصيغة.

مفهوم "زوال تقسيم العمل" هو (كمفهوم "تلاشي الدولة") ليس هدفا محدد الملامح قائما هناك ينتظرنا كي نصله في زمن مستقبلي معين. إنه الطريق أيضا.

بكلمة اخرى، إن تحديد الهدف يتطلب قبل كل شيء تحديد الطريق والسير فيه. حقا ان التفكير بهدف ما يعني (كما يقول ماركس بصيغة اخرى) ان الطريق موجود سلفا بشكل ما، أو انه على الأقل في طور التكوين. هذا يعني ان عملية "زوال تقسيم العمل" (كجزء من عملية تحقيق مجتمع لا طبقي) ينبغي ان تبدأ معنا من الان. أعني، حتى في هذه المرحلة من الرأسمالية التي تقوم على شكل متشعب معقد من تقسيم العمل.

هذا يتم بالانطلاق من المفهوم النقيض، الذي نشهد ميلاده وطفولته الان، اعني مفهوم الثقافة الكلية (أو وحدة الثقافة). ولا يهم ان كان هذا المفهوم يبدو غريبا أو مناقضا للاتجاه السائد. فهو البداية البسيطة، الصورة الاولية لنمط العمل اللاطبقي المستقبلي الذي سيقوم على زوال الاختصاص. إن ملامحه تتكامل وتتخذ شكلها المنطقي تدريجيا خلال الصراع الفكري والعملي ضد مفهوم وواقع تقسيم العمل في المجتمع القائم.

*(الثقافة الجديدة)، العدد 258/ت الثاني/ – 1993 اذار/1994، ص115 – 127.

** عندما نشرت مجلة "الثقافة الجديدة" في العدد 1993/256 مادة للفنان محمود صبري تحت عنوان "المثقف والسياسة والاستبداد" خلافا لعنوانها الاصلي "بيان المثقف الجديد" الذي ينسجم، في الواقع، مع المادة من ناحية الشكل والاسلوب والمضمون، أثار "البيان" بما تضمنه من اطروحات نقاشا في اوساط المثقفين حيث وردت ملاحظات من كتاب وباحثين عديدين، الامر الذي دفع الفنان محمود صبري الى الاقدام على محاولة ثانية تمثلت بالرد على ما ورد من ملاحظات حول "البيان" مانحا تلك الملاحظات عنوانا دالا هو: ملاحظات على ملاحظات.

عندما تصب العلوم المعاصرة في بؤرة فنية واحدة

صادق الصائغ

في تاريخ التشكيل العراقي المعاصر، يشكل كل من جواد سليم وشاكر حسن آل سعيد ومحمود صبري ضلعاً من ضلوع مثلث ذهبي، تجسدت في اطاره اولى محاولات الإتصال بحداثة بدأها الإنطباعيون، وكانت ثيمتها تتركز على جدليات الشكل في تجلياته الأخرى، تجليات الماوراء واللامرئي الباحث بالسايكولوجيا والميتافيزيك عن أسرار الباطن. وسجلت محاولات الثلاثة، على مستوى بيئي محلي، رسماً أولياً لخارطة جديدة في مفاهيم تشكيلية جديدة لا تعتمد الحدس والإنطباع والتخمين الذاتي، ولا تنطلق من سكونية الشكل المتطابق مع نفسه ومع هيئته الخارجية.

وسرعان ما اصبحت هذه المحاولات مركزاً ثابتاً تجمعت حوله حلقات فنية، عمدتهم كآباء شرعيين. لكن هذه الحلقات، في اجيالها القادمة ستستولد، فيما بعد، أنماطاً تجريبية جديدة، متأثرة بالعصف التشكيلي الذي اطلقته المدرسة الإنطباعية والمدارس الأخرى التي تلتها، كالسريالية والتكعيبية وكل المدارس الفنية اللاحقة التي ظهرت في اوربا، وغيرت جذرياً مفاهيم الرسم بطرائق تحريك الثبات والتخلي عن فكرة المنظورالمتحكم، وتحرير الزمكان من تموضعاته الساكنة. وسيتطور هذا المفهوم، على ايدي جيل ثالث ورابع، الى تكثيفات توصل بالتدرج الى تجريد مطلق. المثلث العراقي هذا ظل في بدايته متمسكاً الى حد ما بالمنظور الواقعي، لكنه عمق البحث عما تحت سطحه، وسنجد ان درجة أو درجات أولية من تجريبيته عراقية ذات خصوصية بدأت تشق طريقها الى الخارج. وسيبدأ كل واحد من هؤلاء بحثاً في العمق، عن حل خاص لواقعية شكله، فجواد سليم، مثلاً، عالجه بغنائية تعبيرية تنسجم مع تكوينه النفسي، مضفياً على شخوصه إنسجاماً ورضى يتناسبان مع مزاجه الشخصي ومع تطلعات الطبقة المتوسطة الآخذة في الصعود.

وبهذا المزاج البهيج التقط جواد جمال التماهي البادي على وجوه الشخوص البسيطة الماثلة امام كامرته، مجسداً، كما فعل غوغان، جمال السذاجة والبراءة في الحياة البدائية.

وضمن السياق انشغل شاكر حسن آل سعيد في بداياته، بالهم الواقعي نفسه،

متجنبا، هو الآخر، اعتماد المعنى الأحادي للشكل، متهجساً ملامح جديدة يخفيها المجهول، وكان هيغل عبر عن ذلك بقوله: كل ما هو معروف ليس معروفا بما يكفي.

في مرحلته الأخيرة، اتخذ شاكر، انطلاقاً من روحانياته، الحدوس الصوفية والمغيبات والعقل الباطن، طريقاً لتفكيك المنظور الواقعي واعادة تركيبه من جديد. ونظراً لإهتماماته الفلسفية الموازية لإهتمامات صبري، فقد ثبت رؤيته الفلسفية هذه في بيانين تشكيليين، البيان التأملي الأول والبيان التأملي الثاني. وفي كلا البيانين كانت الحقيقة الجوهرية التي بحث عنها شاكر، وكذلك تلك التي بحث عنها جواد ومحمود، حقيقة ايديولوجية، اي انها صورة للواقع الخارجي مع ايقاعات جمالية تركزعلى بنية التكوين، باعتباره الموضوع المركزي لجماليات التشكيل.

غير ان نظرية اكتشاف المخفي القائم ما وراء الواقع، إتخذت وجهةً أخرى لدى محمود صبري، فقد لوحظ، منذ البداية، انه كان الأكثر إهتماماً بشواغل الفلسفة والهم الإجتماعي، كما انه كان الأكثر ميلاً الى ان يأخذ هذان الهمان مكان الصدارة في لوحاته. وهنا يسجل محمود انعطافة مميزة في تاريخ الفن العراقي، انعطافة تدخل التوتر والتناقض داخل اللوحة وتستخدم الفن في اطار اجتماعي. أي انه يجد للفن وظيفة أخرى، هي وظيفة الصراع الآيديولوجي، وسنرى ان هذه الإنعطافة ستتعمق عند محمود بالتدريج في واقعية الكم.

يعتقد البعض، وربما كان هذا صحيحاً الى حد ما، ان محمود منذ ان توصل الى واقعية الكم، لم يعد ماضيه الفني يعنيه كثيراً. وبالطبع صعب على متتبعي اعماله الأولى ان يستجيبوا لرغبته، ويلقوا عليها ستار النسيان. واعتقد ان الكثير منهم، وربما كان محمود بينهم، ما زالوا يضمرون حنيناً لذلك الحضور الغائب، رغم مرور الزمن، لذا ظل البعض يفضلً تلك الأعمال على "المتاهات" التي تضعهم فيها واقعية الكم..

إذا لم اخطئ فإن شخوص ووجوه محمود في مسلسل الإستشهاد الستيني كانت آخر ما اختتم بها رؤاه في مرحلته الأولى، التي شكلت ملحمة الجزائر صعدة عليا بين اعماله، وكانت كل هذه الأعمال التعبيرية التي سبقتها او لحقتها، خاصة مسلسل الإستشهاد الذي رسمه بقلم الفحم بعد الإنقلاب البعثي عام 1963، تشير الى حجم الهم الإجتماعي والسياسي الذي كان يشغل ذاكرته، فإنسان محمود متأزم لأنه موجود دائما داخل محنه، داخل صراع إجتماعي أو سياسي شديد الفاعلية. ومن السهل ملاحظة أن شخوصه، على عكس شخوص جواد التي تقف مستأنسة ومستسلمة بوداعة لعدسة الرسام، هي وجوه تراجيدية، شاحبة وناحلة وحزينة، ألوانها كحياتها زهيدة، فهي مرسومة بالأبيض والأسود، لكنها، من منطلق ايديولوجي، تعبرعن حضور انساني في معركة الإرادة، وبهذا يكون محمود قد أدخل الى اللوحة عنصراً جديداً، هو العنصر الدرامي العراقي، الذي ابرزته مدرسة المانرزم بعد عصر النهضة، وفيها يكون المشهد متسماً بصبغة درامية مطلقة. كما وتوجد في وجوه محمود روحانية/ مادية تعكسها النظرات التقية والرقة وروح البشارة التي تبدو على وجوه المكبلين بالسلاسل، ومع أنها كانت الأضعف في معادلة القوة التي تمثل أمامها، إلا أنها كانت، لدى محمود، العنصر الإقوى في معركة الأخلاق والإرادة.

وهذه النظرات الشفافة التي تعكسها في اللوحات روحانية الضوء والظل، موجودة، في الواقع، داخل محمود نفسه، وتذكر برسامي مدرسة المانرزم، الذين رسموا المسيح بطريقة درامية، ومنهم تونتورينو في لوحته "العشاء الرباني الأخير". وجيريكو في لوحة "دفن الكونت اورجاز" (اللوحتان منشورتان في كتاب ارنولد هاوزر المعنون "تاريخ الفن والمجتمع عبر العصور").

لقد تأثر رسامون كثر باتجاه محمود الواقعي التعبيري، وأعتقد ان رهطاً من الرسامين الشباب ما زالوا يتذكرون طيوف شخصياته عندما يرسمون، ولعل فيصل لعيبي واخته عفيفة لعيبي هما أقرب من استلهم محمود. وأوضح علامة تشير الى ان جيلاً جديداً، ما يزال يرى في واقعية الخمسينيات ما يستحق التطوير والمتابعة.

ومن المؤسف ان القواعد والأصول التي اعتمدها محمود في بناء لوحته، والتي ميزته عن آخرين سلكوا الدرب نفسه بغية الوصول الى حرية جديدة، لا يوجد اليوم منها إلا القليل، لقد كانت كارثة نهب المتاحف، بعد الإحتلال إحدى اكبر الخسائر التشكيلية التي لحقت بمسار الإبداع العراقي. وتلك كانت آخر ما لوّح لنا به محمود، قبل ان يتجه الى تأسيس نظريته التي أطلق عليها اسم "واقعية الكم".

ما هي واقعية الكم؟ هل هي نظرية، ام لغة تشكيلية جديدة قادرة فعلا على تغيير العالم؟ هل ستستطيع واقعية الكم مثلاً، تحويل الكم التشكيلي الى نوع تشكيلي، ويكون العلم شرطاً اساسياً للفن ولامتلاك اداة تكشف اسرار الماوراء؟ وهل بإمكانه ان يكون شرطاً أساسياً للجمال والتذوق؟

لقد تغيرت الحسابات القديمة، منذ ان توجه محمود نحو الطاقة كمقياس ينقل مستوى التعامل مع الكتلة الى مستوى التعامل مع الطاقة.

إن هذه الجملة البسيطة، لكن المتفجرة، ستقسم تاريخ الفن الى شطرين، وبينهما يتموضع محمود وواقعية الكم.

وما من شك في أني لو أردت ان اقدم تفاصيل وشروحات لهذه الجملة الاطروحة لكان عليّ نقل كتاب واقعية الكم بأكمله، بلغة رياضية بحتة، واي اعادة صياغة او تغيير فيها يضعها خارج مقاصدها، وقد توقع صاحبها في زلات علمية كثيرة، لذا سأترك شبكة العلاقات العلمية المتداخلة والمتزاوجة والمنصهرة داخل بعضها للمختصصين والمهتمين، علمياً، بعلاقات الكتلة بالطاقة التي اكتشفها انشتاين، او بالوحدات التي يمكن بواسطتها بناء صورة بلاستيكية للعالم او بالكمّات التي تتكون منها اطوال الاطياف المكثفة. كما سأتجنب البحث في مسلسلات وجداول ليمان وبالمر وباشين وغيرها مما اورده محمود، فهذه عوالم لا اعرف عنها الا القليل، وما اورده محمود في نظريته ليس الا جزءاً بسيطا من علوم عدة تصب في نقطة فنية واحدة، وتتداخل فيها الفيزياء والرياضيات والكيمياء والانثروبولوجيا، وبدون هذه العلوم لا تستطيع واقعية الكم ان تنجز وظيفتها العلمية/ الجمالية، لذا سأتمسك بافتراضات متشككة تدور حول مدى قدرة واقعية الكم على ايجاد تطبيقات بلاستيكية في حقل الفن، معتمداً على مأثورة تقول ان للمجتهد، اذا اخطأ، جزءاً من الثواب. وسأعتمد على التأسيسات التشكيلية الجديدة التي جاء بها محمود، والقائلة بأن الطاقة هي الجوهر الحقيقي لكل واقعية حقيقية، وهي التي ستغير مفاهيم التشكيل،

بقدر ما تتغير بواسطتها الطبيعة والانسان والعالم.

ستبدو انعطافة محمود في واقعية الكم، وكأنها قطع، ليس مع تاريخه الشخصي فحسب، بل ومع تاريخ الفن العالمي ككل، منذ فن الكهوف وحتى آخر مدرسة فنية معاصرة توصل اليها القرن العشرون. وجهة نظره تقول ان العلم وحده هو الماوراء، وليس شيئاً آخر، هو العمليات المخفية التي توصلت اليها العلوم الجديدة بعد تفجير الذرة، وبعبارة أخرى ان الماوراء هو العالم المادي، المختلف عن ذلك العالم الحسي الموهوم الذي اسست له الفلسفات المثالية، منذ افلاطون وحتى اليوم. لكن، ألا يشكل هذا قطعاً مع التاريخ؟ وهل لم تكن هناك في السابق محاولات لعلمنة الفن؟

محمود يوضح هذه الناحية لمنتقديه بقوله:

ليست المسألة قطعاً كلياً، إنها "تحول"، أو صهر لأكثر العناصر تنوعاً في الشكل والتعبير في كل واحد، صهر لآلاف السنين من التطور البشري داخل اشكال جديدة، واعادة صياغة لكنوز الثقافة البشرية وتطورها الطبيعي ضمن رؤية جديدة، غير ان مثل هذا التطور الطبيعي- يستدرك محمود- يجب ان يقودنا الى "قفزة"، الى "انقطاع في المواصلة"، الى "تحول" يصبح فيه الكم نوعاً، وبالتالي وسيلة تعبير جديدة تختلف مكوناتها عن مكونات الأصل، فهي لأول مرة، لا تقلد تراثاً، بل تخلق تراثاً نوعياً جديداً.

وماذا بشأن الحسية التي كانت منذ آدم عنصراً جوهرياً في الفن؟ اتراها ستختفي هي الأخرى؟

والجواب هو ان الحسية لا تختفي، إنها العنصر الجوهري الذي يربط الماضي بالحاضر، والذي يمنح الفن حيويةً وزهواً أبديين.

غير ان هذه الحسية ليست كماً ثابتاً، ولا يجب ان نستدعيها من حضارات قديمة، وقد تتحول عملية إحياء الموتى الى كابوس يجثم على صدور الأحياء، فاذا أُريد استعادة حيوية تلك الحسية الى وقتنا الحاضر، لابد إذن من صهرها داخل وعي علمي جديد مستند الى العلم والتكنولوجيا وتناقضات الحياة المادية وصراع القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج. كما سيتوجب هنا تفريغ الرسم من حسيته البدائية المعتمدة على الامكانات البصرية، ليستعاض عنها بحسية ارقى يحققها تداخل العلم والفن، ويتأسس عليها، تبعاً لذلك، "ابداع" جديد لا يعتمد على معالجة الشكل بمستوى "عملية/ تركيب/ طاقة"، اي مستوى الطيف الذري كواقع. وهذا التغير المثير، في حالة ايجاد تطبيقات بلاستيكية له، يحول، لأول مرة في التاريخ، الفن الى علم والعلم الى فن. وقد برهنت الاحداث على ان هذا ممكن، وكلما تقدم العلم خطوة أخرى تفكك الغيب وتم حل فكرة الماوراء المتعالية، بطريقة صحيحة.

يختصر محمود تفاصيل واقعية الكم بأنها لغة تطبيق الطريقة العلمية في حقل الفن. وهي شكل جديد من الفن يصور الواقع الموضوعي مستبدلاً الفكر الغيبي بالعلمي، منتقلاً – من مستوى المنظورالقديم القائم الى مستوى المنظور العلمي الجديد، ومتوصلا الى ان اختراق التركيب الداخلي هو الاساس الموضعي للجانب الجمالي من الوظيفة الفنية (علم- فني/ فن- علمي)، اي انه يعلمن الفن في التشكيل، كما علمنه بريشت في المسرح. ويقول محمود، بهذا الصدد، إن أفكار بريشت في المسرح لعبت دورا كبيرا في

توجيه عمله كرسام.

وكلاهما اقتبس من ماركس فكرة ان العالم، وبضمنه الإنسان، هو نظام عمليات متداخلة وليس نظاماً لـ(اشياء/مواضيع) وحسب. وعليه، فلا بد من دراسة هذه الفكرة بعمق، اذا ما اردت ان تبدع فنا راقيا، ولا بد من ربط هذه الرغبة بأكثر من علم واحد، وستكون دراسة الماركسية، معززة بآخر الإكتشافات التي حققها العلم المعاصر، مساهمة في تقديم حلول جذرية لهذه الإشكالات. كما سيتمكن الفن الجديد، باستخدامه ادوات العلم كوسيط بين الذات والموضوع، ان يصبح اول شكل من الابداع الفني الجديد.

قد تبدو هذه الاستنتاجات محض ايديولوجيا فكرية يسهل قبولها عن طريق تتبع اصولها عند ماركس وانجلز وآخرين، لكن كيف يمكن للرسام تصوير العالم الذي توصل اليه ماركس في الحقل الإجتماعي كعمليات في حقل الرسم؟ كيف يمكن ايجاد معادل موضوعي لهذا الإشكال؟ وكيف يمكن تجسيد تركيب محسوس من الالوان ضمن تأليف بلاستيكي تخيلي يخلقه الانسان وتكون الطبيعة تابعة لإرادته؟

هكذا تساءل محمود، وكان عليه ان يجد بنفسه اجوبة على اسئلته المتناسلة.

لقد تبنت الكلاسيكيات الفلسفية القديمة، منذ عصر الكهوف وحتى القرن التاسع عشر، الحواس والمكرسكوب اساسا لإنجازاتها التاريخية في حقل التشكيل. ومن اسس هذه الفلسفات ان اشكال الجسوم المرئية ثابتة ومستقرة داخل شكل مرئي. ومعروف ان العلم أزاح هذه الفرضية، بعد ان تم اختراق الذرة وجرى التعرف بدقة على تركيبها الفيزياوي. هذا الإكتشاف شكل صدمة مدوية لكثير من الطليعيين، ومنهم كاندنسكي الذي حقق بين مجاليه انجازاً مهماً في مجال التجريد، وقد عبر، نيابة عن مجاليه، عن حجم صدمته بالقول: "لقد تحطم العالم القديم وتحطمت معه تصوراتي القديمة" ومن ثم فقد جعله هذا الإكتشاف يقطع مع العالم المرئي ويستنبط تجريدا خاصا به.

إن واقعية الفن تعيد خلق الفن التجريدي، لكن من الطبيعة وبمستواه الذري، وهذا ما فعله محمود صبري أيضا، لكن بطريقة واقعية، فكاندنسكي خلق تجريدا يقوم على توصيفات ذهنية، وشخصية ولامرئية، في اطار تجريدات مشابهة لتلك التي انجزها آخرون، مثل براك وبيكاسو وسيزان ومونديريان وآخرون، وهذا ما ابقاه في الدائرة نفسها التي حاولت ان تجد حلا لهذه الازمة.

لقد عالجت النظريات السابقة مشكلة الشكل والمضمون من منظور احادي يربط المظهر بالجوهر، الفكر بالمادة، الروح بالجسد. وحسب محمود، فإن كشوفاته في واقعية الكم افرغت هذه الأزمة من تصوراتها الذاتية والحسية التي كانت قائمة سابقا، ووحدتها في مفهوم مادي ديالكتيكي يرى ان الشكل والمضمون ليسا شيئاً ثابتاً، بل هما كتلة داخل مجال كهرومغناطيسي، لها نظام عمليات تجري في الداخل، ومستوياتها التركيبية تختلف عن غيرها من حيث التعقيد والوظيفة.

لقد اعتمد الانسان قبلا على حسيته المباشرة بالكتلة والالوان الخارجية لمعرفة الطبيعة، وبعد تعرفه لأول مرة على الطاقة المكثفة، التي هي لون غير مرئي داخل مجال مغناطيسي، تم تسجيل انتقال حاسم من

مرحلة الواقع المكرسكوبي الى الواقع الذري، وهذا يعني انه خلق لعصره حسية فكرية جديدة، تتمثل في حواس فكرية وعملية، كحس الخير والحب والإرادة. وحسب ماركس الذي اهتدى محمود بديالكتيكيته، تكون مهمة الفن هنا هي خلق حواس إنسانية ذات طاقة تخيل تطابق غنى الإنسان وغنى الطبيعةً.

لا بد لي استعير لغة محمود اذا اردت ان اعطي قارئي فكرة عن الواقع، الذي يقول محمود ان واقعية الكم انجزته:

1- في المجال التطبيقي وضعت حلا لمفهوم الجسيمة التي تمتد الى كامل الكون.

2- في المجال النظري، استبدلت الثنائيات الفلسفية (المادة- الفكر- الجسيمة- الفضاء- الجوهر...الخ) بمفهوم فلسفي احادي يتجسد في المجال المغناطيسي.

3- في الميدان الإجتماعي، استبدلت مفهوم العالم كنظام من ذرات بمفهوم انشتاين القائل ان العالم (نظام من مجالات)، ومن هذه المحاورتنعقد علاقة جديدة بين الفردانية التي نادى بها عصر النهضة وبين المجتمع الواعي بحقوقه (حقوق الانسان) وبما يسميه محمود بالديمقراطية العلمية.

لا يخفى ان واقعية الكم لاقت، منذ ظهورها وحتى الآن، معوقات اتخذت اشكالاً مختلفة على كل المستويات، واولها كما اعتقد، قفزات ثقافية تتخذ شكل الصدمة، وقد حمل الإنسان مغبة الخطأ منذ ان صاح آدم: اكتشفتها...اكتشفتها! وبما ان نظرية محمود اتخذت صفة الوعد، ولم تتوفر لها شروط القراءة الصحيحة ولا الآليات التي يتطلبها اي بحث علمي، يضاف الى ذلك عجز النقد العراقي عن الايفاء بمسؤوليات النقاش والمتابعة، فإن الصمت هو على الاغلب ما قوبلت به واقعية الكم، وليس الصمت، سوى عقاب يطال الابداع والمبدع والمجتمع معاً. ويبدو ان نظرية واقعية الكم احدثت، في مناخاتنا العراقية، التي ما تزال تتمثل ثقافة فترة القرن التاسع عشر، صدمة تفوق تلك التي اعلن عنها موندريان بشأن اكتشاف الذرة، وما احدثه العلم من انقلابات، ليس في بلد مثل العراق، بل في اغلب بلدان العالم، فمثل هذه القفزة النوعية تحتاج الى وسط ينقلها الى مستوى النقاش العلمي الجاد والصعب، والى وجود محاور أو متلق نوعي مزود بمنهج علمي وتكنولوجيا معاصرة تؤهلانه لخوض مثل هذا النقاش.

وقد يكون وجود محمود في الاتحاد السوفياتي يومذاك او تشيكوسلوفاكيا او بقية البلدان التي تبنت رسميا الواقعية الاشتراكية، سبباً آخر للحصار السياسي الذي واجهته واقعية الكم. أما القول بأن محمود كان أحد اسباب هذه الاعاقة وأن عزلته عن العالم واحتفاظه بلوحاته داخل بيته كان سبباً في التعتيم على انجازاته، فكلام لا يسنده واقع، وسيكون من المضحك ان نفترض ان نظاماً امياً وأصم كنظام صدام سيحتضن فناً تخطى عصره. ومن ناحية اخرى سيكون صعبا في بلد سحقته الحروب عجزاً في معارفه وعدده النقدية ان.

ولعل اقل الانصاف، ونحن في زمن ينعطف باتجاه الديمقراطية، ان نصغي بصبر يوازي صبر محمود، الذي قضى اكثر من نصف قرن من عمره في بناء نظريته هذه، وأن ندفع بمحاورين نوعيين من درجته نفسها، لأن يساهموا هم ايضا بتقديم بحوث صبورة تفتح العين والبصر والبصيرة، وتلبي دعوة ناقد تشيكي هو خادربا، الذي وصف نظرية محمود بأنها نهضة، وعلينا دراستها دراسة

مستفيضة.

هنا سأطرح بعض اسئلة، كنت قد طرحتها على محمود يوم التقيته في لندن، لكن الوقت لم يسمح له بتغطيتها تفصيلياً، إذ سافر كل منا الى وجهته، هو الى براغ وانا الى بغداد، وكان الغرض من هذه الاسئلة هو توفير منافذ لفهم افضل لواقعية الكم. ومع اني اعرف ان هذه الاسئلة مترابطة مع بعضها، وقد تشكل بمجموعها سؤالاً واحداً أجاب عليه محمود في مناطق مختلفة من متن كتابه وقدم له شروحات واسعة، إلا اني اطمح بإثارتها مجدداً، مؤمناً بضرورة التكرار، واملاً في ان يمعن المختصون في قراءتها قراءة نوعية، وان يتعرفوا على ما شحذته فلسفة محمود وصنوف العلوم الاخرى التي استعان بها في مجال تطوير نظريته.

الاسئلة هي:

1- هل ستحفظ واقعية الكم للرسام ملكيته الذاتية؟ أم أن فضاءها، شأنه شأن العلوم الاخرى، سيصبح عاماً واستهلاكيا وخاضعا لمبدأ التصنيع الرأسمالي الشمولي؟

2 - هل سيبني العلم حضوره في نظرية واقعية الكم على حساب مساحة الفن؟

3 - هل سيمحو الطابع العقلاني كل اثر للفن الحسي، الى درجة ينعدم فيها التنوع؟

4 - ماذا لو امتلك الانسان العلم المطلق؟ ألا يعني هذا انعدام متع الاكتشاف والمغامرة وحب الاستطلاع؟

5 - ألن تتطابق لوحتا رسامين رسما الشجرة نفسها، طبقاً لنظرية واقعية الكم؟

6 - هل سيكون هناك موديل شمولي يلزم الجميع بحتمية تشكله، ألن تتشكل نمطية وقوننة وقولبة لا يمكن تلافيها؟

7 - هل ستنهي واقعية الكم فكرة الزمكان والبيئة المحلية وكل ما يتعلق بخصوصيات التعدد والاختلاف؟

8 - هل ستصبح الانجازات السابقة التي حققها الانسان مجرد قيم متحفية؟

9 - اذا كان اللون طاقة مكثفة لا تختلف في لونها عن اللون التجريدي العادي الذي تراه العين العادية إلا في مستويات ترتيبها. كما تقول واقعية الكم، فكيف يمكن للعين العادية ان تفرق بين طبيعة اللونين من الناحية الجمالية؟ وهل سيكون اللون الاحمر لوناً غير لونه الاحمر؟

لابد هنا ان اعتذر لمحمود لأني أعرف أن ما قدمته هنا يشكل عرضاً اكثر مما هو مقاربة لواقعيته، ولا أستبعد ان بعض ما جاء فيه لن يكون دقيقاً، رغم التزامي اكثر الاحيان بالنصوص الحرفية نفسها التي اوردها محمود نفسه. أو أني لأفترض أن بعض سوء فهم قد خالطها ولم استطع، للأسف، تجنبه، لكني أفترض، من طرف آخر، ان لها جانباً ايجابياً، قد يحفز محمود والمختصون على تصحيحه، وربما يوقظ حيوية الجدل الذي اثارته نظريته منذ ظهورها في السبعينيات، والتي ما زال بعض المعنيين يختصمون جراءها حتى الآن.

واخيراً، فكم ستبدو هذه المقاربة - والاحسن ان اقول العرض - ناقصة ولا ترقى الى مستوى احتفاء لائق بشخصية فريدة كمحمود صبري؟ ومن هو الغائب النص المدون أم صاحبه أم نحن أم الذين لا يقرؤون؟!

* نشر هذا النص في (الثقافة الجديدة) العدد 328 لسنة 2008 بمناسبة بلوغ الفنان محمود صبري سن الثمانين.

محمود صبري.. أطياف وألوان ومُدن

(فن حديث لعصر جديد)

د. شوقي الموسوي
فنان وناقد تشكيلي

شوقي الموسوي من مواليد كربلاء في عام 1970، حاصل على شهادة الدكتوراه في فلسفة الفن الإسلامي، له مشاركات عديدة في المعارض داخل العراق وخارجه، يعمل حاليا كأستاذ تدريسي في كلية الفنون الجميلة - جامعة بابل.

ثمة اتجاهات حديثة في التشكيل الحديث، قد تمردت على فكرة الوضوح والتقرير والتأثيث المحتفلة بالتشبيه والايقنة والاستنساخ والتوصيف الساذج والتوثيق، لصالح محاكاة الجوهر بعيداً عن الاحتفال بجماليات القشور (الخارج) من أجل التمسك بالعالم الداخلي المتلئ بالخير برغم الاغتراب الذي يعيشه الانسان في عصر الحروب.. انه تعبير عن المعاني الانسانية السامية المتخفية وراء المرئيات للكشف عن المسكوت عنه!! ولما كانت مثل هكذا معاني اجتماعية يعبر عنها الفنان التشكيلي المعاصر في العراق ذاتياً، فقد اتخذ من الواقعية التعبيرية والواقعية الإجتماعية (الاشتراكية) المرتبطة بنضال الانسان الكادح الرافض للبدائية والمعبر عن الحدث والشعب، مظهراً لمحاكاة الجوهر.

من هنا نجد ان الفنان المعاصر في العراق، وعلى وجه الخصوص فناننا القدير الراحل محمود صبري قد جعل من الفن قضية انسانية إجتماعية، وهو من الفنانين القلائل الذين طالبوا بحرية التعبير.. كزملائه الفنانين العراقيين (جواد سليم –فائق حسن –شاكر حسن آل سعيد –كاظم حيدر –حافظ الدروبي –خالد الرحال – محمد عارف – محمد غني حكمت..) فالفن لديه يحتفل في كل مرة بالمجتمع وبقضايا الانسان الجوهرية التي تنقب عن معنى الحرية في عصر الاحتلال للامساك بالهوية. الفنان محمود صبري انتج اعمالاً فنية متمسكة بالموضوعات الانسانية باتجاه الواقعية الإجتماعية ذات الطابع الثوري،

التي تجسد معاناة الانسان البسيط ومحنته مع الظلام والظُلاّم، كلوحة (الشهيد المعاصر) الذي مثلت صورة لتشييع شهيد عراقي عام 1951، ولوحته (تل الزعتر) التي جاءت كرد فعل ضد المجازر التي حصلت للفلسطينيين، ولوحة (ثورة الجزائر) وبلد المليون شهيد. وايضاً لوحته (حامل الصليب) التي جسدت مأساة الشعب اللبناني والفلسطيني.. فضلاً عن مشاهد تصويرية للانسان البسيط (العامل والفلاح والمرأة العاملة والطفل اليتيم والمومسات ومحنتهن..)، وبالتالي نجد ان الفنان الراحل يفكر دائما بمعنى الحرية، حيث أكدها في مقولاته: "ان الفنان هو مفكر اجتماعي والحرية أمر طبيعي بالنسبة إلى الإنسان" و"انني كفنان ثوري لم آتِ بشيء جديد مطلقاً، لقد كنت مجرد مرآة عكست روح هذا الشعب المناضل" و"ان للفن وظيفة اجتماعية في المرحلة الثورية" و"علاقتي مع العالم هي علاقتي مع الفن".

الفنان ذاكرة ومكان:

نشأ الفنان محمود صبري في إحدى المحلات الشعبية الصغيرة في بغداد، المهدية على وجه الخصوص في عام 1927 لأبوين عراقيين، والدهُ يعمل في إحدى المحلات التجارية في بغداد، ووالدته ربة منزل. عاش الفنان حياته الإجتماعية في المدينة القديمة وما تحويه من ارث حضاري وإسلامي وتاريخي وثقافي مُعاصر في الفكر والفلسفة والفن والجمال. ابتدأت موهبة الفنان بالرسم وميوله إلى الطبيعة منذ سنواته الأولى في مدرسته الابتدائية (الحيدرية) ومن ثم تمرحل بذاكرته وقوة تفكيره الى المرحلة المتوسطة في المدرسة المركزية في منطقة الفضل ببغداد. فسجل بذلك مشاهده الأولى نحو الطبيعة والواقع المحيط، مروراً بدراسته الثانوية عام 1945 وحصوله على بعثة دراسة جامعية الى بريطانيا في اختصاص العلوم الإجتماعية نتيجة تفوقه على اقرانه. وفعلا التحق بصفوف البعثة وكان من المتميزين وهناك دخل مع بعض الأصدقاء في مدرسة مسائية للهواة لتعليم الفن التشكيلي.. ساعده على المشاركة مع بعض الرسامين العراقيين في إقامة أول معرض عام 1947.

وبعد إكمال دراسته في الخارج رجع الفنان صبري إلى العراق عام 1949 واشترك مع زملائه الفنانين المعاصرين في تأسيس جماعة الرواد؛ اذ تمرد الفنان على الموضوعات السائدة آنذاك واهتم بتأثيث العلاقة الجدلية بين الفنان والحرية لانتاج فنٍ جماهيريٍ انساني.. بعدها قدم استقالته من منصبه في المصرف وغادر وطنه العراق 1963 الى موسكو بحثا عن الحرية والتفرغ للفن والإبداع فقط، ودراسة الفن اكاديمياً في معهد (سوريكوف)، وهناك استطاع الفنان تطوير امكانياته الاكاديمية والتقنية والجمالية الماركسية بجانب الواقعية الإجتماعية. ولكن لم يستمر مكوثه هنالك إثر انقلاب شباط وقمع الحرس القومي للشيوعيين العراقيين، فقرر المغادرة باتجاه براغ عام 1963 لتأسيس لجنة الدفاع عن الشعب العراقي ومن ثم الاستقرار فيها، وهناك تبلورت فكرة الجمع بين الفن والعلم بعد ان كانت في السابق فكرة الجمع بين الفن والمجتمع.

الفنان وواقعية الكم:

بعد ان تأثر الفنان بالموقف الماركسي آنذاك وتبنيه الواقعية الإجتماعية الاشتراكية، تأثر بفعل الجدل والجدلية الديالكتيكية بعالم الذرة وميكانيك الكم من أجل انتاج حلول للفن واقتراح ما هو جديد وحديث، هنا اتذكر مقولة للفنان تنص: "انني أحاول دائما ان أجد حلا لمشكلة لم يحاول التطرق اليها آخر"، بجانب اهتمامات الفنان بعلم الاجتماع وعلاقته بالفنون. فضلاً عن تأثره برواية روسية (ضباب اندروميدا) وهي من أدب الخيال العلمي الذي يشتغل على جدلية علاقة الانسان بالطبيعة والكون. وفي العاصمة براغ عام 1971 انهمك في بحثه الجمالي والعلاقة الجدلية بين الفن والعلم فتوصل الى بعض البيانات فعرض أفكارا حداثوية ولوحات تجريدية خالصة في معرض أسماه بـ"واقعية الكم"، التي هي بمثابة مجموعة من الانظمة والقوانين المعتمدة في الفيزياء تقوم بدراسة جزيئيات الذرة المتناهية في الصغر التي لا ترُى بالعين المجردة ليستفيد منها في وضع واقتراح نظريته العلمية الجديدة في اللون.

تعد "واقعية الكم" فناً جديداً، يعتمد طاقات الذرة في انتاج اشكاله الجديدة ذات القطيعة مع المرئيات. حيث ربط الفنان محمود صبري العلم بالفن، عندما أكد على ان أي فنان لا يمكن ان يصور الطبيعة من دون أن يعتمد على ما أنجزه العلماء من كشف لإسرار الكون العجيب، وما الذرة إلا جزء يسير منهُ. لهذا قال بان لكل ذرة لها أطياف لونية تختلف عن الأخرى بحسب الطول الموجي..؛ إذ اشتغل على ذرة الأوكسجين والهيدروجين لاستحداث الأطياف الملونة، فجعل المرسم بمثابة مختبر.. وبالتالي نجده قد دعا إلى دراسة الفيزياء والكيمياء وعلم الذرة.

بيان واقعية الكم عام 1971:

"التجارب الاخيرة التي أعمل عليها الآن على واقعية الكم أو ما أسميه (المرحلة الثانية) التي تستند على أفكار انشتاين النسبية.. وان الزمن متغير وان كل جسيمة لها زمنها الخاص..".

الذرة وأطيافها اللونية بحدود نظرية الكم:

يتواجد نوعان من الأطياف ذات الالوان المتعددة: أطياف إمتصاص وأطياف إنبعاث.. نلاحظ ان طيف الامتصاص يأتي عند إنتقال ألكترون من مستوى معين للطاقة إلى مستوى آخر أعلى منه.. فيتحرر هنا قدر من هذه الطاقة مساوٍ الى حدٍ ما للفرق بين مستويي الطاقة، أو بالضبط، القدر الذي إمتصه في صعوده إلى المستوى الأعلى.

بينما نجد ان الفنان قد جعل من طيف الإنبعاث بمثابة أشعة ذات طول موجي محدد قد تكون ملونة (مرئية) وقد لا تكون مرئية، كما هي الأشعة فوق البنفسجية وايضاً الأشعة تحت الحمراء. بمعنى ان أساس الظاهرة الكمية تعتمد إنتقالات ألكترونية تحصل تحت تأثير حادثٍ خارجي مشابه لتعرض المركب الكيميائي (الذرة) لتأثير الضوء أو بفعل الشرارة الكهربائية أو ربما توضع تحت تأثير الحرارة العالية. فالطيف المرئي لذرة الهايدروجين يُحتثُّ بالشرر الكهربائي في أنابيب زجاجية معدة للغرض، تكون محكمة وتحت ضغط واطئ شديد الإختزال. فالتجربة تسير وفق شروط

وآليات خاصة يستجيب لها ألكترون ذرة الهايدروجين. أما المركبات الملونة فهي في الأغلب مركبات سائلة أو ربما البعض الاخر صلبة. فضوء النهار (الفوتونات الشمسية) يكفي لتنشيط الألكترونات كي تقوم بالإنتقالات المحسوبة، إمتصاصاً ثم إنبعاثاً، الأمر الذي يؤدي شيئاً فشيئاً إلى إنطلاق أشعة كهرو–مغناطيسية بشكل أطوال موجية تتحسس شبكية العين الإنسانية، فتحدث الرؤيا للألوان.

الاطياف باتجاه التجريد:

محمود صبري عاشق اللون والاطياف السبعة يحاول ان يحاكي الجوهر بمساعدة عمليات التبسيط والتجريد والترميز باتجاه النزعة التجريدية الخالصة بعيداً عن نزعته الواقعية الإجتماعية.. تجاربه الاخيرة قد كشفت قطيعة كبيرة للواقع المرئي فتحولت مشاهد الفنان مجرد خطوط ملونة متعامدة أو متقاطعة أو متوازية تتمسك بالجمال الخالص المتمرد تماما على الطبيعي.. للكشف عن الاطياف. فمشاهده التصويرية الاخيرة قد اهتمت بالاشكال الهندسية ذات الطابع المثالي المتعالي التي تعبر عن الحرية الاكثر تمسكاً بالجوهر على حساب المرئي.

رحل عنا الفنان القدير الاستاذ محمود صبري في لندن يوم الجمعة 13 نيسان 2012 عن عمر تجاوز 85 عاماً، الا ان نظريته "واقعية الكم" ستبقى فاعلة في الفن المعاصر في العراق، وستبقى الذاكرة تحتفل بمنجزات الفنان المغترب والمبدع المنقب عن الاطياف في الذرات. وستبقى "واقعية الكم" محل جدل وتطبيق، لربما نمسك يوماً بالمستحيل؟!!

محمود صبري..

غواية الرسم والإحتراف الخلاق

د. جواد الزيدي

الدكتور جواد الزيدي / مواليد الشطرة عام 1966، حصل على بكالوريوس الفنون الجميلة / بغداد عام 1997 وماجستير فنون جميلة عام 2000 ونال شهادة الدكتوراه / رسم بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف عام 2005، وهو الآن تدريسي في كلية الفنون الجميلة / بغداد ورئيس قسم الخط والزخرفة، وعضو في العديد من الإتحادات والجمعيات الثقافية.... ناقد تشكيلي كتب في الصحف والمجلات العربية والمحلية وألف أكثر من كتاب ليهتموا بالفن التشكيلي..

منذ ان تعلق عشقا بقاع المجتمع وانتمى الى آلام الناس، وبحث في شوارع الوطن الخلفية وناضل من أجل اعلاء الصوت الهامشي وتجميل احلامه المثقلات بصورة الوطن والناس، غادره الوطن بفعل قسوة السلطة وسدت عليه الطرق المؤدية الى قلب الوطن وشرايينه، واغلقت المنافذ وظل يدور في المحطات الموحشة يفتش عن ممر جانبي فوق هامة الارض يحدد اتجاه الوطن لعله يوصله الى هناك والذي يعني الـ (هنا). أي غياب موجع تركه رحيل فنان الشعب محمود صبري بعيدا عنا في أصقاع الأرض الباردة؟ وأي حضور سيتركه الغياب الذي يلف موسيقى اللون وذرات الهواء والماء في مختبر تشكل الحياة ومرسمها أي صوت تردده الغابات والمفازات البعيدة والمدن الحالمة بشمس تأخذ بريقها من أحلامه الصادقة؟ حتما ستظل روحه محلقة في سماواتنا ملهمة لأجيال قادمة في المعاني السامية.

نصف قرن من الزمان وهو يواصل بحثه اليومي عن معنى للحياة قبل أن يبحث عن معنى جديد للفن، حاول استجلاب الأفكار الفلسفية في النظرية الإجتماعية وصراع الطبقات، ويرحلها الى نظريته في الفن التي تقوم على هذا الأساس في بحث طويل انتظر نتائجه ليجد نفسه يغوص في أعماق تفاصيل جزئية من الواقع الذي يعده كليا. الواقع السري الذي لفه اليوم عندما كان يتنقل للتعرف على أسراره أو الوصول

اليه، يتأمل شكل اللوحة ونظامها ويقاربها مع نظام الواقع الخارجي.

إن الحراك بمستوياته المتعددة، سواء كانت ثقافية ام سياسية، والانفتاح على المعرفة باصولها المتشعبة والمضي قدما في اكتشاف فعل الذات وحفرياتها القديمة ضمن فرضيات الحتمية التاريخية في خمسينيات القرن الماضي، جعل من اندفاع الفن الى الواجهة امرا مفروغا منه، بفعل التجارب التوفيقية والمكتشفة وتلاحقها في الفن العراقي وتأسيسها قاعدة يمكن الإنطلاق منها صوب الابتكاري والمتجدد، بوصفها صيغا تعبر عن الراهن المحلي بتحدياته. وهذا ما جعل محاولة محمود صبري تقف على أرض صلبة وتتقدم المحاولات الأخرى إن لم تكن تجاريها في ضوء التأسيس المغاير، وما احدثه في بنية الرسم العراقي المعاصر من انزياحات جمالية وشكلية اسهمت في صياغة هوية وملمح لهذا الجنس الابداعي، بعد ان كان هاويا للرسم لا محترفا بنظر جواد سليم وفائق حسن.

الا ان معطى الفنان على ارض الواقع جعل من الشكوك تجاهه تتحول الى يقين صادم يؤثر بمن حوله، متخذا من جوهر الصراع الإجتماعي اساسا لطبيعة اشتغالاته الأولى، االتي تنضوي تحت التشخيصية التعبيرية في ضوء منظومته القيمية الرافضة لنوع السلطة الاستبدادية والقمعية تجاه الشعب. لهذا توغل الى عمق المشهد الإجتماعي المسحوق والى الأزقة الخلفية ليصور أبطاله، وأثر سلطة التقاليد والأعراف الإجتماعية عليهم، ويجتاز الخطوط الأمامية نحو بيوت الهوى وحياة الكادحين وادخال مفهوم الفن الى الحياة الإجتماعية، ويتلمس عن قرب علامات الحزن المرسومة على وجوه شخوصه الناحلة والمنكوبة تحيطهم عتمة اللون. وهي محاولة تمثل عمق ايمانه وانتمائه لأشيائه ومحيطه الواقعي من جهة، وثانية تردم الحواجز بين الإجتماعي والسياسي انطلاقا من مقولات تغيير الواقع وعدم الإكتفاء بفهمه فقط، لأن الفن من وجهة نظره ليس موجها للنخبة، بل هو فن جماهيري يرتبط بالمجتمع وحركة الناس وصراع الطبقات. ولأنه ابن النظرية الإجتماعية في الفن، فيعد العملية الإبداعية في جوهرها محاكاة الطبيعة أو خلق طبيعة ثانية تتخذ بعدها التعبيري من المفاهيم الفلسفية لتلك النظرية.

لذلك بدأت رؤاه التجديدية تتضح ضمن المسار المعلن لها والطبيعي، والتحول من التشخيصية التعبيرية الى فكرة معادية للرسم والأسلوب والأطاحة بالتقاليد السالفة، حينما بدأ يتخذ من التوفيقية منهجا وسطا يوائم بين العلم والفن، ما شكل الأساس في الإشتغال وأصبح المرسم بديلا عن المختبرات، وأدوات الرسم بديلا عن معدات العالم لينفذ هذه المرة الى المستوى الذري في مفردات الطبيعة والانتقال من الكون الكبير الى عينة جزئية ممثلة من خلال أفكار تفيأت الفلسفة والعلم معا، والأنغماس في ترسيخ صورة جديدة للفن ساعية نحو شكلانية الرسم باعتمادها على الواقع. وفي الوقت نفسه خالية من عوالق الواقع وهي تقوم على العلمية والموضوعية والتوجه نحو أعماق الطبيعة اجتهادا منه وتأكيدا لقناعته بهذا الإنزياح. ونقل الواقعية القديمة التي تحاكي

الموضوع البيئي وتصور تفاصيل مشهده الخارجي بكل ما يحمله التصوير من معنى لينقلها الى الاعماق، ويخلق منها واقعية جديدة بحثا عن مطلق خاص به يكمن في مكان آخر قد يكون جوهر هذه الاعماق او مستواها الخفي اللامرئي بوصفه، محركا للشكل الظاهري العياني، اذ ان الواقعية في نظره لم تعد تسجيل اللحظة المتمظهرة في المشهد الواقعي او تفاصيلها الدقيقة كما هي في وجودها الحي، بل هي واقع آخر يقام على انقاض الواقع القديم او يكون بعيدا عنه، الا انه يتماثل معه في الوقت نفسه من حيث عدم الانفكاك عن الطبيعة او الانسلاخ منها، مهما اتجهت درجة التجريد نحو الشكل الخالص وفي اقصى حالات التغريب، ويظل اثر الطبيعة داخل هذا المنجز وان كان خفيا وغير مرئي.

هذه الواقعية التي تعبر عن طموح الانسان الجديد للسيطرة على مستوى جديد من الطبيعة، ذلك الذي اسماه (المستوى الذري) بمعنى الانتقال الى داخل الذرة او الموناد التي تشكل الظاهرة الكلية، وهذه الذرات او الموناد تمثل الاشياء المادية التي نراها ظواهر حقيقية في الزمان والمكان، والحقيقة المطلقة التي تؤسس هذه الظواهر هي الطاقة او القوة التي تسهل لنا التعرف على شعورنا وإعادة اكتشاف الصلة التي تربط الانسان بالآخر او بالمجموع، ومن ثم الوجود عامة، بالطريقة نفسها التي يقوم بها العلم بتحليل الطبيعة ووصفها من الاعماق او وصف مظهرها الخارجي يستطيع الفن ان يقوم بهذه المهمة، اذ ستكون الواقعية الجديدة من ناحية الشكل فقط شبيهة بالفن التجريدي، وان اللامرئي هذه المرة يتحول الى مرئي عياني، وجعل الشكل متبوعا لا تابعا يفسر الخفي والمستتر من المعاني، بما يعيد للأذهان الثورات الفنية الكبرى التي انتهجت الأسلوب ذاته، وإن اختلفت طبيعة الاهداف والمرامي. ويفسر لنا من جهة ثانية المبدأ التوفيقي بين المتعارضات في التصور الاولي الذي يقوم على المزاوجة بين الواقعي والمجرد، وايجاد تفسيرات مقنعة لهذا التعالق تكون عناصره سطوحا لونية فقط، بكل ما تحمله من دلالة ومرجعية علمية، هذه المرة تشتبك مع التصورات الخاصة بهذا المنهج.

وهنا تصبح الدوافع الرئيسة في عمله الفني غير مرتبطة بمقاييس انتاج الجمال، بل مقاييس التركيب الطبيعي للكون بوصفها أساسا للوجود الكلي. وان هذه الواقعية بحسب تعبير (محمود صبري) تقوم بقلب الفن التجريدي رأسا على عقب وايقافه على قدميه. وبالاشارة الى التجريدية فإنه يحدد هوية الفن الجديد الذي يتصير على اساسه الواقع والمحيط العيني لا بموجوداته المرئية. بل من خلال علاقاته البنيوية ومحمولاته الدلالية التي تحيل في بنيتها التأويلية الى مداليل قد تكون واقعية، نعتها فيما بعد (بواقعية الكم) كونها ترتبط بشكل واضح وكبير بفعل الوجدان، وتعد شرطا مهما من شروط تحديد الجمال الذي يروق بدوره للجميع بعيدا عن التصورات العقلية المتعالية. وترفض التفسيرات بفروضها المسبقة عن ذلك المنجز او وجهات النظر المحددة سلفا. لان هذا المنجز يفرض

المعنى على التجريد بدلا من ان يشاهد المعنى على التجربة.

إن هذه النظرية ليست منقطعة عن الواقع، بل إن تأمل العقود الخمسة الذي امضاه صبري في ما حوله يعد كافيا للتوصل ليقينية الخطاب الذي انتجه، ويبدد الشكوك في ضوء اسناده الى طروحات نظرية مرافقة لها. وهنا اصف بحثه بالمتصل كونه تجاوز النزعات الاكاديمية التي تعلمها واتقنها ليجد درجة صفره الجمالي، وان كل ما قيل عنه لا يقلل من شأنه البحثي، كونه منتميا لأشيائه ومؤمنا بما يفعل، وما الجدل المثار حوله الا دليل على تشييده منطقة جديدة في الرسم العراقي المعاصر.

إن رحيل محمود صبري أحد أهم رواد الفن التشكيلي ومنظريه في لحظة يحتاج فيها الفن العراقي الى أكثر من قنديل يضاء لكي يديم عملية الكشف عن الأشياء المعتمة. وخسارته لم تعد خسارة فن، بل خسارة وطن افتقد أحد أهم رموزه الثقافية والوطنية على السواء، تقصدت المؤسسة الرسمية عن الاحتفاء به أو استذكاره بإختلاف الأزمنة الذي يعني تأخر وطن عن الإحتفاء بأبنائه العاشقين. مازالت ذكرى شكسبير وغوركي وبوشكين وحمزاتوف وبيكاسو تعاد سنويا لتتعرف الاجيال على حياتهم ومنجزهم وعلاقتهم بالوطن والناس. ومازال الوطن الذي أحببنا طاردا لخلايا العقول الخلاقة بتعاقب الفصول. في رحيل صبري، على الوطن أن تهتز أعمدته وأن ننكس أعلام أرواحنا على هذا الغياب المر، لأن اللحظة المعاصرة هي لحظة المبدع والعاشق والخالق المحترف، وبغيابه نفقد خاطرنا الجميل وتأملاتنا الحالمة التي لا يمكن الامساك بها أو العودة الى تفاصيلها، بوصفها جزءاً من حتمية التأريخ وظروفه الموضوعية المحيطة، التي لا تعيد نفسها أبدا. فعندما لم نحتف بوجوده أو بألقه وهو يتمعن تفاصيل البلاد والمدن الغافية، فنستذكر الرحيل ونضيء الذكرى، لعل الذاكرة تلتقط بعض الشيء وتعيد تشكيلها من جديد من أجل حياة وطن وفن يوازي فنون الأرض، بعد ان كان الفن الرافديني يتقدم كل المساحات التي نقشت على جبهات الأرض هنا وهناك، بوصفه أصلا يمكن العودة اليه في اية لحظة تسد فيها الطرق والمسارب أمام مساحات التأمل الخلاق. ولعل محمود صبري ومنتجي الإبداع قد أسهموا بشكل واضح في صياغة معنى للخطاب البصري العراقي المعاصر، سيبقى مرجعا أصيلا للصياغات اللاحقة.

محمود صبري

جدل الفكر والمواقف الجريئة

صلاح عباس
رئيس تحرير مجلة (تشكيل)

قبل سنتين تسنت لي فرصة التحدث هاتفيا مع الفنان محمود صبري الذي غادر العراق الى موسكو سنة 1960 لدراسة الفن وبعدها انتقل الى براغ فانتخب سكرتيرا للدفاع عن حرية الشعب العراقي بعد ان انهارت الجمهورية الاولى سنة 1963، وكان حديثنا عن صورة فوتوغرافية له يصافح فيها ملك العراق فيصل الثاني كنا قد نشرناها في مجلة (تشكيل) كغلاف رابع، الا انه انكر هذه الصورة نافيا ان يكون قد التقى بملك العراق الذي يمثل اكبر رمز للعمالة الانكليزية بحسب وصف محمود صبري، وادّعى ان هذه الصورة مصنعة باحد برامج الحاسوب وهذا يسيء اليه وهو لن يسمح بالاساءة ابدا!
وبصراحة انتابني شعور بالريبة والخجل وحبست هذه المعلومة في سري لانها قد تثير مشاكل لا طائل منها، ولكنني اثق بالرجل الذي زودني بهذه الصورة وهو الفنان الخطاط طه البستاني، واتصلت به فورا استعلم منه حقيقة هذه الصورة فقال انه حصل عليها من بنت اخته وهي دكتورة وصيدلانية. وشاءت الصدف ان التقي بالاستاذ حمدي التكمجي المقيم في عمان واعطيته نسخة من مجلة تشكيل ففرح كثيرا، وعلق على صورة محمود صبري مع الملك بانها اروع صورة. وقال نعم انه التقى بملك العراق فيصل الثاني سنة 1956 وحكى لي عن مواقف كثيرة لمحمود صبري بينها: ان محمود صبري نشر مقالا في احد اعداد مجلة (الثقافة الجديدة) في سنة 1975 عن جواد سليم ومشاركته في المعرض الذي اقامته السفارة البريطانية في بغداد، متحدثا عن جواد بكلام خشن ولاذع لانه شارك في معرض اقامته السفارة البريطانية التي تعتبر بؤرة للعمالة والجاسوسية. في حين بيين مواقف جواد سليم الوطنية وليس بالضرورة ان ينخرط في تيه عالم لا ينتسب اليه! وبحسب محمود التكمجي، فان جواد سليم حين قرأ المقال بكى

كثيرا وتساءل بان الاشتغال على الفن والمشاركة في المعارض شيء، والمواقف السياسية شيء آخر.

لقد عرف عن محمود صبري بانه كان من ابرز المثقفين في العراق وله خوض في مجالات علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والفن. ومنذ سنة 1952 انضم الى جماعة بغداد للفن الحديث التي تزعمها جواد سليم ولعب دورا رياديا في التأسيس الفني، رؤية وتنظيرا وابداعا فنيا متقدما، فكان يعنى بالرسم التعبيري المسوغ بالرموز المتماسة مع المواقف الجريئة المتوافقة مع خصائص المجتمع العراقي. فجسد اعمالاً عن اهمية التضامن الإجتماعي بين فئات المجتمع، العامل والفلاح، الطبيب والمهندس، المراة والرجل، الام والطفل، وسوى ذلك وجاءت اعماله الفنية محملة بالمستوى المتقدم في الادائين اللوني والخطي، ومغزى التضحية بالنفس في سبيل قضية عامة. وانجز سلسلة من اللوحات تحت عنوان "نعش الشهيد" مجد فيها مفهوم الشهادة. كما أن الفنان انجز مجموعة فنية رائدة عن احداث البلاد بعد سقوط جمهورية عبد الكريم قاسم ونفذها بطريقة الليثوغراف أي الطباعة الحجرية، وكانت عبارة عن تخطيطات بقلم الرصاص راعى فيها قيم الفن التخطيطي، وابتكر لها اشكالا تستند الى قواعد الضبط في التصميم وتحفى بقيم الموضوعات المثيرة. ومن خلال هذه السلسلة من الرسومات الورقية فانه صنع شيئا مهما لتاريخ السياسة للعراق وكذلك لتاريخ الرسم العراقي المعاصر. وعند تتبع مسارات الاصداء المترددة عن هذه الرسومات فاننا نجد بان الفنانين حميد عبدالحسين وابراهيم رشيد وهناء مال اللّه نهلوا من عطاءات محمود صبري، لاسيما في رسوماته التخطيطية المنفذة بطريقة الليثوغراف، محققين غايات ابداعية جديدة دخلت بجدارة في تاريخ الرسم العراقي المعاصر.

إن تصفح سِفر محمود صبري يفضي الى عالم الوفاء والاخلاص لقضايا البلاد ويؤكد المواقف النبيلة للفنان في الحقب الزمنية المختلفة. فقد تضامن مع الشعب الجزائري وانجز سلسلة من الاعمال الفنية الممجدة لثورة الشعب الجزائري في كفاحه العنيد ضد الاستعمار الفرنسي، فكانت لوحته (ثورة الجزائر) تمثل خلاصة رائدة واشتقاقا مهما من الحداثات العالمية، ومما يقال عن هذه اللوحة بان بيكاسو شاهدها معروضة في باريس فاعجب بها.

وفي مطلع العقد السابع (من القرن العشرين –المحرر) انهمك الفنان على تأسيس منهج فني جديد وسبل انجاز جديدة، الا وهي (واقعية الكم) التي اثارت زوبعة في حينها، ولم تزل اصدؤها تتردد الى الان. فالمنهج الذي اسسه محمود صبري مجترحا من المعطيات العلمية الجديدة ومشاركة ذلك في انجاز الاعمال الفنية، وكانت بينه وبين قتيبة الشيخ نوري مراسلات عن افاق هذه

التجربة التي شدّت الانتباه الى كون الانسان يتشكل من مجموعة كبيرة من العناصر والمواد الداخلة في بناه التكوينية، وعلى ذلك فإن المنعطفات الحسية والعقلية للانسان تتأثر حتما بمناسيب المواد المتكون منها. وعلى هذا الاساس فان تحصيل الحاصل لهذا المنطلق النظري ادى الى انتاج سلسلة رائعة من الاعمال الفنية المجردة هندسيا، وهي عبارة عن اشرطة لونية تتجاور وتلتصق فيما بينها لتشكل تكوينا منظما ومعبرا عن الحالات الانسانية المختلفة. ولقد اشارت الناقدة بديعة امين في كتابها الموسوم (المعنى والرؤية) في مقالة لها بعنوان "واقعية الكم في متاهة اللامرئيات" الى ان هذه الواقعية الجديدة لها سحرها الاخاذ من خلال فخامة الفكر المخبوء بين ثناياها. وفي هذا السياق فان للفنان وليد شيت وجهة نظر اخرى نشرها في احد اعداد مجلة (تشكيل) قال فيها "بان واقعية الكم لا تنتسب للفن بل تنتسب للمختبرات العلمية" وذلك في رد على الشاعر صادق الصائغ الذي اكد باصرار انتساب "واقعية الكم" الى المناهج الفنية الحديثة، ليس في العراق وحده بل وفي العالم ايضا.

إن حياة محمود صبري حافلة بالبحوث والتنظير مسوغة بالعطاءات الابداعية الثرة، وحتى وان تباينت وجهات النظر في افكاره ومنطلقاته النظرية وفي تجاربه الفنية، فانه يبقى علامة فارقة في تاريخ الفن العراقي المعاصر. إنه الفنان الدؤوب الباحث بعقل مفكر وشعور انساني مرهف، لقد بحث في المغزى الجوهري للانسان ونوازعه وتحولاته.

محمود صبري فنان الشعب..

رائد بين التطبيق والانجاز

قاسم العزاوي

منذ الخمسينيات والى ان رحل عنا الفنان الرائد محمود صبري، وهو في حراك ثقافي وتشكيلي في التنظير والتطبيق، وما أعنيه هنا انه كان يسقط تنظيراته على منجزه التشكيلي... وساعده على هذا وعيه المبكر وبحثه المستمر والدائم عن كل ما هو جديد ومتفاعل بما يخدم الانسانية، وانحيازه التام للانسان ولحياة الناس وملامسته عن قرب لمعاناتهم والغور عميقا داخل النفس البشرية واستقراء ما يجول في دواخلها. من هذا جاءت مواضيعه محاكية لتلك المعاناة والمتطلبات ولكن ليس باسلوب الاستنساخ، بل تنبض بالتعبيرية المغلفة بواقعية يحسها المتلقي تنتمي له وليست بمعزل عنه. هذه المواضيع بمنجزه البصري والتي تؤشر وتلامس هذه المعاناة الانسانية، توجته بلقب فنان الشعب، ورمزا وطنيا وفنان الحياة والمستقبل، من خلال تفاعله وتجذره العميق بتاريخ العراق وتراثه، وبالتاريخ النضالي ليس في العراق وحسب وانما للانسانية جمعاء... اذ رسم للجزائر ولبنان وغيرها، مما يؤكد انتماءه وانحيازه للانسان والانسانية.....عالج الفنان محمود صبري المواضيع المجتمعية ومعاناة الناس وبؤسهم ونضالهم ليس باسلوب المحاكاة او التطابقية التي تحاول تحقيق الشبه والتجسيد باسلوب يقترب من الفوتغراف، بل انجز منجزه البصري باسلوب الواقعية التعبيرية والواقعية الانتقادية والواقعية الاشتراكية ايضا.. مما يجعله قريبا من الاسلوبية الحديثة انذاك، رغم انه لم يدرس الفن اكاديميا، ولكن وعيه المبكر ولاطلاعه الواسع على الماركسية والثقافات التقدمية الاخرى مهدت له ارضية ومرجعية صلبة يتحرك عليها (انه لم يدرس الفن ولكن درس الماركسية...) وجدلها واقتصادها ومجتمعياتها.

والراحل ينتمي الى جماعة الرواد التي سبقت جماعة بغداد التي اسسها جواد سليم وفائق حسن وغيرهم وهذا يعني ان الفنان كان سباقا بالتنظير والمنجز، وكما يقول عادل كامل كان اكثرهم وعيا ومعرفة... ولكن هل نصنفه ضمن الفنانين الفطريين؟ أكيد لا، لانه يعي ما يفعل ويفهم تماما ما يريده الفن وما يحققه من رؤية جمالية واسلوبية ايضاً. واكيد لا ايضا، لانه

رسم بالاسلوب الواقعي التعبيري وبقية الاساليب الاخرى وهذا يدل على ادراك واسع بالاساليب والاتجاهات الفنية. اضافة الى ما تركه لنا من تنظيرات مستقبلية في الفن وعلم الاجتماع كذلك، بمجلة الاداب وفي مجلة (الثقافة الجديدة) في اوائل الخمسينيات من القرن المنصرم... وظل متفاعلاً وديناميكيا مع كل ما هو جديد، ووظف هذا لنقل معاناة الشعب وتطلعاته وقهره المستمر من الانظمة التي لا تراعي حقوق الانسان ولا تلتفت اليه سوى لاذلاله وقهره وملاحقته، وزجه بالسجون وتغييبه ايضا ومصادرة انسانيته، إذ كانت تحز في نفسه هذه الاستلابات ووثقها باعمال ستبقى شاهدا على انحياز هذا الفنان العملاق وانتمائه للوطن والانسان ونصرته بريشته وتخطيط قلمه الراكز بالتوثيق الخطي لهذه المعاناة.... كما نراها في لوحة الشهيد والامومة والريف المهاجر واناس فقراء يجابهون رعب الفيضانات وجدارية وطني التي لم ينفذها سوى على الورق، اضافة الى موضوعات واعمال اخرى تناصر الانسانية في كل مكان مثل: ثورة الجزائر وتل الزعتر ولوحة حامل الصليب وغيرها.... والعديد من الاعمال والتخطيطات التي تصب في هذه الموضوعة التي توثق لمعاناة الانسان وتغور عميقا باسلوبه التعبيري الواقعي داخل ما يمور بالنفس البشرية من رؤى وافكار، كما في لوحته الشهيرة (نساء في الانتظار) بموضوعها الذي ينضح بالتعبيرية المتدفة من الملامح والرغبات...

وفي الستينيات حين ذهب الى موسكو لاكمال دراسته اصطدم بالمنهجية الصارمة بالفن، لم يرقه هذا لذا زاوج بين المدرسة الاشتراكية والتجارب الاوربية الحديثة، مما يؤكد ان الفنان دائب البحث والتطور. وفي عام 1971 اطلق نظريته (واقعية الكم) التي اثارت جدلا واسعا، واراد بها ربط العلم (الفيزياء والكيمياء) وما تخلفه الذرات من اطياف لونية وترددات موجية ورسمها، بصريا بتناغم تجريدي ولوني متناغم... وتحول مرسمه الى مختبر علمي وفني، لقد طبق تنظيراته هذه على الفن. ولم يكتف محمود صبري بالتنظير، فلقد ترك لنا العديد من الاعمال المنجزة كتطبيق عملي لهذه النظرية.

وستبقى هذه المنجزات والتي قبلها تغني المشهد التشكيلي العراقي المعاصر، مثلما تبقى طروحاته وتنظيراته الجادة مرجعا مهما للدارسين.. لم تمت ايها الفنان، ستبقى خالدا في ذاكرة الاجيال.

مقـــــالات

الريف العراقي... شروط الحيـــــاة الكريمة "شط العرب نموذجا "

د. حسن الجنابي

د. حسن الجنابي، اكاديمي ودكتوراه هندسة من جامعة وارشو / بولندا، أخصائي بالموارد المائية والبيئة ومشاريع الاستصلاح الزراعي وعلم الهيدرولوجي وقوانين المياه الدولية وأنظمة المعلومات الجغرافية. له خبرة تزيد على (30) عاما في العمل المهني في العراق وخارجه في مجالات إدارة المشاريع الكبرى في حقول الموارد المائية والبيئية، وحماية الأنظمة الايكولوجية والأراضي الرطبة (الأهوار)، والنمذجة الرياضية لأنظمة الموارد الطبيعية، ونوعية المياه، وإدارة المياه الجوفية واستخداماتها لمختلف الأغراض. يعمل الدكتور حسن الجنابي حاليا سفيرا وممثلا دائما للعراق لدى منظمات الأمم المتحدة في روما، وهي منظمة الأغذية والزراعة الدولية التابعة للأمم المتحدة (فاو)، وبرنامج الأغذية العالمي، وصندوق التنمية الزراعية الدولية.

التحول القسري:

شهد العراق منذ سبعينيات القرن الماضي تحولا جوهريا في مجالات عديدة في ضوء الارتفاع الحاد لأسعار النفط، وما نتج عنها من سياسات وبرامج تميزت بالاسراف في الانفاق بصورة عشوائية فيها الكثير من الرعونة والارتجالية والمغامرة، أحدثت تغييرا ملحوظا في حياة العراقيين كان من سماته الكبرى العزوف عن الزراعة وفلاحة الارض وتربية الحيوانات والصيد الى انشطة اكثر "اغراءً" في الحصول على المال والامتيازات، وبضمنها الانخراط بصفوف الحزب الحاكم وجمعياته ومنظماته المهنية.

وقد تراكمت اثر ذلك عوامل ادت الى فقدان الكثير من مناطق العراق الريفية لشروطها الساندة للحياة، كخصوبة الارض وتراجع قدرة السكان في الحصول على غذائهم اليومي، فضلا عن صعوبة أو استحالة تحقيق ارباح تغريهم بالاستمرار في العمل الزراعي في ظل تدهور نوعية المياه أو شحتها أو تلوثها.

كما أخليت مناطق ريفية كثيرة والتجأ سكانها الى حواشي المدن بحثا عن عمل غير منتج وغير آمن، وسكنوا في مساكن

واكواخ مكتظة تفتقد لابسط شروط الحياة والخدمات، على عكس ما يلاحظه المرء في العالم المتقدم حيث ينزع سكان المدن للسكن خارجها نظرا لما يوفره السكن الريفي من شروط صحية وهدوء وجمالية تفتقدها المدن، ويمارس فيه المواطنون هواياتهم المختلفة ويستنشقون هواءً نقيا، وحيث يمنحهم السكن الريفي فضاءً واسعا وتنوعا في المشهد الطبيعي بالاضافة الى امكانية زراعة انواع محببة من النبات والخضر وغير ذلك.

فالريف العراقي والانظمة الايكولوجية المرتبطة به تتميز بهشاشتها وضعف مقاومتها للتغيرات الحادة، وبالتالي فهي عرضة سهلة للتدمير المتعمد نتيجة التعسف والحروب، كما جرى للاهوار العراقية والقرى الكردستانية التي دمرت، أو نتيجة الاهمال والعبث النابع عن الجهل بالقيمة الاقتصادية والاجتماعية والغذائية والثقافية والبيئية لها، ومنها خلق مناخ سلبي ودعائي متعالٍ يميّز ضد سكان الريف والفلاحين يظهرون فيه اقل ذكاءً وثقافة، ويصبحون مصدرا للتندر والاستهانة بانسانيتهم والحط من قيمهم والهزء بظروف عيشهم وبؤسهم، مما يدفع المواطن الريفي الى ترك بيئته في اول فرصة تتيح له العيش في المدن لممارسة مهنة اخرى.

شط العرب ضحية الحروب والاهمال:

تعتبر منطقة شط العرب "نموذجا" صارخا لمديات التدهور الذي اصاب المنطقة وتجلّت بتأثيرها المباشر على نوعية ومستوى حياة السكان الذين اعتادوا التمتع عبر التاريخ بحياة مريحة نسبيا ومستوى معيشة افضل من بقية مناطق الريف العراقي الأخرى، نظرا لخصوبة الارض والمياه الوفيرة والثروة السمكية وغير ذلك.

فقد تفاقمت المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية في منطقة شط العرب منذ حرب الخليج الاولى وما تلاها من حروب متتالية وما رافقها من السيطرة الكاملة على الايرادات المائية نتيجة بناء السدود والمنشآت على الروافد العليا لشبكة الانهار المغذية للشط.

ان شط العرب هو مجرى مائي فريد من نوعه لأنه، وعلى العكس من الانهار الاخرى، يجري بإتجاهين متعارضين شمالا وجنوبا باليوم نفسه. أما منابعه فهي منابع الانهار الكبرى التي يتشكل منها، وهي نهرا الفرات ودجلة اللذان ينبعان في تركيا ونهرا الكرخة والكارون وتقع منابعهما في ايران، بالاضافة الى روافد دائمية أو موسمية اخرى تصب بالنتيجة بواحد من تلك الانهار.

فنهر الكارون يصب مباشرة بشط العرب الى الجنوب من مدينة البصرة، اما انهار الفرات ودجلة والكرخة فهي تصب في نهاية المطاف في شط العرب شمالي البصرة ولكن عن طريق الاهوار العراقية، حيث يتشكل منها نظام المسطحات المائية والمقاصب والمستوطنات البشرية والسلسلة الهائلة من الاحياء والنباتات المائية، التي تشكل بدورها حلقات مترابطة لدورة كاملة للحياة، بالاضافة الى كونها حاضنة رئيسية للتنوع الاحيائي في بيئة مائية مجاورة لأشد مناطق العالم جفافا وهما الربع الخالي والصحراء الكبرى.

يمثل شط العرب الجزء الجنوبي لذلك النظام المائي الهائل الذي يتشكل من الانهار الاربعة المذكورة، وهو المصب والمنفذ الذي يجمع وينظم حركة تلك المياه، في شحتها أو فيضانها، ويحدد علاقتها التفاعلية مع مياه البحر المالحة في حالتي المد والجزر،

فيجري شمالا اثناء المد وجنوبا اثناء الجزر.

وظائف شط العرب:

يمكن القول بأن لشط العرب – مائيا– مهمتين رئيسيتين: اولاهما كونه ممراً مائياً مهماً لاغراض الملاحة والنقل النهري والبحري وما يرتبط بذلك من السياحة والترفيه، وثانيهما هو ان شط العرب يمثل المصدر الرئيسي لمياه الشرب وللفلاحة وصيد الاسماك وغير ذلك، مما يتطلب مياهاً عذبة اعتاد السكان عليها منذ بدء الوجود البشري على تلك البقعة من الارض.

لقد تراجعت الوظيفة الاولى كثيرا وتدهورت بسبب الحروب وما خلفته من غوارق وتدمير واهمال، الا انه يمكن استعادتها لأن ظاهرة المد البحري تضمن وجود المياه في مجرى الشط باستمرار، وكذلك يمكن القيام باعمال تنظيف مجرى شط العرب من الغوارق وتعميق مقطعه وتحسين وصيانة ضفافه، بل وتعميق وتأهيل القنوات المرتبطة به على الجانبين، خاصة قنوات مدينة البصرة الستة على يمين الشط وهي السراجي والخورة والعشار والخندق والروباط والجبيلة، والتي تكوّن مع الشط شبكة مائية متصلة تصلح للاستخدام في النقل والترفيه، وغيرذلك مما يجلب للمدينة رونقها واناقتها وحيويتها المفقودة نتيجة الحروب والاهمال، ويحقق فيها تنمية اقتصادية واجتماعية هي في أمسّ الحاجة اليها، وستحاكي البصرة عندذاك على الأقل مدينة امستردام المشهورة بقنواتها الكثيرة بعد ان فقدت لقبها الرومانسي "فينسيا الشرق".

اما بالنسبة للوظيفة الثانية فإن عذوبة مياه الشط هي التي ساعدت على الاحتفاظ بخصوبة التربة وبغابات النخيل المليونية والحقول والبساتين المزدهرة على الضفتين والمساحات الخضراء في الاماكن العامة والبيوت والمزارع وغيرها. ومن الواضح بان كارثة كبرى قد حلت بهذه الوظيفة وانعكست بإفقار شامل لفئات سكانية كبيرة نتيجة تحطيم البيئة النهرية الطبيعية لشط العرب ومحيطه الجغرافي، وخاصة تدمير خصوبة التربة وغابات النخيل وتراجع الثروة السمكية وصعود المد المالح في الشط وانعدام مياه الشرب في المدن والقرى، مما أسفر عن توقف النشاط الاقتصادي بشكله المعروف تاريخيا.

لقد وصل الحد بالنظام السابق، ونتيجة للتدهور الذي حلّ بالشط نتيجة الحروب والتعسف، الى الترويج لفكرة الاستغناء عن شط العرب والاستعاضة عنه بقناة "شط البصرة" في محاولة جاهلة لمنع استفادة ايران من شط العرب بعد التنازل المهين عن السيادة على نصف الشط لصالحها بدءاً من الضفة اليسرى للشط، التي كانت تمثل الحدود السياسية بين البلدين لعدة قرون وحتى المجرى العميق في منتصف النهر وذلك في عام 1975.

اما قناة "شط البصرة" فهي قناة كبيرة منجزة تقع الى الغرب من المدينة وتصل بين كرمة علي والجزء السفلي من مبزل "المصب العام" قبل مصبه في الخليج بمسافة قصيرة، ويمكن استخدامها للنقل المائي أو أي استخدامات مناسبة اخرى ولكنها لا تعوض عن شط العرب بأي شكل من الاشكال.

كانت مياه الانهار الاربعة الكبيرة تصب في شط العرب وهو بدوره يفرغها في ثغر الخليج، وعندما يرجعها الأخير شمالا اثناء المد البحري العالي تندفع خلال شط العرب وكرمة علي وهور الحمّار فتسقي الحقول والمزارع والبساتين، وتتيح الصيد الوفير وتسّهل حركة الزوارق والمراكب، وعندما

تجري جنوبا اثناء الجزر البحري فإنها تتسرب الى شمال الخليج وتختلط مع مياه البحر وتكوّن مساحة بحرية ذات طبيعة خاصة هي مأوى لانواع احيائية متميزة.

بدأت مياه شط العرب بالانحسار التدريجي منذ السبعينيات بسبب بناء السدود وتحويل مجاري الانهار والروافد في دول الجوار، ومع انحسارها تقدمت مياه الخليج المالحة شمالا في شط العرب لتحلّ محل المياه العذبة التي كانت تملأ مقطع الشط والاهوار اللصيقة به. لقد كان سد الكرخة الذي انجز عام 2001 وسلسلة السدود على نهر الكارون وروافده التي اكتملت في عام 2006 بمثابة الضربة القاصمة والاخيرة في عذوبة شط العرب بعد انحسار مياه الرافدين، الفرات ودجلة، مما ادى الى تردي بيئته النهرية بشكل مريع.

برامج اغاثية:

لقد فقدت بيئة شط العرب اثر ذلك خصائصها الساندة للحياة وأهمها خصوبة التربة وكذلك القدرة على تعويض وتجديد المخزون السمكي والاحياء المائية الأخرى. فالتربة، وعلى عكس الانطباع السائد، هي من الموارد غير المتجددة وإذا فقدت خصوبتها نتيجة للتملح والاهمال فهي تفقدها للأبد.

كذلك الأمر اذا تلوثت المياه العذبة أو تردت نوعيتها أو اصبحت مالحة فإن المخزون السمكي المعتاد سوف ينضب وتنقرض الانواع المحلية المعتادة من الأحياء المائية، ولذلك يضطر الصيادون البصريون للبحث عن الصيد في اماكن ابعد لم يألفوا الاصطياد فيها، وهذا يفسّر مأساتهم وحوادث اعتقالهم المتكررة من قِبَل دول الجوار ومصادرة مراكبهم وتعريضهم للاهانات والتعسف، كما عرض في الاعلام العراقي الرسمي في اكثر من مناسبة. كما تناولت الأخبار حوادث العثور على أحياء مائية غريبة كاسماك القرش في شط العرب ويعزي مركز علوم البحار العراقي ذلك الى التغيير في بيئة شط العرب وندرة المياه العذبة التي لاتعيش بها تلك الاسماك.

ان حجم التدهور في مساحات كثيرة من منطقة شط العرب يؤهلها لكي تصنف على انها منكوبة وبحاجة الى تدخل استثنائي وفق برامج اغاثية، وبحيث يمكن منح تعويضات مناسبة للسكان، خاصة المزارعين والصيادين، لتمكينهم من ترميم محيطهم وتطوير وسائل معيشتهم وانتشالهم من الافقار الذي حل بهم ومساعدتهم على استعادة قيمة ممتلكاتهم، فقد تعرضوا الى ويلات الحروب التي طحنت ابناءهم وحطمت مقومات حياتهم الاقتصادية، واليوم يعانون من تدهور محيطهم البيئي وتراجع قدرتهم في الحصول على الغذاء والخدمات الضرورية بما فيها مياه الشرب.

مع ذلك فالمنطقة بحاجة الى دراسة علمية وتفصيلية لتقييم مستويات التردي البيئي والزراعي للتعرف على مديات تراجع الأمن الغذائي والاكتفاء الذاتي من الزراعة والصيد، واعتماد تلك الدراسة كأساس لإعادة تأهيل المنطقة وفق خطة متكاملة تهدف الى مساعدة التجمعات البشرية في القرى والمدن على البقاء في اماكنها وتجنب النزوح قبل فوات الآوان.

انشاء سد على شط العرب

تطلق تصريحات ومطالبات كثيرة، حتى على مستوى اعضاء في مجلس النواب العراقي، عن ضرورة بناء سد على شط العرب وذلك لمنع تسرب المياه العراقية الى

الخليج ولمنع صعود مياه البحر المالحة شمالا.

لاشك فإن هذه الفكرة لا تخلو من براءة، الا انها غير واقعية بل ومضرّة. فلا يمكن بناء سد لتخزين المياه على شط العرب على شاكلة سدود دوكان ودربندخان وحديثة والموصل لأن شط العرب يقع في ارض مستوية. ولكن يمكن انشاء سدّة على غرار سدّة الهندية أو سدة سامراء أو الكوت وغيرها وهذه تستخدم لرفع مناسيب المياه بغرض استخدامها سيحا في الري بدون الحاجة الى الضخ الذي هو مكلف حتى في ظل توفر طاقة كهربائية اعتيادية. ستكون السدّة في حال انشائها عديمة الفائدة بسبب قلة أو انعدام الايرادات المائية من الجانب العراقي، وبالتالي عدم وجود مياه عذبة كافية للاحتفاظ بها ومنع تسربها الى الخليج.

فالمعروف أن اغلب مياه شط العرب حتى وقت متأخر كانت تأتي من نهر الكارون اساسا (اكثر من 15 مليار متر مكعب كمعدل سنويا) والكرخة (اكثر من 5 مليار متر مكعب كمعدل سنويا)، وبما ان ايران اكملت سيطرتها على مياه نهري الكارون والكرخة وتحويلها للاستخدام داخل الحدود الايرانية، فلا أمل يرتجى في تحسين نوعية مياه شط العرب في ظل انحسار مياه الفرات وفي انتظار اكتمال تشييد سد اليسو التركي على دجلة.

من الجدير ذكره ان وزارة الموارد المائية شرعت بتنفيذ قناة اروائية بموازاة شط العرب استجابة للواقع الجديد المتمثل بملوحة شط العرب، وذلك لنقل ما مقداره 30 متراً مكعباً في الثانية من مياه الري للاراضي الزراعية التي كانت تسقى من مياه شط العرب العذبة، في محاولة لمساعدة السكان على ممارسة نشاطهم الزراعي.

القانون الدولي للمياه وشط العرب:

ان شط العرب هو مجرى مائي دولي، وان النظر في مديات انطباق القانون الدولي عليه أمر واقعي ومفيد، خاصة من حيث ادارة المياه المغذية له، لأن كسب الجدل والفوز بالحجة استنادا على القانون الدولي هو انتصار بحد ذاته حتى لو بقي في اطاره المعنوي أو الاخلاقي أو السياسي، ولكن هناك اشكاليات يجب التمعن بها بغرض فهمها من قبل من يتصدى لهذه المعالجة وأهمها وبإختصار شديد ما يلي:

1- ان القانون الدولي للمياه ليس حلا سحريا أو فوريا لمشكلة شط العرب، أو أية مشكلات ونزاعات مائية بين الدول، بل هو اطار عام للمبادئ والأسس التي تعتمدها المجموعة الدولية لحل تلك المنازعات، وبذلك فإن للقانون الدولي للمياه تأثيراً اخلاقياً وقانونياً كبيراً في أي نزاع مائي دولي يطرح على محكمة العدل الدولية في لاهاي، وإن حل اية مشكلة مائية مشتركة بين اكثر من دولة يتم حصرا بين الدول نفسها، ولا يمكن للقانون الدولي فرض حلٍّ معين على الاطراف.

2- ان وجود اتفاقية ثنائية بين دولتين (او اتفاقية ثلاثية أو رباعية... الخ بين مجموعة من الدول المعنية) يجمّد من الناحية العملية -ان لم يلغ- مفعول القانون الدولي الا اذا حدثت أضرار كبيرة أو تهددت مناطق ومجاميع بشرية بمخاطر كبرى. وفي حالة شط العرب فإن للعراق اتفاقية ثنائية مع ايران منذ عام 1975، بالرغم من رغبة العراق التي عبر عنها رئيس الجمهورية العراقية في وقت سابق بمراجعتها، كذلك هناك أضرار كبيرة حدثت وتحدث في بيئة

شط العرب وإن العراق بحاجة الى مسحها وحصرها وتقييمها بشكل تفصيلي.

3- لا توجد آلية أو أجهزة معينة أو شرطة دولية لتطبيق القانون الدولي للمياه مهما كان حجم الخروقات أو سوء الاستغلال من قبل طرف من الاطراف المتشاطئة، على عكس قوانين المياه الوطنية، حيث تسهر أجهزة الشرطة المحلية والمحاكم على تطبيقها مثلا.

4- في الوقت الذي لا يشك فيه احد من ان الفرات ودجلة نهران دوليان، فإن دولية نهري الكرخة والكارون قد تكون موضع نقاش وبحاجة الى جهد قانوني وفني يتناسب مع أهمية هذين النهرين للنظام المائي في المنطقة عموما وخاصة لشط العرب.

فلو أخذنا نهر الكارون مثالا، وهو لا يختلف بالنتيجة عن نهر الكرخة، لنرى مدى انطباق القانون الدولي عليه أو لكشف اهم التعقيدات المرتبطة بذلك – في ضوء الفقرة الرابعة أعلاه- فسنجد أن اتفاقية قانون استخدام المجاري المائية الدولية 1977، وهي أهم وثيقة في القانون الدولي للمياه، تعرّف النهر الدولي على انه: "أي مجرى مائي تقع أجزاؤه في دول مختلفة".

وبما أن نهر الكارون يقع جغرافيا داخل الاراضي الايرانية من المنبع حتى المصب فيبدو حسب التعريف المجرد وكأنه نهر محلي وليس نهرا دوليا.

ولكن الوجه الآخر لهذا الجدل هو ان لكل نهر خصائصه المميزة النابعة من ارتباطه بالبيئة الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والثقافية، وما يناسب ذلك من أنماط انتاجية وانشطة وتجمعات بشرية وغيرها. وبذلك فإن النهر هو ليس فقط المسافة الجغرافية المحددة بين المنبع والمصب بل ماحولهما وما بعد نقطة المصب كذلك.

فمياه الكارون لا تتلاشى عن نقطة المصب وان كانت داخل الحدود الايرانية، بل انها تغذي شط العرب الذي هو نهر دولي ويقع ضمن منطقة تتأثر بالمد البحري وهي ظاهرة طبيعية ملازمة للخليج ولا يتحكم بها اي طرف، وهذا المد البحري يدفع مياه الكارون مباشرة داخل الحدود العراقية الى البصرة. لذا فإن الكارون لا يختلف من هذه الناحية عن نهر دجلة الذي تقطع مياهه الحدود التركية الى العراقية!.

لذلك فإن تفسيرنا للنهر الدولي يتجنب التفسير النظري البحت البعيد عن الواقع الاجتماعي والهيدرولوجي والبيئي، والبعيد عن روح اتفاقية قانون استخدام المجاري المائية الدولية التي تعنى اساسا بالحفاظ على المجاري المائية كأنظمة كليّة غير مجزأة ومنع استغلالها الجائر، بقدر ابتعادها عن فكرة السيادة المطلقة للبلدان على الانهار داخل حدودها السياسية وتدعو الى الاستخدام المنصف والمعقول للموارد المائية لضمان استدامتها. وبالنهاية فإن الحدود السياسية بين الدول هي خطوط وهمية تتفق عليها وتلتزم بها الحكومات وليست الانهار التي تعترف فقط بمساحة تأثيرها أو تأثرها بغض النظر عن الحدود الدولية.

وعلى هذا الاساس يشكل الكارون رافدا من روافد شط العرب وجزءا مكملا للنظام النهري الذي يتشكل من دجلة والفرات وروافدهما، وهو "**جزء من شبكة المياه السطحية التي تشكل بحكم علاقتها بعضها ببعض كلاً واحدا وتتدفق صوب نقطة وصول مشتركة**"، كما جاء في اتفاقية قانون استخدام المجاري المائية الدولية في الأغراض غير الملاحية.

القضية المهمة الأخرى هي ان تحويل مجرى نهر الكارون أو إحداث تغييرات كبيرة فيه أو تلويثه، ينعكس مباشرة على العراق وسكان منطقة شط العرب ويسبب لها اضرارا كبيرة، وأن الاتفاقية الدولية المذكورة – وفقا للمادة السابعة منها– تمنع إحداث اي ضرر ذي شأن لدى دولة مشتركة بالمجرى المائي، وإن حدث ذلك فإن التسبب بأضرار يستوجت دفع تعويضات مناسبة للطرف أو الاطراف المتضررة.

وبالمناسبة فإن القانون الدولي للمياه لا ينظم علاقات الدول والحكومات فقط، بل يمكن لأي مواطن متضرر أو مجموعة مواطنين متضررين، بسبب سوء ادارة الموارد المائية من قبل احدى الدول المتشاطئة، التقدم بشكوى الى محكمة العدل الدولية في لاهاي دون ان يؤثر ذلك على التزامات دولة المشتكي أو المشتكين بالاتفاقيات القائمة، ولا يفسّر ذلك على انه إخلال بالاتفاقية الثنائية أو الثلاثية أو غيرها ان كان ثمة اتفاقية موقع عليها من قبل الدول المتشاطئة. وقد سبق لمحكمة لاهاي الدولية الاستناد في مداولاتها حول النزاعات المائية الى اتفاقية قانون المجاري المائية الدولية، وهناك اكثر من وسيلة بإمكان المواطنين المتضررين من خلالها تقديم شكاواهم، بعيدا عن القنوات الدبلوماسية الرسمية لتجنب احراج الحكومة المرتبطة باتفاقية نافذة مع جيرانها.

النفط مقابل الماء المالح:

لقد دفعت البصرة وضواحيها وبساتينها وانهارها ثمنا باهظا للحروب والاهمال والتعسف خلال العقود الثلاثة الماضية تحولت اثرها، وعلى العكس من تاريخها الناصع، الى خرائب واحياء فقيرة وجفت أو تملّحت انهارها واستخدمت قنواتها لقذف القمامة بعد ان كانت تجوبها زوارق الصيادين أو المصطافين أو المتبضعين.

فأية مفارقة حين تمنح البصرة نفطها للعراق، بكل ما يعنيه ذلك في ظل انعدام قدرة المجتمع على انتاج ما يكفيه من الغذاء، ولكنها تستلم ماءً مالحا بعد جفاف المنابع العذبة. ان انتاجها من النفط لعدة اشهر يكفي لإعادة بناء ما خربته الحرب. نعم لن يعيد النفط عذوبة شط العرب، ولكنه يعالج بعض جراح المدينة ويمكّنها من استعادة جزء من عافيتها، ويمنح مواطنيها مياه شرب صالحة، ومساكن لائقة ومدارس ومشافي وملاعب ويساعد مزارعيها وصياديها على التأقلم مع المعطيات الجديدة التي فرضت عليهم. البصرة هي مفتاح نهضة العراق، وان لم تنهض ستبقى النهضة الوطنية الشاملة مؤجلة.

مشكلة السكن في العراق وآفاق المعالجة

أ.د. عباس التميمي

د.عباس التميمي استاذ متمرس، من مواليد 1934 عمل في التدريس في العديد من الجامعات العراقية والليبية. اصدر مجموعة من الكتب المنهجية والمتخصصة في اختصاصه، الجغرافية الصناعية، ونشر العشرات من الابحاث العلمية في مجلات اكاديمية وفي الصحف والمجلات الوطنية في الموضوعات الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية.

اجتذبت مشكلة السكن في العراق أقلام كثير من الباحثين والكتاب، كما عقدت ندوات لدراستها وتناولت وزارة الإسكان في مناسبات كثيرة حاجة البلد إلى الوحدات السكنية والتي قدرت في بداية تغيير النظام إلى ما يزيد على ثلاثة ملايين وحدة سكنية. وسمعنا في البدء أن ذلك يتطلب ثلاث سنوات على الأقل وتصورناها طويلة لما عاناه المواطنون من ألم وانكسار، ممن لا يملكون دورا للسكن أو لمن عاشوا على أطراف المدن في الصرائف وبيوت الصفيح. وتمضي السنون ولا نجد إلا تزايدا في أزمة السكن وزيادة في هدر الأموال وارتفاع في كلف البناء، سواء أكان ذلك في العاصمة بغداد أم في المدن ومراكز الاستيطان الأخرى.

فما هي المشكلة؟ وما هي افاق معالجتها؟

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على حجم المشكلة والعوامل المؤثرة فيها للوصول إلى تحديد الحاجة للوحدات السكنية في العراق والحلول التي يمكن أن تطرح بهذا الصدد لمعالجتها. ويعتمد البحث الأسلوب التحليلي اعتمادا على ما أمكن توفيره من بيانات الجهاز المركزي ومن معطيات، توفرت في مصادر أخرى.

وتفترض الدراسة إن هناك تلكؤاً في عملية الإعمار ناجمة عن عدم وضوح الرؤيا وطرق المعالجة. وأن هناك فجوة متزايدة بين الوحدات السكنية والمتطلبات التي يخلقها التطور الاقتصادي/الاجتماعي والزيادة المضطردة في عدد السكان، هذا فضلا عما تركته الحروب المتكررة والحصار الاقتصادي على العراق من تأثير في تخلف

قطاع الإسكان.

إن توفير البيانات تمكن من الحصول على نتائج أفضل وصورة أكثر وضوحا لمتطلبات العراق من الوحدات السكنية وسبل معالجتها، لكي يؤمن السكن الحديث لمواطني بلادنا، وهم أحق في قطف ثمار موارده الغنية ولمواكبة متطلبات العصر وتعويضا عما أصاب الأكثرية من غبن مستمر وبؤس لا يزال يعتصرهم.

أولا: البداية الأولى لبناء المساكن:

يمكن اعتبار العراق احد أهم المراكز التي نشأت على أراضيه المباني السكنية، إن لم يكن الأول فيها. اذ تشير الدراسات الأثرية إلى إن أول انتقال معروف من الإيواء في المغارات والكهوف إلى المساكن جرت في مستوطنة (**زاوي جمي**) قبل حوالي عشرة آلاف عام قبل الميلاد(1). ولعل قرية (**جرمو**) تعد أقدم قرية عراقية انتقل إنسان ذلك الزمن البعيد إليها (6750 ق.م)(2) من الملاجئ الطبيعية إلى مساكن مشيدة، معتمدا في بنائها على مواد البيئة المحلية الأولية كالطين والحجر والمواد النباتية كجذوع وأغصان وأوراق الأشجار وغيرها، واخذ يجري عليها تحويرات ككتل "الطوف" وهو الطين الممزوج بالتبن لتماسكه أو لتحويره إلى "اللبن" وهو طين منتظم الأبعاد مصنوع في قوالب ومجفف بأشعة الشمس، و"الطابوق" وهو اللبن المفخور. واستخدام مواد ربط من الطين والكلس والقير، في حين استفاد إنسان جنوب العراق من القصب والبردي في بناء الأكواخ التي سكنها ولا زال.

كما قدم الإنسان العراقي أوائل أساليب البناء وهندسته وأصبحت المباني، إضافة إلى كونها مأوى لمعيشة الإنسان وحمايته من الظروف البيئية والتقلبات المناخية ومن الحيوانات المفترسة، جزءاً من البناء الحضاري للمجتمع، أو صفحة تقرأ عليها ثقافة الشعب(3)، بل أصبحت احدى أهم قواعد ذلك البناء. وقد تفنن العراقيون في أساليب البناء واعتماد مواد بنائية جديدة، رافق ذلك الحاجة إلى تشييد المعابد والقصور الملكية ومنشآت الري والصرف وتعبيد الطرق وإنشاء الجسور وأسوار حماية المدن إلى غير ذلك.

وعلى الرغم من تناوب أقوام مختلفة للسيطرة على العراق، استمر تقدم البناء وبلغ أوج تطوره في عصر العباسيين لاستقرار البلاد ونمائها الاقتصادي الناجم عن اتساع الرقعة الجغرافية التي بلغتها الدولة آنذاك، وصار البناؤون يتفننون في بناء المساجد والمآذن والقصور ومراكز اللهو والتعليم. كما تغيرت متطلبات البناء ومواده التي أخذت تجلب من أماكن قريبة أو بعيدة لتلبية حاجات الملوك والخلفاء، الذين تناوبوا على حكم البلاد، إلى بناء القصور الكبيرة والفخمة.

ويأتي البناء الحديث معتمدا أساليب ومواداً جديدة متأثرة بأساليب وطرز البناء الحديثة التي تطورت في الحضارة الغربية، وأخذت تتماشى أو تحل محل الأساليب والمواد المحلية القديمة، فظهرت المباني الكثيرة الطوابق واستخدم الاسمنت والحديد والألمنيوم وأنواع جديدة من الزجاج ومن لدائن صناعية، ومن بين ذلك الطابوق الجيرى والأسمنتي والثرمستون والجدران جاهزة الصب. وازداد استخدام المكائن والآلات الحديثة واستخدمت أساليب للبناء تواكب تطور بناء الشوارع وأساليب النقل ومتطلبات البلدية واعتماد التخطيط وتصاميم لبناء المدن. **ولا بد من إلا شارة إلى أن التباين الكبير بين كلف البناء وبين القدرة الاقتصادية لعموم أفراد المجتمع، قاد الى أن**

يسود في البناء استخدام الكتل الكونكريتية وصار الكثير من المواطنين يعيشون في أبنية غير صالحة للسكن فهي تصبح، في فصل الصيف، وكأنها أفران في درجة حرارتها، حيث تفتقر جدرانها إلى العزل الحراري، ويزيد من تاثير ذلك انقطاع التيار الكهربائي أو عدم وصول الكهرباء، مما يجعل حياتهم لا تطاق خاصة بعد أن تخلى المجتمع عن أساليب ومواد البناء المحلية القديمة التي كانت توفر أجواءً مخففة للتطرف البيئي من درجات حرارة عالية أو منخفضة ومن ارتفاع الرطوبة أو جفاف شديدين باستخدام مواد تتميز بالعزل الحراري كالجدران العريضة (نصف متر) واستخدام الخشب والمواد النباتية في السقوف، واعتماد أساليب بناء لتدوير الهواء في المنازل واستخدام طوابق تحت الأرض (السرداب) وغيرها.

ثانيا: العوامل وراء مشكلة السكن:

تعد مشكلة السكن احدى أهم المشكلات التي تواجه المجتمع العراقي وما رافق ذلك من تغيرات اقتصادية واجتماعية، ومن ابرز العوامل التي ساهمت في تفاقم مشكلة السكن:

أ. الزيادة السكانية الكبيرة والمتسارعة: يعد العراق من بين أكثر دول العالم في ارتفاع معدلات النمو السكاني، إذ تراوح المعدل فيه بين 3٪ إلى 3.3 ٪ سنويا، وإذا كان هذا المعدل يضاعف السكان في 35 سنة أو اقل فان ما نراه في بلادنا أمر مثير للغرابة فبعد أن كان عدد السكان في تعداد عام 1947 قريبا من خمسة ملايين نسمة، اقترب الآن من الثلاثين مليونا، أي ما يقرب من ستة أضعاف في حوالي 60 عاما.

ب. انتشار الأبنية القديمة: وهي الأبنية المشيدة من "اللبن" والأكواخ المبنية من القصب والبردي والصفيح، أو تلك التي تم بناؤها من الكتل الكونكريتية بكلف بسيطة، والتي لا تواكب متطلبات العصر ولا توفر الراحة لساكنيها. فعلى سبيل المثال، بلغت المساكن المبنية من الطين ومن الصرائف والخيام والكرفانات ما نسبته 14.4٪ من المجموع الكلي كما في تعداد عام 1987 (4) ولا بد انها تزايدت زمن الحصار.

ج. ارتفاع المستوى المعاشي ومعدل دخل الفرد: حصلت طفرات عدة في ارتفاع الدخل القومي واكبت زيادة نصيب العراق من أرباح نفطه وزيادة إنتاجه في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، وارتفاع أسعاره عام 1973 وبعد تأميم النفط عام 1972 وزيادة ميزانية الدولة لتتجاوز لأول مرة مليار دولار عام 1975. والطفرة الجديدة بعد تغيير النظام بارتفاع أسعار النفط وإعادة تنامي إنتاجه.

رافقت هذه الطفرات فترات هبط فيها معدل دخل الفرد نتيجة لقيام الحروب وتكاليفها الباهظة، ونتيجة الحصار الذي فرض على العراق بعد حرب الكويت وانخفاض أسعار النفط وبيعه بطرق غير شرعية وبأسعار زهيدة طيلة أيام الحصار، فضلا عن إن الأموال احتكرت لبناء القصور الرئاسية والإعلام، وخلال ذلك انحسر البناء عموما والسكني بخاصة، كما إن الكثير من البيوت هدمت وبيعت أنقاضا وبشكل خاص قضبان الحديد في "صبات" السقوف، لتوفير لقمة العيش آنذاك لمالكيها.

د. ارتفاع المستوى الثقافي: ومن ذلك اتجاه العائلات الصغيرة للاستقلال عن عائلاتهم والبحث عن السكن المناسب، يسهم في ذلك حاجة الموظفين إلى السكن في غير أماكنهم السابقة.

هـ - اتساع المدن وزيادة عدد سكانها: تزايد سكان المدن بشكل ملحوظ فقد تجاوز سكان

بغداد خمسة ملايين نسمة في حين تجاوزت أو قاربت مدن الموصل والبصرة والحلة المليون نسمة. ويتسارع نمو سكان مراكز المحافظات والمدن الأخرى ويرافق ذلك التحول الكبير نحو التحضر حتى أصبحت نسبة الحضر تتجاوز 66٪ مما أسهم في ارتفاع الطلب على الوحدات السكنية.

و - فترات التدهور الاقتصادي وتراجع معدل دخل الفرد: على الرغم من الطفرات التي حصلت في ارتفاع الدخل القومي إلا أن هناك فترات حصل فيها تدهور وتراجع في معدل دخل الفرد، نجمت عن الحروب وعن الحصار في الربع الأخير من القرن الماضي، وما رافق ذلك من تضخم استنزف موارد الإفراد وبشكل خاص موارد الطبقة الوسطى، وكاد أن يتوقف بناء المساكن. يتضح ذلك من انخفاض عدد إجازات البناء فبعد أن بلغت 240334 إجازة عام 1981 انخفضت إلى 1608 إجازة فقط عام 1996 أي الى (0.4٪) فبعد أن سجل 17.1 إجازة مقابل كل ألف من السكان وصل إلى 0.01 ٪ للعدد نفسه، أي إجازة واحدة لكل مائة ألف نسمة وهو ما سنشير اليه لاحقا. وعلى سبيل المثال انخفضت إجازات البناء في محافظة صلاح الدين من 3866 إجازة إلى 472 إجازة فقط بين عامي 1989 و1996 أي أصبحت الإجازات في السنة الأخيرة تساوي 12.2٪ مقارنة بالسنة الأولى(5).

ز- انخفاض الاستثمارات الحكومية الموجهة للإسكان: نتيجة انشغال البلاد في حروب متتالية وتحول الأموال لخدمتها، فان مصادر التمويل، كالمصرف العقاري وصندوق أموال القاصرين ومصرف الرهون ومخصصات الوزارات لإسكان موظفيها، أما أغلقت أو تباطأ أداؤها، كما تم إلغاء وزارة الإسكان والتعمير انذاك مما أدى إلى انخفاض الاستثمارات الموجهة للسكن.

ح - عوامل أخرى: من ذلك، التغير في استعمالات الأرض وإحلال المنشآت الاقتصادية من صناعية أو تجارية أو خدمية أو إدارية محل المباني السكنية، والى تدمير المدن الحدودية أو تهجير سكانها وسكان المستوطنات القريبة منها خلال الحروب، هذا إضافة إلى توقف أو تباطؤ إنتاج المواد الإنشائية كالسمنت والطابوق، وتوقف تجهيز الدولة للمواد الصحية المستوردة، إلى غير ذلك.

ثالثا: المعالجات السابقة:

حصلت في العراق اتجاهات متميزة في كثير من مراحل نموه واتخذت سياسات وخططاً لمعالجة مشكلة السكن، لكن هذه الاتجاهات لم تتواصل كما أنها لم تتحرك نحو التطوير ومتابعة التغيرات الإقليمية والدولية في هذا المجال، وحتى تلك الاتجاهات لم تستمر على وتيرة واحدة وأعيق العمل في نشاطها في مراحل وأوقات أو في سنوات تالية، كما سبقت الإشارة، ولعل من بين أهم تلك الاتجاهات:

أ- توفير الأراضي السكنية: اتخذت في هذا المجال الأساليب الآتية:

1- توزيع الأراضي بنطاق واسع: قامت الدولة بتوزيع الأراضي بنطاق واسع اما بأسعار رمزية أو بأسعار مناسبة، وجرى ذلك في جميع المحافظات، وهو ما ساعد على توسيع المدن وامتدادها بعيدا عن مراكزها.

2- قيام جمعيات تعاونية لإسكان الموظفين وأخرى لعموم المواطنين: قامت هذه الجمعيات بتوزيع الأراضي على منتسبيها من الأراضي التي تشتريها من القطاع الخاص باسعار مناسبة في ضواحي المدن

بعد تغيير جنسها من أراضي زراعية إلى أراضي سكنية، ساعد في ذلك ما جرى من توسع في حدود أمانة بغداد ومراكز المحافظات الأخرى.

3- قامت الدولة بتوفير الأرض لطالبيها من المواطنين وحسب مسقط الرأس، لتشجيع ثبات السكان في مواطنهم الاصلية وتيسير بناء الوحدات السكنية.

ب- توفير الأموال للبناء: قامت الدولة بتسليف المواطنين القروض عبر منافذ عديدة وبفوائد بسيطة ويأتي على رأس ذلك المصرف العقاري الذي وفر الأموال للمواطنين بقروض ميسرة، وصندوق أموال القاصرين ومصرف الرهون الملغى. كما أسهمت بعض من الدوائر الحكومية بتوفير القروض لموظفيها، فضلا عن وجود أشخاص أو مؤسسات خاصة تقرض بفوائد عالية نسبيا.

ج- بناء المجمعات السكنية:

قامت العديد من المؤسسات الإنتاجية والخدمية ببناء المجمعات السكنية للعاملين فيها ولعل من أهمها، مؤسسة السكك الحديد في محطاتها المنتشرة على طول خطوطها، وإدارة الموانئ في محافظة البصرة ومنشآت صناعة النسيج والسكر والاسمنت والنفط والصناعات الهندسية وغيرها في العديد من المدن.

وتجدر الإشارة إلى أن أهم تطور لبناء الوحدات السكنية بشكل عمارات جرى عندما تبنت وزارة الإسكان في بداية السبعينيات بناء مشاريع سكنية متكاملة وتوزيعها بأقساط مريحة يصل مداها إلى 20 عاما، على موظفي الدولة وعموم المواطنين. ومن بين منجزاتها المجمعات السكنية في شارع حيفا والسيدية وزيونة في بغداد، وعمارات سكنية في محافظات الموصل والبصرة وصلاح الدين وواسط وغيرها، ووفرت لها بعض الخدمات من شوارع معبدة ومدارس وأسواق وملاعب إلى غير ذلك.

رابعا: القطاع الخاص وبناء المساكن: ساهم القطاع الخاص مساهمة كبيرة في إنشاء الوحدات السكنية، ومع أن السكن حاجة أساسية للعائلة، فان القطاع الخاص أيضا بنى الوحدات السكنية باعتبارها استثمارا لأمواله (6) وبخاصة لأولئك الذين لا خبرة لديهم للاستثمار في الصناعة أو القطاعات الإنتاجية الأخرى من التي فيها هامش من المخاطرة غير المحسوبة، أو كونها لا تجلب الربح السريع. وهذا ما دفع إلى بناء الوحدات السكنية كالدور والعمارات السكنية، مع إن هذا البناء لا يضاهي ما هو عليه في البلدان المتقدمة أو في البلدان المجاورة كسوريا والأردن أو دول الخليج، ويرجع ذلك للسياسات الاقتصادية التي انتهجها العراق، وهي متذبذبة بين الاتجاهات الاشتراكية والرأسمالية. حتى إنها حددت في بعض السنين استثمار رؤوس الأموال للشركات بما لا يزيد عن 250 ألف دينار أو أقل من ذلك في أحيان أخرى (7) والى اتجاهات تأميم الشركات الكبيرة، وهذا لا يشجع على قيام شركات رأسمالية تأخذ على عاتقها بناء مجمعات سكنية متكاملة الخدمات، كما لم تتمكن الدولة من انجاز المتطلبات التي توفر حاجة السكان إلى الوحدات السكنية. ومع ذلك يبدو وضوح الدور الذي لعبه القطاع الخاص من عدد إجازات البناء المرخص بها لبناء المساكن مستفيدا من الأراضي التي وفرتها الدولة ومن توسع الحدود الإدارية لأمانة بغداد وللمدن الأخرى حسب التصاميم الأساسية، كما كان لتأميم النفط

وارتفاع الدخل القومي ومعدل دخل الفرد اثر في التوجه نحو البناء ولذا ارتفعت إجازات البناء من حوالي 30 ألف إجازة عام 1975 إلى 131 ألف ثم إلى 240.1 ألف عامي 1981 و 1982 على التوالي.

اتساع الهوة بين إجازات البناء ونمو السكان:

إن احد مظاهر عمق أزمة السكن هو التراجع الكبير لعدد إجازات البناء للوحدات السكنية، فبعد أن اقتربت من ربع مليون عام 1981 أخذت بالتراجع حتى وصلت إلى 1607 إجازة فقط عام 1996 أي هبطت إلى ما دون ما كانت عليه عام 1964 (8) وبذلك هبط نصيب كل الف من السكان من 17.55 إجازة إلى 0.01 لكل ألف من السكان، أو بعبارة أوضح إجازة واحدة لكل 100 ألف من السكان (لاحظ الجدول التالي).

جدول رقم (1)

معدل إجازات البناء محسوبة لكل ألف من السكان للفترة 1981 – 2005

السنة	معدل الإجازات لكل الف من السكان
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]

المصدر: الجداول (2، 3،4) **من البحث.**

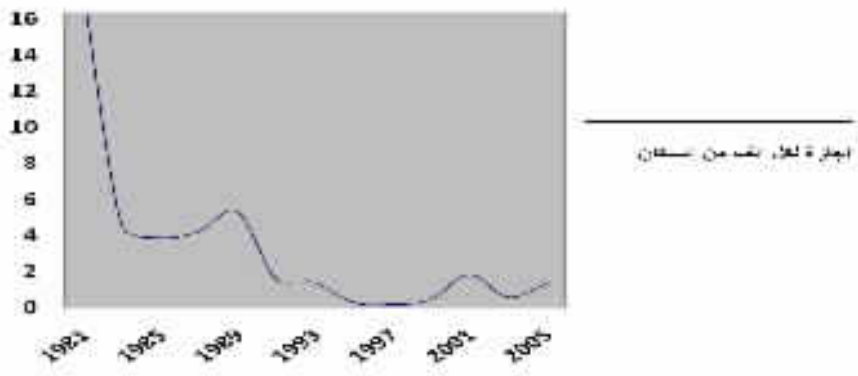

شكل (1)

عدد إجازات البناء لكل ألف من السكان في العراق

وتمثل إجازات البناء عام 1981 والبالغة 240334 إجازة أعلى رقم للإجازات حتى الان وقد عجزت جميع السنوات اللاحقة من الوصول إلى هذا الرقم من جديد. لاحظ الشكل رقم (1).

إن التراجع الكبير للبناء وبشكل خاص أثناء الحصار الاقتصادي على العراق جعل الكثير من المواطنين يهدمون بيوتهم ليبيعوا قضبان الحديد المثبتة للسقوف ليوفروا بثمنها الحاجات الأساسية من الغذاء والملابس. وهذا ما فاقم أزمة السكن وتراجع بناء المساكن وتردى نمط البناء عامة وأصبحت حياة أعداد كبيرة من المواطنين لا تطاق بعد انتشار البناء بالكتل الكونكريتية وتراجع خدمات الكهرباء، وأصبحت البيوت وكأنها كتل ملتهبة عند تعرضها لأشعة الشمس في صيف العراق الجاف والشديد الحرارة، وهي لا تصلح ولا تتناسب مع متطلبات العيش الاعتيادية.

إجازات البناء كمؤشر لتقدير الحاجة الفعلية لوحدات السكن:

رافق التطور الاقتصادي في البلاد زيادة مستمرة في إجازات البناء ورغم تذبذبها لعوامل محلية كارتباط البناء بفتح قروض المصرف العقاري إلا أنها كانت تتزايد باستمرار، وتسارعت بعد نجاح تأميم النفط وارتفاع الدخل القومي الذي انعكس على معدل دخل الفرد، إلا أن هذا الاتجاه تغير بسبب الحروب. ولذا يمكن أن نحدد فترات التغير كما يأتي:

الفترة بين 1981-- 1990: وهي التي رافقت الحرب مع إيران، ويتضح من الجدول رقم 2

إن زخم ارتفاع عدد إجازات البناء خلال عقد السبعينيات وصل إلى أعلى مدى له عام 1981، حين بلغ 240334 إجازة وهو أعلى رقم مطلق/ سنة حتى الان. ويعد أعلى رقم نسبي مقارنة بعدد السكان فقد وصل المعدل إلى 17.5 إجازة لكل ألف نسمة. ثم اخذ تأثير الحرب مع إيران يظهر في الاقتصاد العراقي، فتراجع عدد إجازات البناء بشكل سريع إذ نقص عددها إلى 98.785 إجازة عام 1982 أي إلى اقل من النصف عن السنة السابقة وبمعدل 7

جدول (2)

إجازات البناء للمساكن وتقدير المطلوب منها

السنة	إجازات البناء	عدد بالألف	السكان معدة لكل نسمة	نسب تقدير الإجازات المطلوبة
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

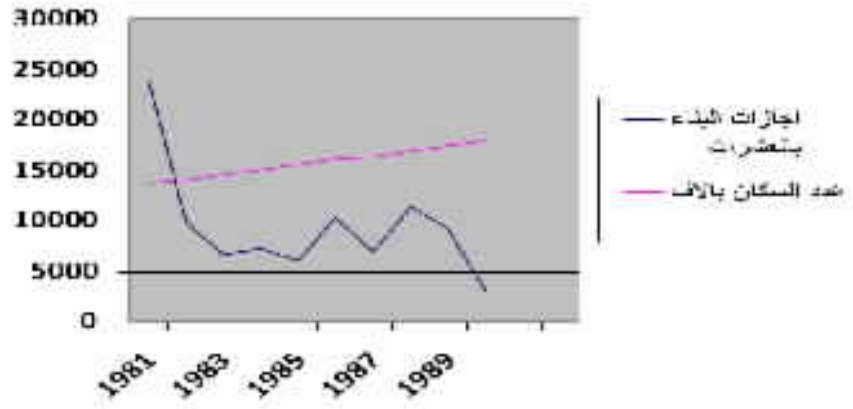

شكل (2)
تناقص معدل إجازات البناء خلال الفترة 1981-1990

إجازات لكل ألف من السكان.

واستمر الهبوط إلى حوالي الربع عام 1985 واقل من الثمن (8/1) عام 1990 أي إلى 31171 إجازة وأصبح المعدل 1.74 إجازة مقابل كل ألف من السكان وهو ما يعكسه الشكل رقم (2).

لقد مثل ذلك فترة الحرب مع إيران وما جرته من تقلص خدمات البناء وتراجعها، على الرغم من توزيع الأراضي بشكل متواصل وفي جميع محافظات العراق على العسكريين وضحايا الحرب وغيرهم.

الفترة بين 1991-2000: وهي الفترة التي رافقت الحصار الاقتصادي على العراق بعد احتلال الكويت، وكان تأثير الحصار اشد وطأة على عموم السكان. ولعل إجازات البناء تعطي صورة عن واقع السكن والذي يمثل مظهرا لما حل بشعب العراق وهو ما يعكسه الجدول رقم (3). يظهر الجدول اعلاه استمرار تراجع عدد إجازات البناء فقد انحدر إلى 29.973 إجازة عام 1991 وبالتالي هبط معدل الإجازات لكل ألف من السكان إلى 1.63 إجازة، أي اقل من المعدلات طيلة سنوات العقد الذي سبقه. واستمر التراجع مع زيادة أزمة الحصار التي بلغت أشدها عام 1996 حتى وصلت تلك الإجازات لمجموع المحافظات إلى 1607 إجازة وبمعدل 0.01 لكل ألف نسمة أي إجازة واحدة لكل مائة ألف من السكان، كما سبقت الإشارة. وبذلك تزايد الفرق ما بين عدد الإجازات وما هو مطلوب منها وبالتالي حصل في هذه الفترة عجز مقداره 3.575.285 إجازة وهو اكبر مما حصل في سنوات الحرب مع إيران. ويعود ذلك إلى أمرين رئيسيين:

– الأول زيادة عدد السكان من 18 مليون إلى أكثر من 24 مليون نسمة.

– والثاني تراجع إجازات البناء السكني الذي نحن بصدده نتيجة التدهور الاقتصادي.

ولقد اشرنا إلى أن هذه الفترة شهدت تهديم بناء كثير من الدور لبيع قضبان الحديد الداخلة في بنائها لتوفير لقمة العيش لأصحابها في وقت تصاعد بناء القصور

والفيلات الفارهة للطبقة المتنفذة.

إجازات البناء للفترة 2001-2005 : وهي فترة دخول القوات الأجنبية للعراق وتغير النظام والتصادم الكبير بين مصالح الطبقات والفئات المختلفة، الذي وصل إلى درجة إراقة الدماء، ساعد في ذلك التدخلات الإقليمية والدولية كما هو معروف، لذا فما ان كاد يتعافى البناء وأخذت إجازات البناء بالارتفاع إلى أرقام متواضعة، حتى جاء احتلال العراق ودمر الكثير من البيوت وحصل التهجير والتدمير وضعفت سيطرة الدولة، مما عمل على تراجع إجازات البناء وساد البناء العشوائي في كثير من مناطق العراق واتخذت الكثير من دوائر ومؤسسات الدولة سكنا للعوائل.

ولو اعتبرنا الزيادة في البناء تقابل النقص في تسجيل الإجازات واعتمدنا إجازات البناء كمؤشر نلاحظ أن عددها وصل عام 2002 إلى 77.507 إجازة وبمعدل 3.3 إجازة لكل ألف من السكان، ثم هبطت إلى 15.353 عام 2003 وخلال الخمس سنوات الأخيرة كان يتطلب منح 1.890.750 إجازة، في حين أن مجموعها الكلي للسنوات الخمس كان ٢١٢,٤٧٧ إجازة أي إن الفرق تجاوز المليون والنصف وهو ما يشير اليه جدول رقم 4.

الحاجة الحقيقية للوحدات السكنية في العراق:

باعتماد إجازات البناء معيارا لحاجة البلد للبناء السكني واعتبار معدل الإجازات لسنة 1981 سنة أساساً للدراسة كونها تمثل الحاجة الحقيقية لمجتمع بمستوى اقتصادي، بلغ فيه معدل دخل الفرد (653) ديناراً (9) مع انه اقل من معدله في العام الذي سبق الحرب وهو 1157 دينارا. وعموما يعد معدل دخل مناسب في حينها بين الدول النامية وقد جاء بعد تأميم النفط وزيادة موارده، وصاحب ذلك الخطة القومية التي عرفت في وقتها بـ"الانفجارية" حيث كان

السنة	إجازات السكن	عدد السكان بالآلاف	إجازة لكل ألف نسمة	تغير الإجازات المطلوبة
١٩٩١	٢٩٩٧٣	١٨٤١٩	١,٦٢	٣٣٣٤٠٣
١٩٩٢	٢٨٧٧٠	١٨٩٤٥	١,٥٢	٣٣٢٥٠٤
١٩٩٣	٢٧٥٦٠	١٩٤٧٨	١,٤٢	٣٤١٨٣٨
١٩٩٤	١٨٣٦١	٢٠٠٧٠	٠,٩٢	٣٥٢٢٢٨
١٩٩٥	١٦٩٨	٢٠٥٣٦	٠,٣١	٣٦٠٤٠٦
١٩٩٦	١٦٠٧	٢١٠٢٤	٠,٠٢	٣٧٠٧٢٦
١٩٩٧	٤٤٩٥	٢٢٠٤٩	٠,٢١	٣٨٩٠٧
١٩٩٨	٦٦٤٤	٢٢٧٠٢	٠,٢٩	٣٩٨٤٢٠
١٩٩٩	١٦٠٧٤	٢٣٣٨٢	٠,٤٧	٤١٠٣٥٤
٢٠٠٠	١٦٨٣٢	٢٤٠٨٦	٠,٦٤	٤٢٢٠٩
المجموع التراكمي	١٤٠٨٠٨٦	مجموع ٢٤٠٨٦	المعدل ٠,٧٤	٣٨٦٠٩,٢٩٠

جدول (3)

إجازات البناء للمساكن للفترة1991-2000

جدول 4
إجازات البناء للمساكن وتقدير المطلوب منها
للفترة 2001 - 2005

السنة	إجازات البناء	السكان بالآلاف	إجازة لكل ألف نسمة	تقدير المطلوب منها
٢٠٠١	٤٥٨٨١	٢٤٨١٣	١,٨٥	٤٣٥٤٩٨
٢٠٠٢	٧٧٥٠٧	٢٥٥٦٥	٣,٠٣	٤٤٨٦٦٥
٢٠٠٣	١٥٣٥٣	٢٦٣٤٠	٠,٥٨	٤٦٢٢٦٧
٢٠٠٤	٣٦٤٠٢	٢٧١٣٩	١,٣٤	٤٧٦٢٨٩
٢٠٠٥	٣٧٣٢٤	٢٧٩٦٣	١,٣٤	٤٩٠٧٨٠
المجموع التراكمي	٢٢٢٤٧٧	٢٧٩٦٣	المعدل ١,٦٣	١٨٩٧٣٩٩

العراق جاذبا لمئات الآلاف من الأيادي العاملة العربية والمصرية بخاصة. وهذا ما جعل إجازات البناء للعام المذكور تمثل الطلب الواقعي إلى حد كبير.

لقد تجاوز الفرق في إجازات البناء بين 1981 و2005 ما مقداره 7.078.665 إجازة إي حوالي 7.1 مليون والذي يمكن اعتباره يمثل الحاجة الواقعية إلى الوحدات السكنية. وهو رقم يدعمه واقع الحروب والحصار والتدمير، كما أن هناك عوامل أخرى قد ترفع من الرقم المذكور، لعل منها التحول في استعمالات المساكن إلى نشاط تجاري أو إداري أو خدمي.

إن الحاجة الآن ليست بناء وحدات سكنية على النمط السائد أو القديم، وإنما هناك ضرورة لمجاراة أنماط البناء الجديدة لتلبي حاجات الإنسان المتزايدة وتجنبه المخاطر البيئية الجديدة، مما يجعل الرقم المذكور متواضعا لكون الحاجة إلى إعادة النظر في البناء السابق لوجود أعداد كبيرة من المساكن المبنية بمواد إنشائية بسيطة وهي تشغل أماكن مهمة من المدن فضلا عن السائد منها في الريف.

وإذا كان الرقم المذكور يمثل الطلب على الوحدات السكنية، فان الطلب على المرافق الأخرى كالأسواق والمخازن والمباني التجارية والصناعية، والدوائر الحكومية والمدارس والمعاهد ورياض الأطفال ومراكز الترفيه والرياضة وغيرها مما يتطلب من الدولة اخذ المبادرة وإيجاد التشريعات المناسبة لمعالجة مشكلات السكن، لجعل الحياة أفضل للمواطنين وكي تواكب التطورات الحضارية الجديدة بالتخطيط لبناء المجمعات السكنية المتكاملة الخدمات.

المتطلبات والمعالجات الممكنة: بعد إن تعرفنا على حجم المشكلة السكنية وعلى الطرق والأساليب التي اتبعت سابقا في المعالجة، ونتيجة للتغيرات الأساسية التي

حصلت على طبيعة النظام الاقتصادي والاجتماعي، فضلا عن أوضاع البلد الحالية، فان معالجة المشكلة ينبغي أن تأخذ بنظر الاعتبار ما يأتي:

1- الاتجاه نحو البناء العمودي في المدن الرئيسة وإيقاف توزيع الأراضي فيها لبناء البيوت الخاصة.

2- الاتجاه للبناء العمودي في مراكز المدن الأخرى وتوزيع الأراضي في أطرافها كونها لم تصل إلى مستوى اجتماعي يسمح لقاطنيها بالسكن في الشقق السكنية.

3- توزيع الأراضي في النواحي وتشجيع البناء العمودي بإعطاء امتيازات خاصة لهذا النوع من البناء.

4- توفير وتوزيع الأراضي على جمعيات الإسكان المحلية بحيث تكون قطعة الأرض مناسبة من حيث المساحة للبناء العمودي لعدد من الطوابق تحددها الجهات التخطيطية، وتتولى الجمعيات بناء الهياكل باعتماد القروض من المصرف العقاري وتوزيع الوحدات السكنية على أعضائها ويتولى الأعضاء الأعمال التكميلية واختيار تنظيم المساحات الداخلية للشقق حسب الرغبة والحاجة والقدرة المالية، على أن لا تقل مساحة الشقة الواحدة عن 100 متر مربع، وحسب تقدير المهندسين وعلماء الاجتماع.

5- تحدد الأمانة أو البلديات أو الجهة الحكومية عدد الطوابق وعدد الشقق في العمارة الواحدة والمساحات الفارغة بين العمارات، بما يضمن السكن المريح والقدرة على توفير الخدمات اللازمة.

6- تقوم الجهات التخطيطية بالتصميم الأساسي لمجمعات الجمعيات السكنية وتحديد مناطق الخدمات. وتتولى الجهات ذات العلاقة بناء الهياكل الارتكازية بتوفير الطاقة الكهربائية والماء، والمجاري وتعبيد الطرق والشوارع وإنارتها، وغير ذلك من متطلبات المجمعات السكنية.

7- وقف إهدار الأراضي بوقف التوزيع العشوائي الذي يحقق المصالح الذاتية للبعض على حساب المجتمع.

8- توفير الأراضي للجمعيات والشركات التي تستثمر بقطاع الإسكان وبأسعار مناسبة وخفض الضرائب عليها وتوفير الأموال للاستثمار وجعلها تحت المراقبة لتحديد أسعار الشقق والوحدات السكنية لتتناسب مع مداخيل الإفراد.

9- إسهام وزارة الإسكان في الاستثمار في مجمعات سكنية وهي قادرة بإمكاناتها وخبرتها، على أن تشكل أرضية للمنافسة مع القطاع الخاص، لاستقرار الأسعار وجعل مبانيها في مصلحة موظفي الدولة والمجمعات السكنية لعموم المواطنين وتجهيز المؤسسات المعنية بالخدمات المدنية، وقد سبق لهذه الوزارة إن انجزت بناء مجمعات سكنية ناجحة.

10- تيسير الإقراض من المصرف العقاري وتقليل الروتين لحفظ كرامة المواطنين وتخفيف المشاق التي يعانون منها.

11- تشجيع قيام شركات وطنية للاستثمار في بناء الوحدات السكنية ومساعدتها في توفير الأموال اللازمة لتطوير أعمالها.

12- الاستفادة من خبرة المهندسين العراقيين في بناء المجمعات السكنية والإسكان العمودي لمعرفتهم بخصائص البيئة العراقية، وفي تقييم الأبنية السابقة لتطويرها بما يناسب التطورات الإنشائية الحديثة.

13- اعتماد البناء الجاهز والجدران مسبقة الصب فهي اقدر على الإسراع بتوفير خدمات السكن للمواطنين.

abbas1934a@yahoo.com *

الهوامش

(1) شريف يوسف، تاريخ فن العمارة في العراق في مختلف العصور، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1982 ص. 38

(2) محمد علي مصطفى وسعدي الرويشدي، مراحل تطور المواد الإنشائية في العراق القديم، المتحف العراقي، بحث مسحوب بالرونيو، 1972 ص1

(3) شريف يوسف، تاريخ فن العمارة..، مصدر سابق ص 1.

(4) الجهاز المركزي للاحصاء، نتائج التعداد العام للسكان لسنة 1987 لكافة سكان القطر، بغداد 1988، مسحوب بالرونيو، بدلالة الجدول رقم 1 ص10.

(5) سجلات دوائر الإحصاء في محافظة صلاح الدين (الاقضية) غير منشورة.

(6) صالح فليح إلهيتي، الوظيفة السكنية لمدينة بغداد الكبرى، مصدر سابق ص109

(7) د. عباس التميمي، النمو الصناعي في محافظتي البصرة ونينوى، منشورات مركز دراسات الخليج العربي البصرة ١٩٨٢

(8) صالح فليح حسن الهيتي، مصدر سابق جدول 11 ص99.

(9) الجهاز المركزي للإحصاء، المجموعة الإحصائية لسنة 1983 جدول 5/5 ص1

حلبجه.. ضحية سلاح كيمياوي عراقي قاتل

جريمة إبادة جماعية لم يعترف بها المجتمع الدولي لليوم.. لماذا؟

د. كاظم المقدادي

الدكتور كاظم المقدادي أكاديمي وباحث بيئي عراقي مقيم في السويد، حامل شهادة دكتوراه PhDفي العلوم الطبية - تخصص طب أطفال من بلغاريا. عمل طبيباً وباحثاً في كل من العراق وبلغاريا وليبيا والسويد. مارس التدريس كأستاذ مساعد في إحدى الكليات الطبية البلغارية. باحث بطب وصحة الأمومة والطفولة العراقية، وبالتلوث الإشعاعي والأضرار الصحية والبيئية لليورانيوم المنضب، وله عدة كتب والعشرات من الدراسات والبحوث، والمقالات والتقارير العلمية المنشورة في العديد من المجلات العراقية والعربية وعلى شبكة الانترنيت.. والى جانب ذلك ينشر دوريا في مجلة "البيئة والتنمية" ما يستجد في البيئة والتلوث البيئي في العراق.. والدكتور المقدادي يبحث هنا في مستجدات التلوث الإشعاعي في العراق وما رافقه من آثار عديدة من بينها تزايد الإصابات السرطانية.

تمهيد

في السادس عشر من اذار 2012 مرت الذكرى الرابعة والعشرون للجريمة النكراء، التي إرتكبتها الأجهزة القمعية لنظام البعث الفاشي بحق سكان مدينة حلبجة الكردية العراقية، حيث تعرضت في ذلك اليوم المشؤوم من عام 1988- آخر أعوام الحرب العراقية - الإيرانية- الى قصف بالسلاح الكيمياوي من قبل الطائرات العراقية، فمات على الفور أكثر من ٥ آلاف مواطن مدني إختناقاً بتلك الغازات، معظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ،

وأصيب نحو 20 ألفاً آخرين بإصابات مختلفة، مات المئات منهم لاحقاً. فكانت المجزرة غير المبررة ثاني أبشع جرائم الإبادة الجماعية، بعد جريمة الأنفال، التي إقترفها النظام السابق. ولعل الأبشع، أنها نفذت من قبل القوات العسكرية للبلد، بأمر من حكومته، ضد مواطني البلد، وفي مقدمتهم الأطفال والنساء، وهذا ما لم يحصل في أي بلد آخر في العالم غير العراق، الذي إبتلى شعبه بنظام دكتاتوري بشع، بزي هتلر وموسوليني وغيرهما من عتاة النازية والفاشية، بما إقترفته أجهزته القمعية الآثمة من جرائم يندى لها الجبين!

قبل عام أدان مجلس النواب العراقي الجريمة وأنصف ضحاياها من خلال قراره الذي اصدره في جلسته المرقمة 44 في2011/3/17 بالاستناد الى قرار المحكمة الجنائية العراقية العليا بتاريخ 2010/2/28، وعدّ ان ما تعرض له اهالي مدينة حلبجة بتاريخ 1988/3/16 هو جريمة ابادة جماعية بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ.

وفي أوربا، يستضيف البرلمان الأوروبي تحت قبته كل عام مؤتمراً يشارك فيه نواب ومدافعون عن حقوق الإنسان وساسة وخبراء وضحايا ناجون، كمحاولة سنوية لحمل دول الغرب على الإعتراف الرسمي بمجزرة حلبجة على أنها إبادة جماعية وجريمة ضد الإنسانية. وتحمل الذكرى في طياتها تفاصيل مروعة لمقتل الآلاف خلال دقائق فقط تحت القصف الكيمياوي. وفي هذه المرة دعا المؤتمر لجان ومجالس حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة والإتحاد الأوروبي إلى الإسراع بإرسال بعثات تقصي الحقائق إلى المنطقة. ويرى مراقبون أن التوجه إلى ملاحقة شركات اوربية قضائيا بتهمة الاشتراك بقصف حلبجة عبر تزويد صدام حسين بالسلاح الكيمياوي، قد تؤدي إلى فتح ملفات تحقيقات شائكة إزاء تورط الحكومات الأوروبية التي حملها المؤتمر صراحة مسؤوليتها المباشرة أو غير المباشرة عن المجزرة (1).

في هذه الورقة نسلط الضوء على بعض ما عُرف عن طبيعة السلاح الذي إستخدم ضد حلبجة وتداعياته.

السلاح الكيمياوي وإستخداماته العراقية

تصنف أسلحة الدمار الشامل الى 3 أنواع: نووية وكيمياوية وجرثومية / بايولوجية، وتتميز بشدة فتكها ودمارها للإنسان والحيوان والنبات وبقية عناصر البيئة من هواء وماء وتربة ومكونات بيئة أخرى.

وفقاً للبرفسور حسين الشهرستاني فان الأسلحة الكيمياوية هي اول انواع أسلحة الابادة الجماعية التي انتجها النظام المقبور (2)، مبتدئاً إياه بشكل حثيث بعد منتصف عقد السبعينيات – بحسب د.علي حنوش– مع بداية تكوين "مؤسسة إبن الهيثم للأبحاث والدراسات"، في التوجه لإجراء الأبحاث والدراسات لإنتاج وتجريب الغازات السامة، القديم منها أو المستحدث. وكانت الشواهد الأولى لإستخدامات المركبات السمية الخطرة، أثناء المراحل الأولى من حقبة الحرب مع إيران، وفي الإشتباكات الحامية في (هور الحويزة) عام 1983، وفي بعض المعارك داخل الأراضي الإيرانية. وبينت المعطيات أنه كان ثمة 15 مركزاً مكرسة لانتاج وتطوير الغازات السامة للأهداف العسكرية، وكانت تلك المراكز موزعة على مواقع عديدة من العراق.

وأشارت التقارير الى ان المؤسسات البحثية العراقية قد طورت إنتاج مركبات أخرى، ما عدا غاز الخردل، مثل: سيانيد الهايدروجين، أو غاز الكلورين، وأنتجت مركبات أكثر فاعلية في سميتها من تلك الأنواع القديمة، مثل غازات سارين وتابون (وهي غازات لا تترك أثراً عقب إستعمالها) وغاز الأعصاب. كما أنتج غاز شديد الخطر أطلق عليه إسم VXA، الى جانب إنتاج سائل شديد السمية، أطلق عليه إسم Toxic B، والمتميز بقدراته على التدمير الشامل والسريع. بالإضافة الى غازات الدم، مثل حامض الهايدروسيانيك، والغازات الخانقة، كالفوسفين، والغازات المقيتة، مثل آدمسيت، والمسيلة للدموع، كالكلور وأسيتوفيتون، أو غازات الهلوسة، مثل LSD، وهي غازات قاتلة أو مزعجة أو تشل القدرة. وتستمر هذه الغازات في البيئة لمدة زمنية معينة. فغازات الأعصاب الكاوية تستمر من 12 ساعة الى عدة أيام. والغازات الأخرى غير المستمرة، تبقى من دقائق عدة الى بضع ساعات، وتؤثر في لون النبات والمزروعات، وتسبب بموت كثير من الحيوانات، ويعد ذلك من علاماتها. وقد تمكن النظام السابق خلال الثمانينيات من إنشاء صناعة كيمياوية متكاملة، ونجح في إنتاج الرؤوس الحربية المخصصة لحمل الذخائر الكيمياوية وتركيبها على وسائل إيصال متنوعة، اشتملت على صواريخ أرض – أرض الباليستية قصيرة المدى، ومتوسطة المدى. ونجح في إنتاج ذخائر كيمياوية مخصصة لإطلاق مدافع الميدان والهاون وراجمات الصواريخ الميدانية، الى جانب الكيمياوية التي تلقى من الجو. وقدرت مصادر الدفاع الغربية بان الترسانة الكيمياوية العراقية تتكون مما يقرب من 30 ألف طن من المواد الغازية والسائلة السامة، التي دمرت كلها بإشراف فرق التفتيش الدولية (3).

بالإضافة الى حلبجة، قصفت قوات النظام العراقي السابق العديد من المناطق الأخرى بالسلاح الكيمياوي. الصحفي العراقي جاسم الولائي سجل القرى والقصبات الكردية في كردستان العراق التي تعرضت للقصف بالسلاح الكيمياوي منذ أواسط نيسان 1987 وحتى أواسط تشرين أول 1988، بحسب تواريخ القصف (4). وما يزال العديد من القنابل الكيمياوية العراقية غير المنفجرة تنتشر الى اليوم في أراضي كردستان العراق، حيث اعلنت جمعية ضحايا القصف الكيمياوي لمدينة حلبجة، أن فرق البحث الخاصة بها عثرت على قنابل غير منفلقة في خمسة دور في حلبجة. وقال رئيس الجمعية لقمان عبدالقادر إنه "بعد قيام منظمة حماية بيئة حلبجة بتشكيل لجنة بالتعاون مع جمعيتنا وقائممقامية حلبجة والأسايش للبحث عن القنابل غير المنفلقة، جرت عمليات بحث عديدة، وعثرت على 4 قنابل داخل حدود مدينة حلبجة، والخامسة في قصبة خورمال(5).

وكتب كارل فيك، من الـ"واشنطن بوست"، عقب زيارته لكردستان العراق، يقول: "طبقا لتقارير بعض المؤرخين، ومنظمات حقوق الانسان، فان القوات الجوية العراقية ألقت 13 حاوية معبأة بالغاز على قرية قوبتبه مساء يوم 30 آيار 1988 ضمن عملية "الأنفال" التي خصصت لمعاقبة المسلحين الاكراد واسرهم بسبب وقوفهم في وجه السلطات العراقية. ويقول الاكراد ان تلك العملية اسفرت عن مقتل ما لا يقل عن 180 ألف شخص في القرى الكردية"(6)..

ومؤخراً كشف قائممقام قضاء حلبجة عن

ان اكثر من 500 شركة اجنبية ساعدت النظام السابق في الحصول على الاسلحة الكيمياوية. واوضح كوران ادهم بان فريقاً من المحامين زار قضاء حلبجة والتقى بذوي ضحايا القصف الكيمياوي للمدينة، وابلغ الاهالي انه جمع معلومات عن عدد من الشركات التي ساعدت النظام السابق للحصول على الاسلحة الكمياوية، ويسعى الفريق لرفع دعوى قضائية ضد تلك الشركات وأضاف: "بحسب المعلومات التي توصل اليها الفريق المذكور، فان 537 شركة اجنبية قامت ببيع اسلحة للنظام العراقي السابق، بينها اسلحة كيمياوية ومحظورة"(7). وكل العالم يعرف ذلك جيداً، بل ان النظام العراقي انتج هذه الأسلحة المحرمة دولياً بمساعدة شركات اوروبية وأميركية. وعندما لم يجد النظام العراقي أية ردة فعل عالمية لاستخدامه أسلحة الابادة الجماعية في الحرب العراقية ـ الايرانية، تمادى في استخدامها ضد الشعب العراقي وفي عمليات اطلق عليها اسم (الانفال) لابادة الأكراد العراقيين في كردستان العراق. وأشهر استخدام لهذه الأسلحة عندما قصف مدينة حلبجة الكردية العراقية(8).

مركبات كيميائية ذات سمية خاصة واٰثار خطيرة

تبدو نتائج إستخدامات وتجارب وتدمير الأسلحة الكيمياوية والآثار المترتبة عن ذلك بالمعيار البيئي أكثر تعقيداً وذات أبعاد وتأثيرات طويلة الأمد، خصوصاً إذا أخذت بنظر الإعتبار النتائج التي توصل اليها فريق البحث العلمي البريطاني في أواسط عام 1993 بعد تحليل تربة المناطق التي تعرضت للقصف بغاز الخردل في حلبجة، والتي عززت نتائج سابقة لفريق علمي أمريكي. فالغازات السامة المستخدمة للأغراض العسكرية تتميز (بخلاف غالبية المركبات السامة المكرسة لمكافحة الحشرات والفطريات والبكتريا وغيرها، والتي أنتج العالم الغربي منها أكثر من 1500 نوع منذ عام 1948 وحتى اليوم) بان لغالبيتها تركيباً عضوياً سريع التحلل، وكذلك شدة فاعليتها وقدرتها على الإحتفاظ بحيويتها لفترة أطول بكثير من مركبات المبيدات. وهاتان الخاصيتان لهما أبعاد خطيرة ومتأخرة على جميع مكونات البيئة الإجتماعية والطبيعية.

إقتراناً بهذا، تمثل مقابر حلبجة الجماعية مشكلة من نوع آخر. في وصف هذه المشكلة، قال الدكتور ياسين كريم أمين، مدير مختبرات الطب الشرعي في أربيل (في آخر مرة حاولنا حفر أحدى المقابر الجماعية في حلبجة في العام الماضي، توفي اثنان من العمال ونقل آخرون الى المستشفى بسبب تعرضهم لغاز الخردل الموجود داخل القبور). وفي مؤتمر عقد في لندن مؤخراً، المعرض والمؤتمر الدولي حول المقابر الجماعية، الذي نظمته وزارة حقوق الإنسان العراقية لمناقشة وتسليط الضوء على انتهاكات حقوق الإنسان التي ارتكبتها حكومة صدام حسين، تم الإعلان بأن شركة Secure Bio قد قدمت خطة لنبش القبور وإزالة التلوث من المواقع في حلبجة. ومن المقرر أن ترسل الخطة إلى برلمان إقليم كردستان للموافقة عليها قريبا. وقال (دي بريتون جوردون)، الرئيس التنفيذي للشركة، إنه عندما زار حلبجة في تشرين الثاني 2011، نفذت شركته، وهي شركة متخصصة في ما يعرف بـ (CBRNالمواد الكيميائية والبيولوجية والإشعاعية والنووية)

وبالتدريب والاستشارات، عملية تقصي (لآثار غاز الخردل)، تبين أنه "تم دفن الناس في مقابر جماعية بعد وقت قصير من الهجوم الكيميائي، نتيجة لذلك، هناك خطر تلوث من بقايا المواد الكيمائية. لذا فإنه من الخطورة بمكان إخراج هذه الجثث بدون استخدام مواد عسكرية واقية من المواد الكيميائية وبدون وجود خبرات وعتاد ومعدات وتدريب" وأضاف: (إذا سرنا قدما في مشروعنا، فإننا سنضمن ألا يقتل أو يصاب أي شخص آخر نتيجة عملية الإبادة الجماعية في حلبجة). وأحالت الشركة بالفعل خططا لحكومة كردستان تتضمن كيفية انتشال الجثث بشكل آمن من المقابر الجماعية في حلبجة، فضلا عن خطة شاملة حول كيفية التعرف على الجثث من خلال أخذ عينات الحمض النووي من الموقع من دون أن ينتشر التلوث (9).

من هنا، تعتبر مجزرة حلبجه ليست فقط جريمة شنيعة بحق البشر، بل وتمثل كارثة تلوث بيئي شامل – بحسب الباحث جمال حميد–، من جامعة ساوث بانك البريطانية، نظراً لما أحدثته من تغيير في الصفات الطبيعية لعناصر البيئة من الماء والهواء والتربة، إضافة الى قتل الإنسان والحيوان وتدمير المزارع وإلحاق الضرر بالنباتات. ويقول أنه بعد كارثة حلبجة، وما سبقها من كوارث هيروشيما وناكازاكي، استوجب إعادة تصنيف الكوارث البيئية الى كوارث بيئية تحدث نتيجة الفعاليات الصناعية للإنسان، وكوارث بيئية نتيجة الفعاليات العسكرية للإنسان. ووفق هذا التصنيف تعتبر كارثة حلبجة ثاني أكبر كارثة بيئية بعد هيروشيما وناكازاكي، حيث تم إستخدام أسلحة التدمير الشامل من غازات سامة في حلبجة وقنبلة نووية في هيروشيما وناكازاكي ضد السكان المدنيين، وقتل أعداد كبيرة من البشر. وهي تتميز عن كارثة هيروشيما وناكازاكي من حيث ان الفعاليات العسكرية وإستخدام أسلحة الدمار الشامل كانت من قبل سلطات نفس البلد ضد مواطنيها.

شهادات حية والماساة متواصلة

جريمة حلبجة سببت كارثة إنسانية بشعة لمواطنين مدنيين أبرياء. يذكر تقرير محدود التوزيع عن حلبجة لوكالة الاستخبارات العسكرية الأمريكية، اقتطفت أجزاء منه مجلة الفيليج فويس Village Voice الأمريكية المعروفة في عددها الصادر يوم 1 أيار 2002: "معظم الضحايا في حلبجة تسبب بموتهم محلول (كلوريد السيانوجين).. وأن جميع الضحايا والمصابين الأكراد القادمين من حلبجة ظهرت عليهم أعراض الإصابة بمحلول (كلوريد السيانوجين)".

يتذكر أحد الناجين من كارثة حلبجة لحظات الهجوم الجوي الكيمياوي بان كل شيء تم بسرعة فائقة. أغارت الطائرات لدقائق، فمات من مات على الفور، وإستغرق آخرون، وهو منهم، في إغماءة، ليستفيقوا بعدها غير مدركين لما حدث، كما لو ان كوابيس ليلية داهمتهم. وقال آخر كان ما يزال – بعد 3 سنوات– من الحادث يتعرض لنوبات إضطراب عصبي وعقلي: " كانت رائحة الكيمياوي طيبة، تشبه رائحة التفاح. كان يخرج من فمي وأنفي سائل يشبه الماء" (10). ولم ينس اسماعيل قادر الى اليوم ذلك اليوم الأسود، حيث وجد عددا كبيرا من الجثث مسجاة على الارض في قوبته الى درجة انه لم يتعرف بادئ الأمر على جثة زوجته هاجر وجثث بناته امينة وآسكا

وكوتشا، وابنائه الثلاثة: سادر وجارا وسرباست. ولم يلحظ ايضا وجود جثة طفلته هوزين، 18 شهرا، التي وضعت مع الجثث الاخرى في باحة منزل احد الجيران. وكلّما نظر كامل أحمد الى اطفاله، يغرق في حزنٍ عميق، وتنتابه مخاوف من أن يفارق الحياة ويلاقي أطفاله المصير نفسه، عندما فقد أبويه وهو صغير. كامل (38 عاما)، هو أحد مواطني المدينة حينها كان يبلغ من العمر 15 عاما، ومن بين 500 مصاب آخرين بقوا على قيد الحياة في كردستان العراق، يعاني كامل من تأثيرات تلك المواد السامة، إذ فقد 84٪ من قدرة رئتيه على العمل، فضلا عن ضعف حادّ في الرؤية يرافقه منذ ذلك الوقت. هذا الشاب هو الشخص الوحيد الناجي من عائلته المكونة من تسعة أفراد. ففي 16 آذار 1988، خسر كامل أبويه وست أخوات وأخا واحدا كانوا من ضمن 5 آلاف ضحية أخرى لغازات الخردل والأعصاب. وقال كامل في حديث نقله موقع (نقاش): "منذ ذلك اليوم الذي فقدت فيه جميع أفراد عائلتي وأنا أعاني من إصابات خطيرة مازالت تهدد حياتي المريرة حتى هذا اليوم". عندما نقل كامل إلى إحدى مستشفيات إيران، كان قد أصيب بحروق كبيرة في جسده، إضافة الى ضيق في التنفس والعمى. "اتذكر أن جميع شعر جسمي تساقط"، يقول. واضاف بأنه فقد الوعي بعد القصف، لكنه علم فيما بعد أن أحد أفراد قوات البيشمركة حمله وسلمه للقوات الايرانية ليتم نقله للمستشفى. مضيفا: "أمضيت أسبوعا كاملا فاقدا لوعيي وبقيت 20 يوما أعاني من عمى كلي، وقضيت شهرين تحت العناية المركزة". بعد ذلك، خرج كامل من المستشفى بدون موافقة الأطباء ليبحث عن عائلته، ويصطدم بخبر مقتلهم جميعا. وقال: "آخر مرة رأيتهم فيها كانت أثناء القصف، قبل أن افقد بصري" (11).

وفي باريس أكد الطبيب الفرنسي (برنار برنديني)- مندوب منظمة "أطباء بلا حدود" لمراقبة الموقف في المنطقة الحدودية، في رسائل بعث بها الى الأمين العام للأمم المتحدة، ان الشهادات العديدة، المستقاة من اللاجئين الأكراد العراقيين، لا تدع أدنى مجال للشك في العنف والقمع اللذين تمارسهما القوات العراقية. وطلب من السيد (ديكويلار) التدخل بصورة عاجلة لدى الحكومة العراقية حتى لا تتم إبادة المزيد من آلاف النساء والأطفال والرجال الأكراد. وفي وقت لاحق أعرب الأمين العام للأمم المتحدة في مؤتمر صحفي عقده في لاهاي عن قلقه البالغ للمحنة التي يعانيها الأكراد (12).

معاناة وأمراض وفواجع متواصلة الى اليوم

عقب زيارته لحلبجة، كتب الصحفي العراقي عدنان حسين يقول: ذكر أحد الأطباء في مستشفى حلبجة ان النسبة الكبيرة من المراجعين في ذلك الوقت كانوا يشكون من حالات مرضية ذات صلة بالهجوم الكيمياوي، وتوقع ان بعضهم سيموت في غضون سنوات قليلة، بينما سيظل الآخرون يعانون مدى الحياة. ويبدو ان ذلك الطبيب لم يكن بالقدر من المعرفة والخبرة التي تؤهله لكي يخبرني ان مدى الكارثة سيكون بمرور الأيام أبعد من موت ذوي الحالات الخطيرة وإستمرار معاناة ذوي الإصابات الأخف. فأخبر كشف أستاذة جامعية بريطانية عن جانب أكثر مأساوية للكارثة

التي وقعت قبل 10 سنوات، إذ وجدت ان الآثار والأعراض المرضية إنتقلت الى الجيل الثاني من بنات وأبناء الذين أصيبوا في هجوم حلبجة الكيمياوي(13). وكشف عن هذه الحالة فيلم وثائقي بثته القناة الرابعة للتلفزيون البريطاني في مطلع آذار 1998، ضمن برنامجها الشهير Dispatches وعنوانه "قنبلة صدام الموقوتة السرية"، وهو الفيلم الثاني للمخرج جوين روبرتس عن كارثة حلبجة بعد فيلم "رياح الموت". ويظهر المخرج في الفيلم الأخير برفقة كريستين جوسدين – أستاذة الطب الوراثي Genet-ics Medicine في جامعة ليفربول، التي أجرت في حلبجة أبحاثاً اولية حول آثار القصف الكيمياوي على الذين أصيبوا فيه مباشرة وعلى أبنائهم.

وأعلنت البرفسورة (كريستين جوسدين) إن ما وجدته في حلبجة، بعد 10 سنوات من إستخدام السلاح الكيمياوي ضد سكانها، كان أسوأ بكثير مما كانت تتصوره. وهي بحكم معرفتها وخبرتها كانت تتصور أنها ستلاحظ على بعض السكان أشكالاً من السرطانات والتشوهات الخلقية والعقم والعمى والتلف العصبي. وفعلاً وجدت كل هذا في حلبجة، وفي حالات أكثر خطورة، وأوسع نطاقاً مما كانت تعتقد. وإستطردت: عملنا مع الأطباء، وأجرينا تحديداً لنسبة حالات العقم والتشوهات الخلقية والسرطان، بما في ذلك سرطانات الجلد والرأس والعنق والجهاز التنفسي والصدر وسرطانات الأجنة، لدى سكان المدينة، الذين كانوا فيها يوم الهجوم، وقارناها مع سكان مدينة أخرى في المنطقة، فوجدنا ان هذه النسبة تفوق بـ3–4 أضعاف على الأقل لديهم حتى بعد 10 سنوات على الهجوم. ولاحظت الباحثة ان عدداً من أطفال حلبجة يموتون كل عام متأثرين بأمراض سرطان الدم (لوكيميا) وأورام الغدد اللمفاوية. وأن نسبة إصابة الأطفال والشباب بالسرطانات أعلى مما في أي مكان آخر في العالم. وأضافت: ان مما يزيد الأمر سوءاً هو النقص الكبير في وسائل الجراحة الخاصة بأمراض الأطفال لمعالجة العلل القلبية الخطيرة وتشققات الشفتين واللثة والتشوهات الخلقية الخطيرة الأخرى لدى الأطفال، ما يعني ان الكثيرين منهم يموتون بينما كان بالإمكان إنقاذ حياتهم. وأشارت العالمة الى الآثار النفسية والعصبية للهجوم على حلبجة بالسلاح الكيمياوي، فقالت: تواجهك المحنة الإنسانية هنا في كل شارع وبيت وردهة في المستشفى. أشخاص ينتحبون ويشعرون بضيق نفس شديد بسبب ما يعانون من كآبة حادة، وتتسبب في محاولات إنتحار بشكل مرعب. وإستنتجت البرفسورة جوسدين من أبحاثها ان التشوهات الخلقية والأعراض المرضية الخطيرة، التي ولدت مع الأطفال، الذين جاؤوا الى الحياة بعد سنوات عديدة من الهجوم الكيمياوي، ان هذه الآثار تنتقل الى الأجيال اللاحقة. والكثير من أطفال حلبجة الصغار يعانون من مشاكل في التنفس، وفي البصر، وفي الجلد، ومن سرطانات وتشوهات خلقية وعاهات واضطرابات عصبية، وتخلف عقلي، وشلل دماغي. وأضافت: ان هذه السلسلة الواسعة من الأعراض المرضية يمكن عزوها الى التلف طويل الأمد للحامض النووي منقوص الأوكسجين DNA للذين أصيبوا في حلبجة ولأبنائهم(14).

وأكد هذه الإستنتاجات البرفسور حسين الشهرستاني، بعد 3 أعوام، عند زيارته لمدينة حلبجة، حيث التقى بمن تبقى من

الأحياء هناك، وقد رووا له لحظات القصف العصيبة. فقال له أحدهم ان الطائرات العراقية عندما بدأت تقصف المدينة اختبأ الجميع في الملاجئ والسراديب، ثم تنفسوا رائحة تشبه رائحة التفاح. وهذا يشير الى ان النظام العراقي تعمد صنع رائحة تشبه رائحة التفاح لاغراء الناس على تنفسها ولطمأنتهم الى انها غير ضارة. وأوضح الشهرستاني بأن هذه الغازات لكونها ثقيلة فهي تنزل الى الأعماق والمناطق المنخفضة وهكذا قتلت الأبرياء الذين لاذوا بالسراديب اضافة الى من قتلتهم فوق سطح الأرض والذين كانوا في طريقهم للفرار من المدينة. وأضاف: كانت القوات الايرانية قريبة (حلبجة مدينة حدودية بين العراق وايران) وقد تمكنت هذه القوات من انقاذ البعض ونقلهم الى الوحدات الطبية والمستشفيات القريبة. وقال: نحن اليوم نتحدث بعد 13 عاماً على الحادث وهناك من أهالي المدينة الذين بقوا على قيد الحياة ظهرت عليهم أعراض صحية سلبية، فالرجال أصيبوا بالعقم، أما النساء فيعانين من حالات الاسقاط، كما ظهرت حالات تشوه خلقي في المواليد الجدد وأنواع من مرض السرطان لم تكن معروفة في تلك المناطق. ان التأثيرات الصحية السلبية لم تظهر فقط على الذين تلقوا الضربة بشكل مباشر، بل ستظهر هذه الأعراض حتى على الأجيال المقبلة (15).

ورغم مرور 24 عاماً على جريمة حلبجه ما يزال المواطنون يعانون من تداعياتها. وحسب الإحصائيات الرسمية لوزارة صحة إقليم كردستان وتجمع ضحايا الأسلحة الكيمياوية، فإن هناك 500 مصاب بالأسلحة الكيمياوية ما زالوا على قيد الحياة، من بينهم ٢٤٥ إصاباتهم شديدة، إضافة إلى آخرين فارقوا الحياة ببطءٍ خلال السنوات الماضية بتأثير موادها السامة. وأكد لقمان عبدالقادر، رئيس تجمع ضحايا الأسلحة الكيمياوية لـ (نقاش) "في كل سنة نفقد عدد من المصابين، حيث فقدنا في عام 2004 وحده 73 شخصا متأثرين بإصاباتهم"(16). وتشير الإحصائيات الموجودة لدى التجمع، أنه تم إرسال 69 مصابا خلال الأعوام الماضية إلى خارج العراق لغرض العلاج، خصوصا ان لا علاج لهم داخل البلد. وزرعت قرنية جديدة لـ23 منهم، وهناك 6 آخرين ما زالوا موجودين في مستشفيات ايران. وبين رئيس التجمع أن أغلبية الحالات التي أرسلت للعلاج كانت عن طريق جهود فردية ونتيجة ضغط ومساعدة المنظمات المعنية(17). وفي تصريح لاحق أكد رئيس جمعية ضحايا حلبجة بأقليم كردستان بان حلبجة تضم 171 مصاباً من أصل 254 من مصابي القصف الكيمياوي، مشيراً الى أن 90 من هؤلاء المصابين حالتهم حرجة، فيما تصنف حالة المتبقي منهم بأنها متوسطة. وأضاف عبدالقادر: هناك إنتشار لحالات سقوط الأجنة في الأشهر الأخيرة من الحمل لدى النساء في المنطقة من جراء مضاعفات تلك الأسلحة، ورصد حالات ضيق التنفس لدى الحوامل (18).

ابادة للجنس البشري

قبل 22 عاماً أعلن الطبيب الأمريكي روبرت كول عقب التقائه لاجئين عراقيين في الأراضي التركية: "ثمة أدلة تأريخية ثابتة، وعلامات جسمانية محددة تشير الى إستخدام الحكومة العراقية لغازات سامة ضد الضحايا(19). وجاء في بيان اللجنة الفرعية لمنع التمييز وحماية السكان التابعة

للأمم المتحدة: إن أبشع الأنظمة الفاشية لم يتجرأ على إستخدام أسلحة الإبادة الجماعية ضد مواطنيه كما فعل نظام بغداد(20).

وفي بحث أكاديمي قيم، قدم الى المؤتمر العلمي عن ابادة الجنس البشري في العراق في جامعة لندن في 2002/7/26، عدّ القانوني الأستاذ الدكتور منذر الفضل جريمة حلبجة جريمة إبادة للجنس البشري ومن صنف الجرائم الدولية الكبرى، بالإستناد الى إتفاقية منع إبادة الاجناس البشرية والمعاقبة عليها لعام 1946، والى احكام الجريمة المذكورة، وتعريف الإبادة (التي يقصد بها التدمير المتعمد للجماعات القومية أو العرقية أو الدينية أو الاثنية)، وما يراد بمصطلح genocide في اللغة اللاتينية (قتل الجماعة)، وبالإشارة الى اقتران اسم وشيوع مصطلح "جريمة الابادة" مع النازية اولا، حيث جرى قتل ملايين البشر بسبب دينهم أو اصلهم العرقي، وعدّ الجريمة من نمط الجرائم ضد الانسانية، حتى ولو لم تكن الجريمة اخلالا بالقانون الداخلي للانظمة المنفذة لها(21).

ان القصف الكيمياوي لحلبجة من قبل النظام الدكتاتوري في العراق هو جريمة يندى لها جبين التاريخ، وهي بذات الوقت وصمة عار على جباه الديمقراطيات الغربية التي تتغنى بحقوق الانسان، بينما تطلق العنان للانظمة الدكتاتورية التي تخدم مصالحها لتنفيذ جرائم ومذابح وحشية بحق الابرياء، مستخدمة الاسلحة التي تنتجها مصانع دولها، التي لم تكن غافلة بالجرائم والسياسات اللانسانية، فحسب، وانما كانت تساهم مساهمة مباشرة في ترسيخ كيان تلك الانظمة الدكتاتورية، وامدادها بشتى انواع وسائل القمع والابادة والتدمير لتلك الاغراض. فحري بكل انسان حر ان يستذكر تلك الجريمة الوحشية ويساهم في تعرية تلك السياسات التي تجري ضد الانسانية في سوق مزايدات السياسة الدولية"(22). حيال ذلك الواقع، اعتبر السناتور الأميركي (كابيون بيل)، رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي، آنذاك: "إن عدم إقدام الكونجرس على إتخاذ إجراء ضد النظام العراقي لإستخدامه الغازات السامة والأسلحة الكيمياوية ضد المواطنين العراقيين والمعارضة، هو أشبه بمأساة" (23). علماً بان. الإدارة الأمريكية لم "تتكرم" بإدانة الجريمة البشعة إلا بعد مرور 10 سنوات عليها. ولم تعترف معظم الدول الأوربية رسمياً لليوم بأنها جريمة ضد الإنسانية!! مع ان محكمة هولندية قررت في 23 كانون الأول 2005 بأن الدكتاتور صدام حسين ارتكب إبادة جماعية ضد شعب حلبجة. جاء ذلك خلال محاكمتها لرجل أعمال هولندي (فرانس فان أنرات) لأنه باع مواد كيماوية – اشتراها من السوق العالمية – لنظام صدام، وظهر فيما بعد أن رجل الأعمال المذكور هو مخبر في جهاز الأمن الهولندي، ومن المطلوبين لدى قائمة أهم المطلوبين عند جهاز المباحث الفيدرالية الأمريكية (24).

كلمة أخيرة: من العار على الإدارة الأمريكية والحكومات الغربية التي تتغنى بالديمقراطية وحقوق الإنسان ان تستمر مواقفها من إنتهاكات حقوق الإنسان وجرائم الإبادة الجماعية، والعالم يعيش في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، مواقف غير مبدئية ومتقلبة رهناً بمشاريعها ومصالحها الخاصة!

الهوامش

1- "شفق نيوز" 2012/3/10 .

2- كاظم المقدادي، في الذكرى العشرين لمجزرة حلبجه.. تذكير لمن يعنيهم الأمر (1-3)، "الحوار المتمدن"، العدد: 2222، 2008/3/16.

3- معد فياض، عالم الذرة العراقي حسين الشهرستاني: حلبجة الكردية قصفت بـ3 أنواع من الغازات السامة، "الشرق الأوسط"، 2001/3/19.

4- علي حنوش، ملف البيئة العراقية، "المؤتمر"، العدد 174، في 1996/10/25 .

5- جاسم ولائي، نتائج وآثار إستخدام النظام العراقي للسلاح الكيمياوي، "الثورة" السورية، 1990/2/10 .

6- " شفق نيوز"، 2011/1/14 .

7- كارل فيك- قوبتبه (كردستان العراق): أكراد العراق يتوقون للمشاركة في الحرب ضد صدام للانتقام لمئات الآلاف من ضحاياهم، خدمة ؟واشنطن بوست؟ - خاص بـ"الشرق الأوسط"، 2003/2/21 .

8- "أكانيوز"، 2012/1/36 .

9- معد فياض، مصدر سابق.

10- "المواطن"، 2012/1/23 .

11- عدنان حسين، 10 سنوات على قصف حلبجة الكردية العراقية بالغازات السامة: أمراض الأسلحة الكيمياوية تنتقل من جيل الى آخر، "الشرق الأوسط"، 1998/3/17 .

12- "المواطن"، 2012/1/31 .

13- مجلة "رسالة العراق"، إدانة شاملة لحرب الإبادة الشوفينية في كردستان العراق، العدد 94، تشرين الأول 1998 .

14- عدنان حسين، مصدر سابق.

15- المصدر نفسه..

16- "الشرق الأوسط"، 2001/3/19 .

17- "المواطن"، 2012/1/31 .

18- "أكانيوز"، 2012/3/17 .

19- "المواطن"، 2012/1/31، مصدر سابق.

20- "رسالة العراق"، مصدر سابق..

21- د. منذر الفضل، إبادة الجنس البشري والجرائم الدولية في كردستان وجنوب العراق، بحث قدم الى المؤتمر العلمي عن ابادة الجنس البشري في العراق، انعقد في جامعة لندن، في 2002/7/26، وقد نشره في "الحوار المتمدن"، العدد: 150، 2002/6/4 .

22- صلاح حسين كرميان/ سيدني، القصف الكيمياوي لمدينة حلبجة جريمة، بين سياسات الامس واليوم، نشرت على الإنترنيت، فاتني سهواً ان أسجل التأريخ ونقل الرابط.

23- "رسالة العراق"، مصدر سابق.

24- "المدى"، 2012/1/10 .

آينشتاين والدولة اليهودية

د. عدنان عاكف

كتب (جان - باتيست دوروزيل)، وهو كاتب وباحث فرنسي:
"يجب على المؤرخ عندما يكتب التاريخ ان يفكر ويكتب كمؤرخ وليس كأوربي. ذلك ان الموقف المنحاز يؤدي الى ان يُسقط على الماضي حقيقة هي اليوم حيّة فعلا. ومن يفعل ذلك انما يُحرّفُ الماضي ويُشوّهه، وبهذه الطريقة يصبح الحاضر غير مفهوم".
فلو أردنا حقا ان نتجنب تحريف آراء (آينشتاين) وتشويه مواقفه من قضية الصراع العربي اليهودي فعلينا ان نتوخى الحذر ونحن نتعامل مع تلك الأفكار والمواقف، وان نوضع في سياقها التاريخي وفي ظروفها السياسية والفكرية التي كانت سائدة في النصف الأول من القرن الماضي.

لكننا هنا نتعامل مع حالة فريدة. وفرادة الحالة هذه تكمن في اننا نتعامل مع أفكار ومواقف سياسية لشخصية غير عادية، شخصية ملأت الدنيا وشغلت الناس على امتداد أكثر من قرن من الزمن. لذلك لم يكن من باب الصدفة ان يطلق عليه لقب "شخصية القرن" عشية القرن الواحد والعشرين. وهذه الخصوصية بحد ذاتها دفعت بجهات مقتدرة ومتنفذة ان تجند امكانيات مادية وسياسية واعلامية دولية جبارة من أجل ان تقدم "شخصية القرن العشرين" للعالم بالصيغة التي تخدم مصالحها المتنوعة. وهذا ما يدفعنا الى مضاعفة الحذر والتأني في تقييم الآراء والمواقف، خاصة انها تتعلق بمواضيع شغلت السياسيين والمفكرين والمثقفين بشكل عام على امتداد القرن الماضي ولم تجد الكثير منها الحل. ونقصد بذلك ما يخص العلاقات العربية اليهودية واقامة دولة اسرائيل والموقف من الصهيونية وحق الشعب الفلسطيني في اقامة دولته المستقلة، وغيرها.

الموقف من الدين:

لم يكن آينشتاين ملحدا؛ وهو القائل: "العلم بدون دين كسيح والدين بدون علم أعمى". كان من أنصار فكرة الفيلسوف (شوبينهاور) عن "الشعور الديني الكوني". ويرى ان تقوى الشعور الديني الكوني هي الحافز الأقوى للبحث العلمي؛ أولئك الذين يشعرون بنشوة الانبهار أمام هرمونيا الطبيعة هم فقط القادرون على الغوص في أسرارها. ويرى ان (كبلر) و(نيوتن) كانا مُلهَمَين من خلال ايمانهما العميق في عقلانية الكون... ولذا كان يدرك بان العلم والدين يمكن أن يعملا جنبا الى جنب،

بارتباط أحدهما بالآخر.

تشير بوضوح ان اليهودية "بالنسبة اليه لم تكن مجرد مفهوم ديني بحت، بل كانت تحمل مفهومها الأوسع: ثقافة وأمة وتاريخ مشترك، تمتد جذوره في أعماق الزمن. وقد أشار الى ذلك أكثر من مرة. وفي رسالة له الى د. Hellpach td في عام 1929 أشار الى "ان اليهود مجموعة تربطها روابط الدم والتقاليد، وليس مجرد روابط دينية". وسئل ذات مرة: "أليس من السخرية أن يكون اسمك مرادفا للعلم في القرن العشرين، في حين ما زالت الكثير من الآراء المتناقضة بشأن موقفك من الدين؟. كيف نفسر مثل هذه الحالة الشاذة، علما اننا نعلم ان العلم والدين في خصام متواصل"؟ فأجاب: "ليس بالضرورة أن يكون العلم والدين في حالة تناقض طبيعي... أعتقد ان هناك علاقة متينة بين الطرفين، لذا أقول ان العلم بدون دين كسيح وان الدين بدون علم أعمى. كلاهما مهمان، وسوف يعملان يداً بيد...". وجاء في سؤال آخر: "ألا تعتقد بوجود تناقض في بعض مواقفك من قضية الدين؟ انت من جهة تؤكد على عدم اعترافك بالديانات التقليدية لكنك يهودي في أذهان الناس، وتودُ ان تُعْرفَ كيهودي واليهودية من الديانات التقليدية. فكان جوابه: "ليس بالأمر السهل ان تُعَرِف معنى "اليهودي".... تخيل الحلزون، الذي وهو على الشاطئ منزويا في قوقعته، البيت الذي يأويه ويحميه... ما الذي سوف يحدث لو رفعنا الصدفة عن الحلزون؟ هل سوف نصف الجسم الذي تعرى من الصدفة بكلمة أخرى غير الحلزون؟ هكذا هو اليهودي. فاليهودي الذي فقد دينه خلال الطريق، أو حتى لو استبدله بدين آخر، فإنه سيبقى يهودي".

وقال ذات مرة: "كلما ازداد شعوري بكوني يهودي كلما تعزز لدي شعور بأني أصبحت أكثر بعدا عن الديانة التقليدية". كان يقدر عاليا التعاليم الأخلاقية في الديانة اليهودية، وحثها على حب العدالة والسعي من أجل الحقيقة. وأكد على ان اليهود ظلوا موحدين عبر القرون من خلال تبجيلهم للحقيقة، والمثل الديمقراطية للعدالة الاجتماعية، والتوق الى الحرية الشخصية. وكان يرى ان عظماء اليهود، ومنهم موسى وسبينوزا وماركس، قد كرسوا أنفسهم من أجل هذه القيم. وقد أشار الى ان تأسيس وطن لليهود سيساهم في خلق مركز مهم للحفاظ على كل هذه القيم لصالح العالم بأسره.. لذا فان وجهة نظر آينشتاين بإسرائيل كانت وجهة نظر فكرية وحضارية، وليس اسرائيل السياسية. أي كانت فكرة آينشتاين باسرائيل، حضارية كانت أم سياسية، فان التاريخ أثبت بانها كانت، حتى لو افترضنا حسن النية، فكرة ساذجة جدا. ناهيك عن كونها تتعارض كليا مع المبادئ الأخلاقية وقيم العدالة الاجتماعية ومثل الديمقراطية والحرية، التي يفترض بها، حسب ما ذكره، الأسس التي تقوم عليها قيم الديانة اليهودية.

العلاقة بين العرب واليهود في فلسطين:

كانت وجهة نظر آينشتاين بشأن الخلافات بين العرب واليهود قائمة على مبدأ التنازلات. وهذا ما لم يرق لقادة المنظمات الصهيونية، الذين سعوا الى استغلال اسمه لصالح أهدافهم. لقد كان يؤمن بإمكانية التوصل الى حل وسط يرضي الجانبين، وإمكانية التعاون المشترك بين الجانبين لما فيه مصلحة الشعبين، العربي واليهودي. قد تبدو اليوم طروحات آينشتاين مثالية جدا، وتتسم بالسذاجة أحيانا، وصعبة التحقيق. لكنها لم تكن كذلك في زمنها، وكانت معظمها تتفق مع مواقف اليسار بشكل عام، العربي واليهودي على حد سواء. وفي رسالة له الى رئيس تحرير صحيفة "فلسطين" المؤرخة في 1930/1/28، كتب: "ان شخصا مثلي كان لسنوات عديدة

متمسكا بقناعته بان الانسانية ينبغي ان تقوم على أساس الاتفاق الصادق والحميمي بين الأمم، وان التعصب القومي العدواني لا محالة سوف يهزم، لا يستطيع رؤية مستقبل فلسطين إلا على أساس التعاون السلمي بين الشعبين الذين يعيشان في هذه البلاد...".

وجاء في "رسالة الى عربي" المؤرخة في 1930/3/15، أي بعد رسالته السابقة بأقل من شهرين ما يلي:

" ان ما يجعل من الوضع الحالي أمر سيئ هو ان اليهود والعرب يجابهون بعضهم البعض كخصمين وهم تحت إدارة قوات الانتداب. وان حالة التخوف القائمة بينهما غير جديرة بكلتا الأمتين، ولا يمكن تغييرها إلا في حالة العثور على حل وسط يتفق عليه الجانبان..." ويواصل آينشتاين رسالته حيث يقدم اقتراحه المشهور بتشكيل مجلس استشاري من العرب واليهود:

"حتى وان كان مثل هذا المجلس لا يملك أية سلطة محددة، فانه يمكن أن يؤدي الى تقليص حجم الخلافات وتقريب وجهات النظر، وقادر على ان يضمن تمثيلا موحدا للمصالح المشتركة للبلاد، أمام قوات الانتداب ويبقى نقيا وخاليا من رماد السياسة السريع الزوال".

بعد عودته من رحلته الأولى الى الولايات المتحدة عام1921 صرح بشأن القضايا المتعلقة باليهود والصهيونية، وقد تم نشره مع تصريحات أخرى في عام 1931 قائلا:

"نحن بحاجة ماسة لأن نعير اهتماما كبيرا لعلاقاتنا مع العرب. ومن خلال اهتمامنا ورعايتنا الدقيقة لهذه العلاقات سنكون قادرين على منع بعض المشاكل من أن تتطور وتتوتر بشكل خطر، بحيث تدفع الناس لأن يجدوا أنفسهم أمام خيار وحيد هو المخاطرة بالقيام بأعمال عدوانية ".

ظل آينشتاين متمسكا بهذا الموقف طيلة حياته، وعاد اليه أكثر من مرة في تصريحاته وكتاباته. خلال زيارته الثانية الى أمريكا، وأكد:

"علينا، وفي المقام الأول، أن نعير حاليا اهتماما كبيرا الى علاقاتنا مع الشعب العربي. ان رعايتنا واهتمامنا بهذه العلاقة سوف تجنبنا في المستقبل مخاطر الانزلاق الى حالات التوتر، التي قد تستغل لأهداف استفزازية ونشاط عدائي. وبلوغ هذا الهدف أمر منوط بنا، ونستطيع تحقيقه.... ان الأعمال التي ننجزها في فلسطين ينبغي أيضا ان تخدم المصالح الحقيقية للسكان العرب...".

كان آينشتاين يدرك جيدا ان العلاقات السليمة بين العرب واليهود لن تتحقق لمجرد توفر النية الطيبة عند الجانبين، بل تتطلب بذل الكثير من الجهود والتنازلات. وكان أكثر من مرة قد وجه سهام نقده للمواقف المتطرفة من قبل اليهود والعرب، وحذر من المواقف القومية الضيقة التي لا تراعي مصالح الطرف الآخر. وكان، في الوقت نفسه، يدرك جيدا ان الساسة يمكن أن يلعبوا دورا خطيرا في توسيع الفجوة القائمة التي يمكن أن تقود الى مخاطر وخيمة. وكتب عام 1946:

"سينجح اليهود، وبدرجة كبيرة، في التعاون مع العرب، في حالة لو ان شعبنا والشعب العربي استطاعا ان يتغلبا على التذمر الطفولي للعقلية القومية... التي يؤججها الساسة المحترفون...". وكتب أيضا: "القومية مرض طفولي. انها حصبة الجنس البشري". وفي إحدى رسائله الى وايزمن أكد من جديد على ضرورة التوصل الى تفاهم مع الفلسطينيين: "اذا لم نعثر على وسيلة للتعاون الحميمي والتفاهم الصادق مع العرب، فاننا وبكل بساطة، نكون وكأننا لم نتعلم شيئا من آلامنا التي استمرت أكثر من ألفي عام. وبذا نستحق المصير الذي ينتظرنا. يجب علينا قبل كل شيء أن لا نثق بقوة بالإنجليز. لذلك ان لم نتوصل الى تعاون حقيقي مع القيادات

العربية فان الإنجليز سوف ينهوننا...".

علاقاته مع المنظمات الصهيونية:

هل كان آينشتاين صهيونيا؟ لو طرحنا هذا السؤال على القراء والكتاب العرب، الذين لديهم قدر معين من الاهتمام بسيرة حياة هذا العالم الكبير فان أكثر من 95 ٪ سوف يجيبون بنعم!!

يشير د. محمد عمر فاروق، وهو أستاذ جامعي أمريكي مسلم من بنغلادش:

"كون آينشتاين كان نصيرا للصهيونية السياسية، وكذلك نصير للحركة من أجل تأسيس دولة إسرائيل، وبالتالي نصير لدولة إسرائيل، وبقي كذلك حتى مماته، هي مجرد خرافة. وقد خُلِّدَتْ هذه الخرافة بواسطة الإعلام الصهيوني والمؤيد لإسرائيل ". ويشير الكاتب ان هذا الإعلام وبما يملكه من آلة دعائية جبارة استطاع بالفعل ان ينفذ الى عقول الكثير من القراء، وهذا أمر "مناقض للحقيقة تماما". ويستغرب الكاتب كيف ان الكثير من المسلمين، ومن المسلمين العرب على الخصوص، لا يترددون في قبول تلك الخرافة، إذ يذهب البعض الى اتهام آينشتاين بالعنصرية والصهيونية، مما يجعل المكيدة الصهيونية أكثر قوة وتأثيرا.. ويقول: " باستثناء موقع واحد، من المواقع الالكترونية البنغلاديشية على الانترنيت فانها جميعا تشير الى ان آينشتاين كان عنصري وصهيوني...

ما ذكرناه عن علاقته بالدين، وأفكاره المعارضة للتعصب القومي والعنصرية، ومواقفه الداعية الى ضرورة التفاهم بين العرب واليهود تفند هذه الآراء.

على العكس تماما؛ كانت مبادئه الأممية في تناقض تام مع التعصب القومي والديني للصهيونية. لنقرأ ما كتبه عام 1929:

"عندما عدت الى ألمانيا قبل خمسة عشر عاما اكتشفت لأول مرة بأني يهودي، وأنا مدين بهذا الاكتشاف الى غير اليهود أكثر من اليهود". الحديث كان عن المضايقات التي كان يتعرض لها اليهود في ألمانيا، بعد عودته من سويسرا. ويضيف: كانت الأوضاع السياسية في سويسرا مختلفة تماما عما هي في ألمانيا، خاصة ما يتعلق بالموقف من اليهود. وقد كتب يقول: "طيلة فترة وجودي في سويسرا لم تخطر على بالي يهوديتي، ولم يكن في هذه البلاد شيء يمكن أن يثير مشاعري اليهودية، بحيث يمكن أن يؤدي الى تأجيجها. ولكن تغير كل شيء بعد انتقالي الى برلين، إذ رأيت هناك المحنة التي كان يعاني منها الكثير من الشبان اليهود...".

Isaiah Berlin فليسوف بريطاني يهودي كتب الكثير عن آينشتاين، وربما كان الأكثر ذكاء من بين جميع من روج للأسطورة التي تغنت بصهيونية آينشتاين. يدرك برلين ان من غير السهل تفادي مواقف آينشتاين الرافضة للسياسة الصهيونية ومعارضته لتأسيس دولة إسرائيل، ولكن سعى جاهدا لتمييع تلك المواقف وحتى تشويهها. في مقالة نشرت في NewYork Review في كانون أول 1979 أشار الى ان آينشتاين ربط هيبة اسمه الكبير –وفي الواقع منح نفسه – للحركة التي أدت الى قيام دولة اسرائيل..." ويجزم بانه بقي مؤيدا للحركة الصهيونية حتى آخر أيامه. ويواصل اذا كان هناك ممن "يحتقر التعصب القومي والطائفية، ويسعى من أجل العدالة الاجتماعية ويؤمن بالقيم الإنسانية العالمية (وهذا ما فعله آينشتاين بالذات) يريد ان يفهم كيف يمكن له ان يساند عودة اليهود الى فلسطين ويدعم الصهيونية ودولة اسرائيل، بالرغم من النقد والشعور بالحزن، والذي لا يمكن لأي إنسان حساس محترم إلا ان يشعر به، بسبب الأعمال التي تقترف باسم شعبه والتي تبدو له خطأ أو حماقة، ومع ذلك بقي ثابتا على موقفه حتى آخر أيامه، عليه أن يرجع الى كتاباته حول الموضوع". ولا

يتوقف برلين عند هذا الحد، بل يحاول أن يجعل من انتقاد آينشتاين للأعمال التي بدت له "خطأ أو حماقة" شهادة اعتزاز وفخر لإسرائيل والحركة الصهيونية:

"ذاك آينشتاين الذي لم يسمح بالانحراف عن اللياقة الإنسانية، وخاصة من قبل شعبه، ذاك آينشتاين الذي آمن بهذه الحركة وهذه الدولة، ووقف الى جانبها في الغث والسمين حتى آخر حياته، بالرغم من انتقاده في بعض الأحيان لأشخاص معينين أو لسياسات محددة، ان هذه الحقيقة قد تكون أسمى الشهادات الروحية التي يمكن لأي دولة أو أية حركة في هذا القرن أن تفتخر بها".

ان مفكرا مثل برلين يدرك جيدا صعوبة المهمة التي أخذها على عاتقه، وهي الجمع بين المتناقضات: بين موقف رافض من حيث المبدأ للمواقف القومية والعنصرية والتعصب الديني والقومي، الذي لا يمكن أن ينكره على آينشتاين وبين الإدعاء بتأييد الحركة الصهيونية القائمة أساسا على فكرة التمييز الديني والقومي. ولذا تجده قد أحال القراء ممن يهمهم الأمر الى ان يرجعوا الى كتاباته حول الموضوع،، دون أن يكلف نفسه الاستشهاد بمقتبسات موثقة من تلك الكتابات.. قد لا يجد الباحث المتخصص في الموضوع صعوبة بالرجوع الى كتابات آينشتاين حول إقامة دولة اسرائيل وعلاقته بالصهيونية. ولكن لا أظن ان الأمر سيكون بهذه السهولة على جمهرة القراء- وهم الجمهور الرئيسي والمهم الذي يتوجه اليه برلين وزملائه العاملين في مجال الإعلام الصهيوني والإسرائيلي - إذ من السهل في العالم الغربي اليوم ان يكبس على أزرار الكمبيوتر ليجد أمامه عشرات المقالات التي تؤيد بالفعل وجهة نظر برلين، والمدعمة باقتباسات يزعم انها منقولة عن آينشتاين، لكن في غالبيتها غير موثقة على الإطلاق.

لا أحد يستطيع ان ينكر بان آينشتاين كان على علاقة جيدة بالكثير من القادة الصهاينة، وذلك منذ العشرينيات من القرن الماضي وحتى وفاته، وقد عبر أكثر من مرة عن تأييده للجهود التي كانت تبذلها المنظمات الصهيونية في سبيل دعم ومساعدة اليهود في أوربا، الذين كانوا يعانون من سياسة معاداة السامية في أكثر من بلد، وخاصة في ألمانيا. وقد بذل الكثير من الجهد من أجل تأسيس الجامعة العبرية في القدس، واستغل سمعته لجمع التبرعات والدعم المعنوي لهذا الغرض. ولكن كل هذا لا يعني على الإطلاق انه كان صهيونيا، أو دعم تأسيس الدولة اليهودية.

أبراهام بايس عالم فيزيائي نظري، ومؤرخ للعلوم، يهودي صهيوني، ولد في أمستردام ومن ثم انتقل الى الولايات المتحدة، وعمل لفترة طويلة مع الكثير من علماء الفيزياء المشهورين، وفي مقدمتهم آينشتاين، اوبينهيمر، ديراك وفينمن. وقد منحته علاقاته المتنوعة وطبيعة عمله والمواقع التي شغلها آفاق رحبة استطاع من خلالها كتابة سيرة حياة الكثير من العلماء وعلى أعلى المستويات. ومن بين مؤلفاته في هذا المجال كتابه المعروف "علم وحياة ألبيرت آينشتاين". وقد نشر عام 1977 مقالة موسعة حول علاقاته بالحركة الصهيونية... وقد توقف بالتفصيل عند علاقة آينشتاين بالقضية اليهودية وروابطه مع المنظمات الصهيونية. ويشير بايس الى ان آينشتاين لم يجد أي تعارض مع أفكاره الأممية التي تسمو فوق الأفكار القومية، وبين موقف التضامن مع اليهود في ألمانيا، بسبب تلك المحنة التي كانوا يتعرضون لها، والتي أخذت تشتد مع مطلع العشرينيات من القرن الماضي. لقد كان يرى ان المُثل الأممية يمكن وبشكل مؤقت ان توضع جانبا، أمام ما يتعرض له اليهود، إذ ان الأمر هنا قضية حياة أو موت. فالزبون قد يموت قبل أن يتلقى العلاج. ويضيف بايس ان آينشتاين من

الجانب الآخر قد كتب: " كنت دائما أتضايق من الإلحاح الشديد ومواقف التملق والرياء التي كنت ألحظها لدى بعض الأصدقاء من اليهود. هذه الأمور وأشياء أخرى قد أضعفت لدي المشاعر القومية اليهودية...". ويضيف بايس ان المصدر الأساسي الذي كان يعزز هوية آينشتاين – بعد الهوية العلمية –هي اليهودية، والتي كانت تتعزز لديه مع مرور الوقت. ولم يكن لهذا الولاء أي مضمون ديني. في عام 1924 أصبح متبرعا لمنظمة يهودية في برلين، وقد كان ذلك مجرد موقف تضامن لا غير... أما الصهيونية فقد كانت بالنسبة اليه عبارة عن شكل من أشكال النضال من أجل كرامة الإنسان... ولم تكن له أية رابطة مع المنظمة الصهيونية على الإطلاق...". وحول علاقته مع وايزمن، يشير بايس انه أخبره بان هذه العلاقة كانت متأرجحة.

علاقة آينشتاين مع أعظم ثوري روحي صهيوني:

يعتقد البعض ان بدايات آينشتاين مع الحركة الصيونية، كانت من خلال صديقه، الألماني كورت بلومنفيلد، الذي شغل منصب السكرتير العام للهيئة التنفيذية للمنظمات الصهيونية العالمية خلال الفترة من 1910 الى 1914. وقد وصفه بنغوريون بكونه "أعظم ثوري روحي في الحركة الصهيونية ". أدعى بونمنفيلد بان الفضل يعود اليه في "هداية" آينشتاين الى الصهيونية منذ عام 1920.. وفسرت كلمة "هداية" حسب هوى ورغبات هذا الكاتب أو ذاك. غير ان كتابات آينشتاين المختلفة ومواقفه في الكثير من القضايا، وحتى كتابات بلومنفيلد نفسه اللاحقة تبين أن آينشتاين لم يهتد الى الصهيونية في يوم ما. كان بلومنفيلد قد طلب من آينشتاين أن يصاحب وايزمن في رحلته الى الولايات المتحدة لجمع التبرعات لبناء الجامعة العبرية في القدس. رفض آينشتاين في بداية الأمر، لكنه في النهاية رضخ أمام إلحاح صديقه.. يشير بروغوفسكي، الى ان بلومنفيلد، بمهارته وذكائه ودقة حساباته عرف كيف يقود آينشتاين الى المعسكر الصهيوني. ومنذ تلك اللحظة التي نجح فيها بلومنفيلد في مسعاه، لم تتوقف آلة الدعاية الصهيونية في نشر الأسطورة عن آينشتاين الصهيوني. في رسالة بلومنفيلد الى وايزمن ورد ما يلي:

" تعلم ان آينشتاين ليس صهيونيا... وأنا أتوسل اليك أن لا تحاول إقناعه بالانضمام الى منظمتنا. سمعت أنك ستحاول إشراكه بنشاطك من خلال بعض التصريحات. أرجو أن تتوخى الحذر. قد يقدم على التصريح بمواقف غير مقبولة من قبلنا".

في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي، ومع اتساع حملة معاداة السامية أخذ آينشتاين يساند هجرة اليهود الى فلسطين، ويزداد قناعة بضرورة إقامة وطن لليهود في فلسطين. وقد اعتُبر هذا الموقف، من قبل الكثيرين، بمثابة دعم وتأييد لاقامة دولة اسرائيل. غير ان كتاباته تقول عكس ذلك صراحة.

الموقف من التقسيم:

في عام 1938 وفي كلمة ألقاها في نيويورك أمام أحد المؤتمرات العمالية اليهودية أعلن:

يشير ايداورد سيزكورغان، وهو محامٍ كندي، ان آينشتاين نشر عام 1950 التصريح التالي حول مسألة الصهيونية. وقد قال هذه الكلمات أمام لجنة العمل القومية لأجل فلسطين، في نيويورك عام 1938، ولكن أعاد نشرها بعد إنشاء إسرائيل:

"إنني أفضل اتفاقا منطقيا مع العرب على أساس العيش المشترك في سلام عوضا عن خلق دولة فلسطينية. فإذا وضعنا جانبا الاعتبارات العملية، فان فهمي للطبيعة الجوهرية لليهودية يدفعني لمقاومة فكرة

دولة يهودية بحدود وجيش وقوة دنيوية مهما كانت معتدلة. إني أخشى من خلال داخلي يصيب اليهودية وخاصة من جراء تطور قومية ضيقة الأفق ضمن صفوفنا، كان ينبغي علينا محاربتها مسبقا بدون دولة يهودية".

تُرى ما الذي سوف يقوله آينشتاين وهو يرى ويسمع كيف يتسابق اليوم قادة الدول الديمقراطية على جانبي المحيط الأطلسي من أجل مباركة قيام دولة اسرائيل اليهودية؟

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وإصرار المنظمات الصهيونية، ومن وراءها أمريكا وبريطانيا، على المضي قدما في مشروع تقسيم فلسطين شكلت لجنة التحقيق الأنكلو –أمريكية للنظر في مشروع التقسيم. وقامت اللجنة بزيارة العديد من الدول، ومن بينها بعض الدول العربية، ومنها العراق. وقد دعا الحزب الشيوعي العراقي، وعدد من الأحزاب الشيوعية العربية الى مقاطعة هذه اللجنة المشبوهة، والتي كان هدفها الحقيقي هو تهيئة الرأي العام العالمي من أجل القبول بتقسيم فلسطين وإقامة دولة اسرائيل. في كانون ثاني من عام 1946 مثل آينشتاين أمام اللجنة. وحول سؤال ان كان توطين اللاجئين اليهود في فلسطين يستدعي قيام دولة يهودية، أجاب: " لقد كنت ضدها على الدوام...".

وينقل لنا اداورد سيزكورغان (كاتب ومحام كندي) مقطع من شهادة آينشتاين أمام رئيس اللجنة القاضي الأمريكي (هوتشيسون):

– القاضي: قال الصهيونيون أمام لجنتنا أن القلب الغاضب لكل يهودي لن يهدأ حتى تكون هناك دولة يهودية في فلسطين. ويتم التأكيد على وجوب أن يكونوا أكثرية بالنسبة للعرب. وقيل لنا من قبل ممثلي العرب بأن العرب لن يسمحوا بهذا الوضع، أي لن يسمحوا أن يتحولوا من أكثرية إلى أقلية.

– اينشتاين: نعم.

– القاضي: لقد سألت أولئك الأشخاص العديدين إن كان من الأساسي لحقوق وامتيازات اليهود أن يذهبوا لفلسطين، إذا كان من الأساسي للصهيونية الحقيقية أن يتبلور هذا المشروع وبهذا يكون لليهود دولة يهودية وأكثرية يهودية دون اعتبار لرأي العرب. هل تتفق مع وجهة النظر هذه، أو تعتقد بإمكانية معالجة الموضوع وفقا لأسس أخرى؟

– اينشتاين: بالتأكيد نعم، فكرة الدولة لا تنسجم مع قلبي. ولا أستطيع فهم الحاجة لها، إنها مرتبطة بالكثير من المصاعب وضيق الأفق، أعتقد أنها سيئة.

– القاضي: أليس من المفارقة التاريخية التأكيد على خلق دول يهودية؟

– اينشتاين: برأي نعم، أنا ضدها.

يشير فريد جيرم في كتابه "ملف آينشتاين" الى انه كان يصر دائما على ضرورة التفاهم والتعاون مع العرب. لقد كان يؤيد التوجهات الثقافية للصهيونية، ولكنه كان في تعارض مع الصهيونية السياسية. في عام 1930 كانت السياسة الصهيونية تدعو الى إقامة دولة يهودية في فلسطين. في حين دعا الى تنظيم سلطة مشتركة من العرب واليهود... ويكشف جيرم في كتابه القيم عن "مختارات من رسائل ومقالات آينشتاين" نشرت قبل سنوات من قبل دائرة "أرشيف آينشتاين" التابعة للجامعة العبرية في القدس، تؤكد بكل وضوح على انه بقي متمسكا بوجهة نظره بشأن الخلاف العربي اليهودي في فلسطين، وبقي مصرا على حل هذا الخلاف على أساس من التفاهم والتوافق المشترك. وكتب Ze,ev Rosen-kranz المشرف على الأرشيف في الجامعة العبرية ان آينشتاين بقي وحتى صيف 1947 متمسكا بقوة بفكرة قيام دولة واحدة للعرب واليهود، دولة ثنائية القومية.

كتاب العالم اليهودي د. الفريد ليلينتال:

"الرابطة الصهيونية: ما هو ثمن السلم؟"،

وهو كتاب ضخم موثق، يتألف من 850 صفحة، تناول فيه المؤلف الكثير من المعلومات التي ترتبط بقضايا مهمة جدا، تتعلق بالإعلام المعاصر، الشرق الأوسط، الإدارات الأمريكية المتعاقبة وسياساتها، وغير ذلك من الأمور...

من بين المواضيع المهمة التي أثارها ليلينتال هي استغلال الحركة الصهيونية اسم العالم الكبير. في اليوم الثاني لوفات آينشتاين خرجت مجلة التايمس بمقالة تأبينية، تم بموجبها نسبه الى دولة اسرائيل، "الذي كان من الداعمين لتأسيسها". ويواصل المؤلف: "ان عملية الخطف تلك شكلت بالنسبة لإسرائيل، ضربة معلم، فوق استثنائية، لم يسبق لأي مجموعة سياسية أن سددتها في أي مكان. ولكن بمساعدة مجلة التايمس، ذات النفوذ اللامحدود يصبح كل شيء ممكنا. كان عالم الرياضيات العظيم قد عارض بشدة تأسيس دولة اسرائيل، لكن الأسطورة على عكس ذلك، وقد صرّحت بشكل واسع عبر وسائل الإعلام؛ وقد تم تكرارها مرة أخرى بعد مرور 16 عاماً ".

في آذار من عام 1972 نشرت نيويورك تايمس سلسلة من المقالات التي زعمت انها وصايا آينشتاين وردت ضمن مجموعة مسوداته ورسائله. ومن بين ما نشر صورة لعالم الفيزياء وبجانبه رئيس وزراء اسرائيل، بنغوريون مع عنوان يقول "أوراق آينشتاين تروي جهوده من أجل تأسيس دولة اسرائيل". وتضمن النص بالطبع حديث عن الجهود الكبيرة التي بذلها من أجل إقامة الدولة القومية لليهود، وحزنه الشديد بسبب اعتذاره عن قبول منصب الرئيس بعد وفاة وايزمن.

يعيد الكاتب تأكيده على ان الموقف الحقيقي لاينشتاين مناقض تماما لرواية المجلة، ويشير الى ان أهمية معرفة الموقف الحقيقي لآينشتاين لا تكمن فقط في تصحيح معلومات المجلة وتقويم الأخطاء الصحفية فحسب، بل تساعد أيضا في مواصلة المساعي من أجل إقامة السلام العادل في الشرق الأوسط. ويعيد رواية موقف آينشتاين من إقامة الدولة اليهودية الذي عبر عنه في عام 1946، أمام لجنة التحقيق الأنجلو- أمريكية، والذي أعلن فيه عدم تأييده للتقسيم وعدم الحاجة الى إقامة الدولة اليهودية، وانه كان "ضدها على الدوام".

ويروي الكاتب كيف ان إحدى المجلات نشرت في عام 1952 رسالة الى "طفل من فلسطين" موقعة باسم آينشتاين، فقرر السفر الى مدينة بريستون لمقابلة آينشتاين والتأكد من موقفه الحقيقي. يقول ليلينتال:

"عندها أخبرني آينشتاين بانه لم يكن صهيونياً قط، ولم يؤيد إقامة دولة اسرائيل على الإطلاق".

وينقل لينينتال عن د. فيليب فرانك، وهو عالم وصديق مقرب من آينشتاين، ومؤرخ سيرة حياته، انه قال:

"نقطة ضعف البروفيسور هي "طيبة قلبه". لذلك تردد كثيرا في توبيخ الصهاينة بسبب تلاعبهم المتكرر بوجهات نظره، وتوظيفهم لأسمه بدون الحصول على موافقة مسبقة، وذلك من أجل تعزيز هيبتهم، وحشو صهيونيتهم السياسية من أجل إرباك الصحافة الأمريكية".

ويستعرض الكاتب عدداً من المواقف والتصريحات، التي تثبت بشكل حاسم ان آينشتاين قد عارض إقامة دولة اسرائيل، وانه ركز على أهمية البحث عن السلام الدائم بين الفلسطينيين واليهود في فلسطين (سبق أن توقفنا عند الكثير من هذه التصريحات). ويؤكد على انه منذ البداية كان مع الفكرة التي تبناها عدد من المفكرين والمثقفين اليساريين اليهود، والداعية الى إقامة دولة ثنائية القومية، دولة عربية يهودية واحدة. وكان من أشهر من أيد هذا الموقف

رئيس الجامعة العبرية في القدس .j Magnesوقد كتب آينشتاين الى التايمس شارحا موقف هؤلاء اليساريين:

" الى جانب كونهم (ماغنيس وزملاؤه) يتحدثون باسم دائرة أوسع، من الناس الذين لا يستطيعون التعبير عن آرائهم، فانهم يتحدثون باسم المبادئ التي تشكل أبرز ما قدمه الشعب اليهودي للإنسانية".

ويستخلص ليلينتال من كل هذا: "من الصعب جدا أن ينسجم مثل هذا التصريح مع ادعاءات التايمس بشأن دعم آينشتاين لتأسيس الدولة الصهيونية".

من بين المقالات الأخيرة المميزة، التي تناولت موقف آينشتاين من دولة إسرائيل مقالة د. روبرت بارسكي "Inside Albert Einsteins zionist Brain".وقد تناول فيها تأثير مواقف وآراء آينشتاين على يهود أمريكا وعلى المنظمات الصهيونية في هذه البلاد، وخاصة مواقفه الصلبة بشأن التعاون بين العرب واليهود في فلسطين، وإصراره المستمر على التعايش السلمي بين الجانبين ودعوته لقيام دولة ثنائية القومية من اليهود والعرب. ويشير بارسكي الى ان الكثير من اليهود في أمريكا كانوا يعدون آراءه بمثابة المرشد والدليل في القضايا غير العلمية. وقد كانت على الخصوص علاقة متينة بين آينشتاين والمنظمة الصهيونية الصغيرة، التي كانت تحمل اسم "المشعل – Avukah ".ومن بين الشخصيات المهمة في تلك المرحلة هو الأستاذ زيليخ هاريس، وكان على علاقة مهنية وعلمية وسياسية متينة، مع آينشتاين، وهو أستاذ نعوم شومسكي، المفكر الأمريكي اليهودي المعروف بمواقفه المؤيدة لحقوق الشعب الفلسطيني. كان هاريس ومنظمة "المشعل" مع إقامة دولة ثنائية القومية. وفي داخل فلسطين كانت هناك بعض الأحزاب الصغيرة التي كانت تؤيد هذا الموقف، وفي مقدمتها حزب هاشومر هاتزر العمالي في القدس. يشير بارسكي كيف ان مشروع التقسيم المقترح من قبل بريطانيا وأمريكا، مع نهاية الحرب العالمية الثانية، أخذ يحتل مركز الصدارة، ليس فقط في الأوساط الصهيونية، بل وفي الرأي العام العالمي. ويضيف:

"لقد كان ذلك الموقف بمثابة الضربة القاضية بالنسبة للقوى التي بقيت تناضل ضد التقسيم حتى شهر أيار 1947".

بدايات الفكر الماركسي بين الإيزيدية في العراق

صباح كنجي

من خلال تتبعي لما كتبَ عن بدايات انتشار الفكر الماركسي في العراق الى اليوم، وجدتُ أن غالبية الكتاب والمؤرخين الذين تناولوا الموضوع قد أكدوا على هذه البدايات من خلال الحلقات الماركسية الأولى التي اشترك فيها: يوسف سلمان يوسف (فهد) وشقيقه داود، حسين الرحال وشقيقته آمنة، عبدالقادر إسماعيل وشقيقه يوسف أبناء عم الرحال، وزكي خيري وعاصم فليح والخياط الآشوري المهاجر من العمادية إلى جيورجيا بطرس فاسيلي ـ بيوتر فاسيلي، والأرمني أرسين كيدور ومحمد سليم فتاح وحسين جميل وعبد الفتاح إبراهيم وزكريا الياس دوكا وغالي زويد من البصرة وعبد الحميد الخطيب.. الذين أسهب المؤرخ حنا بطاطو في شرحه التفصيلي لأدوارهم من خلال تتبعه لأولى خطواتهم.

كذلك أورَدتْ المصادر ذاتها وأسهبت في تعداد الأماكن والمؤسسات التي ساهمت في نشر الفكر الماركسي ابتداءً من: نادي التضامن وجمعية مكافحة الاستعمار في بغداد، ومسجد الحيدرخانة ونادي الشبيبة في البصرة، التي انبثق منها لاحقاً جمعية الأحرار التي تطورت إلى الحزب اللاديني، ومكتبة مكنزي وحي باب الشيخ والناصرية كمدينة هيأت بحكم وجود (فهد) فيها الإمكانية لمركزة العمل وتنسيقه من اجل زرع بذور الشيوعية في العراق.

لا بل هناك دور فعّال في نشر الفكر الماركسي في العراق من خلال مؤتمرات وفعاليات أممية غير عراقية في مقدمتها: الدور الفاعل للقنصل السوفيتي في المحمرة وعدد من المثقفين والسياسيين في بيروت ودمشق وفلسطين، بالإضافة إلى برلين في ألمانيا التي شهدت ولادة منظمة سبارتاكوس ومتاريس شوارع برلين مطالبة بحكومة عمالية، وما أعقبها من تفاعلات نشرتها جريدة الحرية (دي فرايهات) ساهمت في تشكيل الوعي الطبقي للرحال الذي كان حينها طالباً في برلين يتلقى دروسه ومعها أولى مفاهيمه الماركسية من نقاشات يجريها مع أقرانه من الطلبة الألمان.

غير ان جميع هذه المصادر أغفلت قناة مهمة أخرى لم تتطرق أو تشير إليها ولو مرة واحدة.. اقصد بها قناة رجال الدين

الأيزيديين الذين كانوا يتنقلون بين العراق ومجموعة دول روسيا القيصرية ـ أرمينيا وأذربيجان وتركمانستان وجورجيا ـ في آسيا الصغرى، عبر إيران وتركيا من خلال التجوال المنتظم بين سلسلة القرى الأيزيدية، وهم ينتقلون مصطحبين معهم السنجق من قرية إلى أخرى في تقليد ديني يتكرر في سنة يستغرق أربعة اشهر ذهاباً وإيابا.

هذه الحركة التي أكدها ووثقها المؤرخ والكاتب صديق الدملوجي في كتابه المعنون: اليزيدية.. (جرت العادة منذ القديم أن يرسل أمير الشيخان كل سنة "سنجقاً" إلى اليزيدية القاطنين في بلاد الروس لجمع نذورهم وخيراتهم. وآخر سنجق أرسله كان قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بزمن قليل، واختفت معالم هذا السنجق وطمس خبر القوالين الذين ذهبوا به خلال سني الحرب وبعدها، وأخذت الظنون تحوم حول ذهابهم ضحية الويلات التي أولدتها الحرب وانقطع منهم حبل الرجاء ونسي خبرهم)(1).

تؤكد الوقائع التاريخية ذهاب وسفر القوالين من بحزاني وبعشيقة إلى مناطق الأيزيدية في تلك البلدان. من بين الرحلات العديدة للقوالين يمكن الحديث عن رحلة عام 1913، وذهاب القوال حسين مع مجموعة من زملائه إلى تلك القرى التي أسفرت ملابسات وتعقيدات الحرب الكونية عن بقائهم في روسيا بين قرى الايزيدية لمدة 17 عاماً لا يعرف شيء عنهم، إلا ما وردَ تلميحاً لوجودهم في رواية (وجاءَ الربيع) لـ حاجي جندي.. (بالإضافة إلى ذلك فقد اجتاح نبأ حول قدوم القوالين إلى ديفور. وذات مرة طار على وجه السرعة الى قرية فيهرم وعلى حصان أسود رسول من طرفهم وأسمه حسين. أوقف حصانه في وسط القرية وأعلن بأن خدم الإله ـ القوالين على وشك القدوم إلى ديفور. وأنهم يحملون معهم السنجق. ثم اختفى الرسول) (2). مما دفع الأمير سعيد بك الذي كان يعتقد أنهم مازالوا على قيد الحياة للبحث عنهم.. (في عام 1927 أرسل قوالينِ من قرية بحزاني إلى جهة "أيرفان" للبحث عنهم، ولكن هذين القوالين أيضاً ذهبا ولم يرد منهما خبر. وبعد أن انصرفت الأفكار عن هذه البعثة ولم يعد احد يذكرها، وردَ إلى الأمير كتاب من القوال "حسين بن القوال آدو" من أيرفان يعلمه أنه ورفاقه على قيد الحياة عدا شخصين منهم، وأن القوالين اللذين أرسلهما أخيراً للبحث عنهم التحقا بهم إلا أن حكومة الروس السوفيتية قد حجزت عليهم ولم تدعهم يخرجون من بلادها، وطلب من الأمير اتخاذ وسيلة لأجل إرجاعهم إلى محلهم. فراجع الأمير رجال السلطة من الانكليز في العراق وطلب إليهم التوسط لدى حكومة الروس بالأمر فأجابوه، وبعد مخابرات دامت نحو سنة وافق الروس على إخراجهم من بلادهم واركبوهم باخرة تجارية وأرسلوهم إلى جزر بريطانيا ومن هناك جاؤوا إلى العراق وقد مضى عليهم خمس عشرة سنة)(3).

عاد القوال حسين ليروي للناس ورجال الدين تفاصيل معاناتهم في الحرب العالمية الأولى ونتائج المتغيرات المهمة لثورة أكتوبر التي اشترك جيل من الثوريين الأيزيديين بفاعلية في الاعداد والمساهمة فيها، وثقت جزءاً من تفاصيله الرواية التسجيلية ـ الراعي الكردي ـ لـ عرب شميلوف..

(اقبل عيد الأول من أيار"عيد العمال" فاستعدت المنظمة البلشفية السرية التي انتمي إليها، وهيأت لهذا اليوم عدته، كنا قد عزمنا على إقامة مهرجان أو تجمع ندعو إليه العمال والجنود لنشرح لهم المبادئ البلشفية والأسباب التي تجعل الحكومة المؤقتة ترفض إرساء دعائم السلام وإنهاء حالة الحرب.. كان من أهدافنا وقف الحرب ودعوة الجنود إلى التمرد.. وكان واجبي الحزبي يقضي بأن

أنشر بين الناس تعاليم الشيوعية وأوزع بياناتها ومنشوراتها السرية.. وكان الزيّ الكردي الذي أتسربل به خير مموه، فما كان لأحد أن يرتاب أو يشك بأمري بحال من الأحوال.. فبالكوفية والـ(شال وشابك) كنت قادراً على دخول أي مكان وأن أندس بين كل الفئات والتقي في زحمة المدينة هنا وهناك بالرفاق وأزودهم بالمنشورات.. في النهار كنت متفرغاً لعملي، وفي الليل كان لي شأن آخر.. ذات مرة كنت خارجاً من المخيم وقد حشوت جيوبي بالمناشير ومشيت بحذر وحيطة كمن يحمل على ظهره عبوات ناسفة يخشى أن تتفجر به، وإذا بي التقي بزميلي الألماني "شنايدر" فتابعت سيري ثم ما لبثت أن التقيت به ثانية في أحد المنعطفات، كنت قد ظننت أني فارقته وخيل لي آنذاك أن لقائي به كان بمحض الصدفة ولكن تكرر لقائي به في أزقة أخرى. كان يحدق فيّ كلما هممت أن أغيب عن أنظاره وكأنه يحميني من أعين الرقباء..

وقفت له وابتسمت فقال ضاحكاً وهو يلتفت ذات اليمين وذات الشمال:

ـ أذاهب أنت؟

ـ أجل إني ذاهب فمالي أراك متسكعاً هنا وهناك؟

ـ انك تراني كذلك.. خذني معك أرجوك؟

قال ذلك بحماس يشوبه الألم، نظرت إلى عينيه ملياً وقلت: إلى أين؟

ـ إلى حيث أنت ذاهب.

ـ ولماذا؟

ـ أحب أن آتي معك إني أعرف..

ـ ماذا تعرف؟ قل.. ضحك شنايدر قائلاً: لا تخشى شيئاً ولا تكتم عني أسرارك.

ـ مم أخاف؟ فقال هامساً أني أعرف واعرف منذ زمن طويل، ثم ربت على جيوبي المحشوة بالأوراق وأردف: أجل يا شمو.. اذهب رابط الجأش وأنا هنا. ثم تابع سيره بهدوء وهو يصفر دون مبالاة. فتبعته وأمسكت به قائلاً: شنايدر أأخبرت بذلك أحداً؟

ـ أمعتوه أنت ؟ أيستطيع المرء أن يفضي بمثل هذه الأمور إلى كائن من كان؟) (4).

وبحكم تواجد القوال حسين ومجموعته هناك ومواكبتهم للأحداث والتطورات الجديدة، ساعدهُ في ذلك إلمامه بالعديد من اللغات التي أتقنها وتعلمها.. إذ يؤكد معاصروه انهُ كان يجيد الأرمينية والروسية والشركسية عند عودته للعراق عام 1929 إضافة إلى العربية والكردية، تعرفوا على الفكر الشيوعي واختلطوا بالعديد من الشيوعيين وتأثروا بهم، مما جعل هذه العودة ـ التى ساهمت السيدة ميان خاتون في ترتيبها بعد أن اتصلت بالمندوب السامي البريطاني وعدد من السفراء وطلبت منهم الاتصال بالحكومة السوفيتية لترتيب أمر إعادة القوالين المتواجدين في الاتحاد السوفييتي، ليعودَ عبر لندن اثنان منهم إلى بحزاني نزلا في بيت الكوجك سنجو الشخصية المتنفذة والمعتبرة آنذاك بين الايزيديين.

كانت عودة القوالَين محملة بأفكار ومعطيات جديدة ناجمة عن معرفة وإدراك عميق لأوضاع دول الاتحاد السوفيتي وسياسة الشيوعيين وطبيعة تعاملهم مع الأيزيديين وبقية الشعوب وينقل عن ذلك معاصروه:

انهُ بدأ يتحدث للناس عن سياسة البولشفيك في الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين الكادحين المنخرطين في صفوف المجالس المشكلة في المدن والقرى وتعاملهم المنفتح مع الايزيديين، فدخلت مصطلحات ومفاهيم جديدة في لغة التداول اليومي توصف طبيعة الصراع الاجتماعي بين الإيزيدية، وهو في جوهره صراع بين

الفلاحين الكادحين وأطراف من بيت المير الأقرب إلى الإقطاعيين بالوصف الطبقي التقليدي.. حيث انقسمت أطراف الصراع إلى بلجويك ومنجويك في استعارة تشبيهية لما جرى من صراع في روسيا بين البولشفيك والمنشفيك..

لقب بالمنجويك بالإضافة إلى عائلة المير التي كانت تمر بمرحلة صراعات داخلية حادة في اعقاب مقتل الأمير علي بك في قصره عام 1913، وتفاعلاتها التي قسمت العائلة الى فريقين متضادين، عدد من القوالين الملتفين حولهم في المقدمة منهم القوال سفو وأقرباؤه من عائلة القوال حسن وعدد من شيوخ العشائر التابعين لعائلة المير..

أما البلجويك الذين التفوا حول القوال حسين العائد من الاتحاد السوفيتي الذي لقبَ بقوالي صور/ سور أي الأحمر والمتضامنين معه من أهالي بحزاني في مقدمتهم القوال باسو، ابتداء من وصوله واستقباله الجماهيري الذي يؤكده الفقير حجي.. انه يتذكر يوم عودة القوال حسين والاحتفالات التي رافقت قدومه عام 1929 بعد 15 عاماً من مغادرته، وسمعَ منهُ لأول مرة أسماء لينين وستالين مشفوعة باهتمامهم بالأيزيدية.. مع أخبار القوالين الذين بقوا هناك ووفاة القوال حسن زيري في جمهورية أرمينيا..

في كتاب.. الإيزيدية.. ينقل الدملوجي من خلال حوار مطول.. بعنوان ملاقاة مع القوال حسين بن القوال آدو الباعذري.. (قصدتُ مرقد الشيخ عدي يوم 13 حزيران 1930 بغية الملاقاة مع القوال حسين والوقوف منه على يزيدية تلك البلاد فوجدته رجلا في مقتبل العمر يحسن التكلم بالتركية والروسية وشيئاً قليلاً من الأرمينية و الجركسية، قد هذبه الاغتراب وأوسع في عقله. وبعد أن أفهمته الغاية التي أتيت إلى المرقد المبارك من اجلها أجابني انه سوف لا يدخر وسعاً في إيقافي على كل ما أروم الإطلاع عليه.. ثم أخذت القي عليه الأسئلة..

س: كم كانت مدة إقامتكم في بلاد السوفييت؟

ج: خمس عشرة سنة.

س: هل واصلتم المير بأخباركم طيلة هذه المدة؟

ج: نعم إننا لم ندخر وسعاً في مواصلته بأخبارنا منذ اليوم الذي وطأت أقدامنا هاتيك البلاد.

س: كم كان عدد القوالين الذين كانوا معك بهذه الرحلة، وهل عدتم جميعاً أم تخلف احد منكم؟

ج: كنا سبعة قوالين: خليل بن القوال خدر، ورشو بن القوال مراد، والياس بن القوال برو، وحجي بن القوال علين وحسين بن القوال مادو وخادمكم أنا. وقد مات القوال علي بن القوال رشو والقوال حسين. ولما انقطعت أخبارنا عن أمير الشيخان، أرسل القوال حسن بن القوال خدر والقوال رشو بن القوال حجي (كلاهما من قرية بحزاني) للبحث عنا وجاءا واجتمعا بنا.

س: كيف كانت حالتكم هناك؟

ج: حسنة جداً ولم نلاقِ ضيقاً إلا في العامين الأخيرين.

س: أين كان محل إقامتكم؟

ج: لم نبق مجتمعين في محل واحد، بل اختار كل واحد منا المحل الذي طابت له الإقامة. وكان محل إقامتي قرية "كروانسرا " في ولاية الكساندرابول.

س: ما هي المناطق التي يسكنها اليزيدية هناك؟

ج: هي تفليس، أريفان، الكساندرا بول، باكو، باطوم

س: ألم تعارض حكومة السوفييت

اليزيدية، في أمورهم الدينية وعبادتهم؟

ج: لم يكن تدخل السوفييت في الأمور الدينية كما تسمعونه، بل لكل فرد من أفراد الشعب الحرية التامة في أن يتمتع بعقيدته ودينه، فإذا كنتم سمعتم بمعارضتهم في تشييد المعابد الدينية وبمعارضتهم لرجال الدين فذلك صحيح، إلا أنهم لم يقصدوا بذلك مناهضة الأديان والقضاء عليها بل توجيه الناس إلى الأعمال المثمرة وتخليصهم من الكسل والعطالة وان لا ينصرفوا إلى الدين وحده ويكونوا عضواً عاطلا في المجتمع.

س: هل ترون أن يزيدية تلك البلاد سيعصون بالنواجذ على ديانتهم، أم ينقادون لمجرى التطور الذي حصل في حالة الشعوب التي يضمها النظام السوفيتي ويتساهلون فيها؟

ج: لا أستطيع أن ابدي لكم رأياً صحيحاً، إلا أن الذي أعرفه أن التعصب الديني الذي نجده في بلادنا لا اثر له هناك.

س: هل يمكنكم أن تصوروا لي حالة اليزيدي الدينية والاجتماعية في تلك البلاد؟

ج: يؤسفني أن أقول لكم أن رجال الدين الذين هم في تلك البلاد ليس لهم ما لرجال الدين عندنا من قيمة مادية أو أدبية، فوظائفهم محدودة ولا سبيل إلى ممارستها والشعب اليزيدي لا يقدم لهم النذور والخيرات التي فرضتها الشريعة، واليزيدي يتمتع بعين الحقوق التي يتمتع بها غيره من ذوي الأديان السائرة، وليس على رأسه سيد يشاركه في محصول سعيه، ومعيشته راقية جداً والمرأة اليزيدية تتمتع بحريتها الكاملة وتلبس ما يروق لها من الألبسة الحريرية ذات الألوان الزاهية، والتعليم إجباري ويندر أن تجد بين ناشئتهم الجديدة من لا يحسن القراءة والكتابة.

س: من هم الذين يوجدون من رجال الدين في تلك البلاد وكيف وجدوا فيها؟

ج: يوجد كثير من الشيوخ والبيرة وبيت واحد من البسميرية.. أما كيف وجد هؤلاء هناك فذلك لا أعلمه ولكن لا جدال في إنهم هاجروا من ناحية الشيخان منذ عهد بعيد.. والبيت الوحيد من البسميرية بيت آلي بك وكبيرهم الآن يوسف بك الذي قلدته حكومة الروس السوفيتية مناصب في الدولة ويسكنون مدينة الكساندرابول.

س: هل صحيح أن حكومة السوفييت أخرجت السنجق من أيديكم؟

ج: كلا وقد احتفظنا به إلى حين رجوعنا إلى بلادنا)(5).

يمكن التأكيد أن الحركة التي انطلقت مع عودة القوال حسين من بحزاني وولدت نشاطاً سياسياً محتدماً بين الإيزيديين، وقسمتهم إلى البلجويك والمنجويك، إعْتبرَتْ تمرداً وتطاولاً على مؤسسة المير، وقد اقتربت من نشوء الحزب في تنظيمها وانضوت فيها شخصيات مهمة عرف منهم: سيدو حمو ومال اللّه دومان وعلي جرواني من جروانه، ومن باقسري القديمة رفو باقسري، وبير علي مام رشي، ومراد الدوغاتي.

ولعبت دوراً مهماً في دعم الحركة وتشجيعها عائلة البابا شيخ، بالذات الشخصيتان البارزتان فيها - اسماعيل وحجي - والأخير كان منافساً قوياً لبيت المير، أخذ يوسع من نشاطه وقام بزيارة شخصيات تقدمية في بغداد وأربيل والموصل عرف منهم كامل قزانجي والجادر ومهاجر كوردي من تركيا.. ساعده أيضاً وسهل مهمة حركته للتعرف على من كان يسعى اليهم وجود الشيخ هسن برقي في كمب الأرمن بعد نقله من البحرية إلى الشرطة في بغداد. وتوجت نشاطات الحركة بحجز السنجق مع القوالين في سنجار من قبل

البلجويك بتوجيه ودعم من شيخ خلف ودخيل سيدو وبتنسيق ودعم غير معلن من اسماعيل بك المختلف مع ابناء عمومته من عائلة المير، ولم يمتثل السنجاريون لأوامر المير سعيد بك لغاية وفاته عام 1946 كذلك اصطف شيوخ شيخ بكر مع البلجويك ورفضوا ممارسات بيت المير وتجاوزاتهم على حقوق الفلاحين.. وفي الشيخان لعب بير مامكو وصديقه التقدمي والشيوعي لاحقاً علي الجمل(6) دوراً مهماً في دعم توجهات مجموعة البلجويك من بدايتها.

في الوقت الذي تعمق الانقسام بين الإيزيديين كطرفين متصارعين اطلق عيه دوشق - دوبنداي.. هبت عوائل النجفي والعمري وكشموله الإقطاعية في الموصل لدعم عائلة المير مع بقية المعاضدين لها بين الايزيديين، وفي مقدمتهم قاسو بارو و سيدو آغا من ختارة والقوال سفو صديق المير سعيد بك و مجيور شيخكة الذين ساهموا في تنصيب تحسين بك لاحقاً كأمير للإيزيدية رغم صغر سنه، وسعوا لفرض بابا شيخ موالياً لهم من شيخكة على الايزيدية ليكون بديلا لمن لا يؤتمن لميوله الفكرية وتوجهاته الاجتماعية في الحقبة اللاحقة المحتدمة لتلك الأحداث المهمة. ويؤكد المعمرون من الذين عاصروا الأحداث أن عائلة المير فقدت السيطرة على الأيزيدية بشكل كبير ولم يكن لها تأثير إلا في بعض مناطق الكند والقائدية وسميل، وانعكست هذه التطورات على وضع الإمارة وأدت الى تقارب جناح يتزعمه حسين بك وسيدو بك من البلجويك وطالبوا بانتزاع سلطة المير سعيد بك وكادت ان تصل محاولاتهم الى استخدام السلاح لتحقيق هذه الغاية، بعد ان التف عدد من المسلحين حول حسين وسيدو بك في قرية محمودة التي تحولت لمقر لهم يستقطب المزيد من المؤيدين.

في سنة 1969 أرسل حيدر نزام رسالة إلى القسم الكردي في إذاعة يرفان وطلب إعطاء الرسالة إلى شخص إيزيدي يدعى - كرمي زيان يعمل في المحطة كمذيع ليوصلها بدوره لأبيه طبيب الأسنان.. الذي كتب رداً باللغة العربية وأرسله للسيد حيدر يؤكد فيها: .. أن القوال حسين كان عندهم.. ويطلب إرسال الرسالة لهُ. وقد اخبر القوال مالو عائلة المير بهذا الطلب.. ولم يمانع المير من تواصل المراسلة.. وهكذا أرسل القوال آدو بن القوال حسين رسالة إلى إذاعة يرفان وتلقى جواباً عليها.. ويمكن الاستفسار من أحفاده إن كانوا يحتفظون بها للمزيد من المعلومات.

نستطيع التأكيد على أن انتشار الأفكار الماركسية وشعبية الشيوعيين بين الأيزيدية تمتدُ إلى تلك الأيام، التي سبقت تكوين الحزب الشيوعي العراقي والحلقات الماركسية الأولى، هذا ما يفسر سرعة تلقي العشرات من الأيزيديين وانتسابهم للخلايا الشيوعية مع أول اتصال أو فرصة التقاء بين الشيوعيين والطلبة الأيزيديين، ممن وصلوا إلى بغداد والموصل وكركوك حيث تشكلت بواكير الخلايا الشيوعية بين الإيزيدية من جيل طلبة دار المعلمين الريفية وبقية المؤسسات التعليمية، كان في مقدمتهم الشيخ حسين ومال اللّه ديوالي والياس خلو وجمعة كنجي وشيخ صبري وحسن ديوالي وسليمان أفندي وخدر حجي مادو والعشرات من جيل المعلمين.. وقد ساهم عدد من الطلبة الشيوعيين في مؤتمر السباع الخالد الذي انبثق عنه أول تنظيم طلابي مهني باسم اتحاد الطلبة العراقي العام.

كذلك توجد معلومات عن وجود صلة لعدد من الشيوعيين الأيزيديين منهم الفلاح جمعة الذي يعرف شعبياً جمعة في صفوف إحدى خلايا التنظيم الشيوعي في الموصل من عام

1943 . وأيضاً بات في حكم المؤكد انتساب البابا شيخ لحزب هيوا/ الأمل ولا نعرف هل كان من المؤسسين له أم لا؟.

أما عن رعيل الشيوعيين الأوائل الذين يمكن التطرق إلى بدايات عملهم السياسي فيمكن الحديث عن أسماء: البير حيدر مجيور وشيخ زنندين من الشيخان وعزام وجوزل في سنجار وشيخ عبو في باعذرة والفقير خدر من بوزان وإسماعيل كجل وعلي خليل ـ أبو ماجد من دوغات وعلي بفري من فايدة وكثيرين غيرهم.. هؤلاء هم الجيل اللاحق لحركة البلجويك بين الايزيدية التي تشكلت قبل تأسيس الحزب الشيوعي العراقي مع عودة القوال حسين من الاتحاد السوفيتي إلى بحزاني عام 1929 وما اعقبها من تطورات لم ينتبه اليها المؤرخون.

الهوامش

1- صديق الدملوجي.. اليزيدية.. ص 310

2- حاجي جندي رواية وجاء الربيع ص 244 دمشق مطابع دار الحافظ 1993 ترجمة اسماعيل حصاف.

3- الدملوجي.. اليزيدية.. ص 310

4- عرب شمو.. الراعي الكردي.. ترجمة توفيق الحسيني مراجعة وتقديم عزيز داود.. تنضيد دار الكتاب العربي دمشق 1988، مطبعة الصباح.

5- الدملوجي، المصدر نفسه.

6- من الضروري الإشارة الى أن علي الجمل رغم دوره المهم في هذا المجال لم يكن يزيدياً بل صديقاً لهم عاش معهم بحكم تواجده في الشيخان وأصبح من أشهر الشيوعيين فيما بعد.

7- القوال ـ القوالين هم رجال الدين المرافقين للسنجق ممن يحفظون الأدب الشفاهي الأيزيدي ويرددونه في المناسبات الدينية على انغام الناي ونقر الدفوف المقدسة.

8- السنجق ـ الطاوس هو البيرق الذي يرمز لطاووس الملائكة ينقل من قبل القوالين في المناسبات الدينية وينطلق من بحزاني في رحلة تشمل قرى ومدن الايزيدية في العراق وسوريا وتركيا وبلدان اسيا الصغرى التي يتواجد فيها الايزيديون.

9- بحزاني قرية في سفح الجبل الممتد في شعاب المقلوب تبعد عن الموصل 15 كيلومتراً تابعة لناحية بعشيقة وتتداخل معها وهي مركز تواجد القوالين الذين يتوارثون الأدب الشفاهي الديني للايزيدية.. وهي مركز حضري قديم يمتهن سكانها زراعة الزيتون وصنع الصابون فيها المئات من معامل النسيج اليدوي المانيفاكتورة.. برز فيها جيل من الشيوعيين المنظمين في صفوف الحزب الشيوعي العراقي من بداية الأربعينات.

المصادر:

1- حنا بطاطو كتاب العراق

2- صديق الدملوجي كتاب اليزيدية

3- أحاديث مباشرة مع الدكتور جمال عبدالله سليمان وسالم القوال وعيشة القوال وبدل فقير حجي ومحمود خضر وسعيد دوغات.

4- وثائق المؤتمر الأول للحزب الشيوعي العراقي.

5-كتاب مذكرات إسماعيل جول بك.

6-وجاء الربيع حاجي جندو.

7-اعداد من مجلة (الثقافة الجديدة).

8- كتابات زكي خيري ومذكراته.

9- الراعي الكردي، عرب شميلوف.

تعقيب

الرفاق الأعزاء في مجلس تحرير "الثقافة الجديدة"
تحية رفاقية حارة

لأسباب معينة تأخر اطلاعي على الاعداد الأخيرة لمجلتنا الغراء "الثقافة الجديدة". وخلال قراءتي للعدد 345 لاحظت بعض الأخطاء التاريخية في مقال الأستاذ فاضل عباس البدراوي الموسوم "عندما كان الشهيد عبدالرحيم شريف مبعداً في بدرة".

فقد جاء في الصفحة 20 ما يلي: "في بداية عام 1959 جرت اتصالات بين الحزب الشيوعي العراقي والرفيق الخالد سلام عادل ومنظمة حزب وحدة الشيوعيين، أثمرت عن حل المنظمة واندماجها مع الحزب الشيوعي". من المعروف أن ذلك جرى في عام 1956 وذلك مثبت في الصفحة 13 من العدد نفسه. ويبدو أن هناك خطأ مطبعياً أو زلة قلم وفي كلتا الحالتين أنه نشاز مزعج في مجلة مثل مجلة "الثقافة الجديدة".

وجاء في نفس الفقرة من المقال ما يلي: "وفي خريف العام نفسه انتخب الرفيق عبدالرحيم شريف عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي بعد انعقاد الكونفرنس الحزبي". لقد انتخب الرفيق في الكونفرنس وليس بعده. وهذا مذكور في الصفحة 13 من العدد نفسه. وكان يجب تصحيح الخطأ.

وجاء في المقال نفسه الصفحة 20 ما يلي: "لا أدري بالضبط هل انتهت مدة ابعاده وغادر إلى بغداد أم هرب من بدرة...". من المعروف أن البطل عبدالرحيم شريف قد هرب من بدرة، وهذا مثبت أيضاً في الصفحة 13 من العدد نفسه. وكان على المحرر التدخل بجملة اقتحامية، إن لم يكن التصحيح المباشر لنص الكاتب مستساغاً، وتأكيد هذه الحقيقة لإزالة الشك باليقين.

وفي المقال نفسه وفي الصفحة 19 جاء ما يلي: "وقد اعتقلت السلطات عبدالرحيم شريف في عام 1949 وحكم عليه بالسجن أربع أو خمس سنوات، ولا أتذكر بالضبط...". من المعروف أنه سجن لمدة خمس سنوات، وهذا مثبت أيضاً في العدد نفسه الصفحة 12. هنا أيضاً كان على المحرر التدخل وتثبيت التاريخ المضبوط.

عزّ علي أن أتجاوز هذه الأخطاء بالرغم من عدم أهميتها الكبيرة، وأنا أرى التطور الملموس على المجلة شكلاً ومضموناً. متمنياً لكم مزيداً من العطاء والإبداع، ولمجلتنا مزيداً من التألق والانتشار.

مع خالص مودتي وتقديري
جاسم الحلوائي
22 **نيسان** 2012

تعقيب

الرفاق الأعزاء في مجلس تحرير "الثقافة الجديدة"
تحية رفاقية حارة

وردت بعض المعلومات غير الدقيقة في مقال الأستاذ ماجد زيدان الربيعي الموسوم "موقف الحزب الشيوعي العراقي من الجبهة الوطنية والقومية التقدمية" العدد 349.

ففي الصفحة 31 ورد ما يلي: "فقد أطلقت السلطة النار على عضو اللجنة المركزية للحزب ستار خضير وهو في المعتقل" الصحيح، هو أن النار أطلقت عليه وهو في الشارع.

وجاء كذلك في نفس الصفحة ما يلي: "وفي ايلول 1969 قتل عبد الأمير سعيد عضو قيادة بغداد. وأغتيل عضو اللجنة المركزية علي حسن البرزنجي في كركوك".

الصحيح أن الاثنين استشهدا تحت التعذيب.

وجاء في نهاية نفس المقال ص37 بعض المعلومات غير الدقيقة عني مثل: لم يكمل دراسته الابتدائية.. وأنتمى إلى الحزب الشيوعي عام 1945. الصحيح أنني أكملت الدراسة الابتدائية.. وانتميت إلى الحزب الشيوعي في عام 1954.

مع خالص مودتي وتقديري
جاسم الحلوائي
28 مايس 2012

نصوص قديمة

هذا النص، الذي كتبه الراحل الكبير عبد الرحيم شريف (ت 1917)، عمره تسعة وستون عاما بالتمام والكمال فقد صدر في بغداد في 1943/7/28. ولكن رغم هذه الفسحة الزمنية الطويلة نسبيا ما زال العديد من جوانبه طافحاً براهنيته. ففي النص حلل الفقيد الظاهرة الفاشية وأرجعها الى جذورها الفعلية مبينا انها ليست منتوج شخص - كموسوليني - بل لها جذور وعوامل تاريخية. كما ان رحيل موسوليني - بحسب الكاتب - "لا يكفي القول بان الفاشية قد استؤصلت جذورها وان البشرية قد تخلصت منها نهائيا". كما ان الراحل، ورغم انه كتب هذا النص وعمره لا يتجاوز الستة والعشرين عاما، إلا أنه وبنظرته الثاقبة واستنادا الى المنهج الماركسي، تنبأ بانهيار الفاشية عندما كتب قائلا: "لا شك في ان انهيار الحكم الفاشي في ايطاليا عسكريا بداية لانهيار المانيا الهتلرية، وان انهيار المانيا الهتلرية سينهي هذه الحرب القائمة". وهو ما تحقق فعلا.

اننا نحرص على قراءة هذا النص لأنه جدير بالقراءة حقا.

(الثقافة الجديدة)

علام يدل سقوط موسوليني؟ *

عبد الرحيم شريف

في ساعة متأخرة من ليلة الخامس والعشرين من شهر تموز 1943 اذاعت محطة اذاعة روما نبأ استقالة دكتاتور ايطاليا الدوتشي السنيور بنيتو موسوليني من منصب سكرتارية الدولة، ومن رئاسة الوزراء وقيادة القوات المسلحة، وقد قبِل ملك ايطاليا هذه الاستقالة وعيّن المارشال بادليو رئيسا للوزارة وتقلد الملك قيادة الجيوش العامة، ولقد رأى كثير من الناس في هذا الحادث نهاية الحكم الفاشي في ايطاليا! (....)

ولا شك ان سقوط دكتاتور ايطاليا وزعيم الحزب الفاشي الإيطالي يدل دلالة قوية على تصدع اركان نظام الحكم الفاشي في إيطالية وتأزم الاحوال فيها وحراجة موقف هذا الطاغية.

ان الحكم الذي كان يمثله هذا الدكتاتور لم يقم على ذرة من رضا جماهير الشعب الايطالية واختيارها، ولا على مصالح هذه الجماهير، وإنما قام من اول يومه على القسر والإجبار لخدمة مصلحة حفنة من رأسماليي إيطالية، ثم سخر الشباب المخدوع بأحلام الفتح وتجديد الامبراطورية الرومانية، وتعزز بالانتصارات الباهرة التي نالتها الجيوش الهتلرية باحتلالها البلاد الاوربية بلدا بعد آخر، مما زاد من غرور الزعيم وأفسح له مجال الوقوف في شرفة قصر البندقية بين حين وحين، والتبجح بالانتصارات التي لم يكن نصيب الشعب الايطالي منها إلا الدماء وإلا الدموع. على ان احلام موسوليني لم تلبث ان تبددت وانهارت اركانها ركنا بعد آخر، اذ منيت جيوشه وجيوش حليفته المانيا الهتلرية بالجبهة الشرقية بانهزامات شنيعة،

اثبتت سخف الخرافة القائلة بعدم امكان كسر الجيش الألماني وفتحت أعين الفاشيين وأذانهم على حقائق مرة جديدة، كان الجهل والغرور قد اعمى عينها، وهيأت الفرصة لجيوش الحلفاء ان تتأهب وتضرب المحور ضربتها الشهيرة في العلمين. وقد اخذ يهصر انهزامات جيوشه المتتالية وانهيار امبراطوريته، التي كان يمني بها الحالمين المخدوعين من شباب ايطاليا. ولم يقف الامر عند هذا الحد، بل ان ارض الوطن الايطالي قد اقتطعتها جيوش الحلفاء، وأصبحت مدن ايطاليا بأسرها عرضة للغزو وتتهيأ للغارات الجوية العنيفة.

ان الانكسارات العسكرية لا تكفي وحدها في الواقع لزعزعة اركان نظام، ما لم يكن ذلك مصطنعا، لا صلة له بالشعب الذي فرض عليه، إلا صلة الاكراه. فلقد مني الاتحاد السوفياتي في خسران كثير من اراضيه، وتحملت شعوبه مشاق وأهوالا لم يحتمل بعضها شعب من شعوب العالم. ولكن ذلك لم يزد الشعوب السوفياتية إلا التفافا حول زعمائها وإلا تمسكا بنظامها واستماتة في الدفاع عن اوطانها التي وجدت فيها السعادة في ظل ذلك النظام.

اننا لا نشك في ان سقوط موسوليني دليل قوي على تصدع اركان الحكم الفاشي في إيطاليا، وعلى حراجة موقف الدكتاتور الساقط، غير اننا لا نذهب مع القائلين ان الفاشية على وشك الانهيار ان لم تكن قد انهارت! (....). اننا لا نشارك اصحاب الرأي هذا فيما يرون، لان زعامة موسوليني او غيره لا يمكن ان تكون ركنا تقوم عليه الفاشية في بلد ما، ولان للفاشية عوامل تاريخية قامت عليها. بل اننا نذهب الى اكثر من ذلك فلا نرى حتى في سقوط الحزب الفاشي في ايطاليا كفاية للقول ان الفاشية قد استؤصلت عروقها، لان الفاشية ظاهرة عالمية، وهي وان ظهرت في ايطاليا قبل غيرها من البلاد، إلا ان رأس رمح الفاشية موجود في ألمانيا، ممثل بالجيوش الهتلرية التي لم تزل على شيء لا يستهان به من القوة. (....) على ان العسكرية الهتلرية، وان كانت الركن الاساسي الذي يمثل الفاشية اليوم، إلا ان للفاشية زوايا بؤراً تعيش فيها كما يعيش المكروب في كل البلاد المحورية، وفي اكثر البلاد غير المحورية.

ولا شك ان سقوط موسوليني دلالة على تصدع نظام الحكم الفاشي في ايطالية بشيرا بدنو ساعة انهيار الحكم الفاشي فيها. وقد نسمع في القريب قيام الشعب الايطالي في وجه الحكم العسكري وإجبار حكومته على ايقاف القتال والتخلص من الهتلرية الالمانية والخروج من هذه الحروب التي فرضها عليه زعماء الفاشية الخائفون دون ان يكون له أي رأي او مصلحة في خوض غمارها.

ولا شك في ان انهيار الحكم الفاشي في ايطاليا عسكريا بداية لانهيار المانيا الهتلرية، وان انهيار المانيا الهتلرية سينهي هذه الحرب القائمة. ولكن حتى انتهاء هذه الحرب، لا يكفي القول بان الفاشية قد استؤصلت جذورها وان البشرية قد تخلصت منها نهائيا، وهذا ما سيضطرنا على ان نأتي على تحليل الاحوال المادية والسياسية التي قامت عليها الحركة الفاشية في بلادها، ومهدت الدعاية الفاشية في بلادنا العربية وغيرها، بالإيجاز الذي تقتضيه هذه الرسالة، بعد ان نأتي بكلمة عن تاريخ موسوليني ونصيبه في قيام هذا النظام.

*****

ولد موسوليني في اليوم التاسع والعشرين من شهر تموز عام ١٨٨٣ في (فورلي) من

مقاطعة رومانيا التي تفتخر بإنجاب عدد غير قليل من رجال العصابات، امثال باساتور الذي وصفه الشاعر الايطالي باسكولي "انه ملك الغاب وقاطع الطريق". وقد نشأ في شبابه نشأة ظاهرها ثوري لالتحاقه بالحركات المعارضة واتخاذه الشعارات الثورية، ولكنه لم يكن في الحقيقة سوى مغامر يتبع الامواج العاتية في التيار السياسي كي يطفو عليها ويظهر من فوقها. وما ظن البعض بأنه ثوري إلا لجهلهم طبيعة صفة الثوري التي من اخطر عناصرها وعي الانسان وإدراكه لنقائص النظام الذي يعيش فيه، وسعيه على خطة عملية لقلبه والاستعاضة عنه بنظام آخر. ولا يكون هذا السعي مخلصا، إلا اذا كان هدفه تحسين حال المجتمع. ولم يكن تظاهر موسوليني بالاشتراكية والثورية والمعارضة إلا في سبيل الظهور على امواج التيار الثوري، الذي غمر ايطاليا في ذلك الوقت. ولهذا فانه بينما كان يعارض الحملة الليبية في عام 1911 ويقف موقفا مضادا للعسكرية، اشترك في عام 1914 في تنظيم "الاسبوع الاحمر" الذي قصد فيه تعبئة الجماهير ضد الرأسمالية. وبينما كان يسخر من انضمام بلجيكا الى الحلفاء، ويتغنى بالحياد، ويندد بالحرب الاستعمارية، اذا به في عام 1915 يدعو فجأة الى الانضمام الى الحلفاء! وذلك لان الحكومة الرجعية الفرنسية تمكنت من شرائه بالمال فترك جريدة (افانتي) التي كان يلبس بها ثوبه الثوري، وأصدر جريدة (بوبولو ديتاليا) بنقود الحكومة الفرنسية، واخذ يدعو الى خوض الحرب "التحريرية!". وعندما وضعت الحرب العالمية (الاولى –المحرر) اوزارها وكانت الموجة الثورية في ايطالية قد بلغت اوج شدتها وجد ان الظروف ملائمة ليلعب لعبته، فمن جهة كان الرأي العام في ايطالية يشعر بخيبة واستياء من معاهدة الصلح، ومن جهة ثانية كانت الطبقات الحاكمة تخاف من حركة الطبقة العاملة والتيار الثوري الذي اخذت تشعر به وبتهديده المباشر، فسار على سياسة كانت مزيجا من الوطنية الشوفينية التي تدعو الى احياء مجد روما القديم وتجديد الامبراطورية الرومانية –من المبادئ الجمهورية، لينال تأييد الجماهير التي تألبت على الملكية الإيطالية ومن الشعارات الثورية الاشتراكية، لينال تأييد جماهير العمال الناقمة على الرأسمالية.

ولا بد من التنويه بان الحركات الثورية كثيرا ما يرافقها موجات تأخذ الواناً ثورية من الشعارات التي تصطنعها، وكثيرا ما تنخدع الجماهير بتلك الموجات الكاذبة. فمن الواجب ومن ضرورات الكفاح ان يفرق بين هذه الموجات وبين الحركات الثورية الحقيقية. واخطر ما يميز هذه الحركات الكاذبة هو جمعها بين النقائض وسعيها الى نيل تأييد مصالح متناقضة باتخاذ شعارات جميع هذه المصالح، تارة بصورة صريحة مكشوفة، وتارة بأساليب تلميحية. وتمتاز هذه الموجات بصفتها التذبذبية، فإذا قوى التيار الثوري ازدادت تظاهرا بتأييده، حتى اذا نالت رضا الجماهير الثورية، وامتطت صهوة الفرس ولزمت بيدها العنان، قادت الجماهير الى طريق ملتوية وسدت في وجهها طريق الثورة الاجتماعية. اما اذا كان التيار الثوري ضعيفا فان تلك الموجات الكاذبة، لا تنفك تطعن المناضلين كلما وجدت الى ذلك سبيلا، لأنها تخشى ان يفضح نضالهم الجدي اساليبها الزائفة ويقضي على زعامتها الكاذبة.

ولو كان الشعب الإيطالي وبالأحرى لو كانت جماهير العمال في ايطالية واعية منظمة لما

وجدت حركة موسوليني وغيره من الحركات الكاذبة الخادعة محلا في تاريخ ايطاليا الحديث، غير الزوال العاجل وغير قبرها في مهدها. ولسنا نذكر هذه الحقيقة لمجرد علاقتها بظهور الفاشية، وإنما نذكر بها جميع المناضلين في سبيل الحرية ولنضعها نصب اعيننا في جهادنا.

وهكذا كان لموسوليني ان يبدأ بالشعارات الثورية وينتهي بأشد اساليب الحكم وحشية ورجعية للمصالح الرأسمالية المتفسخة فوصل الى الحكم في تشرين الاول 1922 حين زحف على روما، بعد ان تمكن من ان ينال عطف بعض الجماهير، وتأييد كبار الرأسماليين، والطبقة العسكرية والبلاط، تأييدا ماديا.

وكانت فاتحة اعماله نشر الارهاب في ربوع البلاد وارتكاب انواع القتل والاغتيال الفردي لزعماء المعارضة والاضطهاد الاجماعي بحل جميع المؤسسات الشعبية.

ان تاريخ موسوليني ملطخ بدماء عمال ايطاليا والشعب الحبشي والشعب الاسباني وبدماء العرب والألبانيين واليونانيين خاصة، وبدماء جميع شعوب اوربا التي منيت بالغزو الفاشي. كان تاريخ موسوليني سلسلة من الاكاذيب والتقلبات. فمن وطني الى جمهوري ضد الملك الى ملك شوفيني يطرح نفسه عند قدمي الملك، ومن اشتراكي الى خادم للرأسمالية والرجعية.

وخير ما يصوره تهكم ماتيوني (زعيم نقابات العمال) الذي مني بالقتل مع من ذهب ضحية الفاشية من ابناء الطبقة العاملة، اذ يرفع بيده جريدة موسوليني (بوبولو ديتاليا) عدد 28 ايلول 1920 في مجلس النواب الذي كان يلفظ اخر انفاس العهد البرلماني في ايطاليا – ويقول له: ماذا حل ببرنامجك السابق؟ ويقرأ في نسخة الجريدة كلاما يحمل امضاء الدوتشي الصريح "ان ثورة 1920 الايطالية – ويقصد بها احتلال البروليتاريا للمصانع – انما هي جانب من الثورة الفاشية". ثم يسأله: هل تنكر هذا الآن؟ كيف تفسر ان الفاشية وهي تلعب دور الزانية قد انتقلت من فراش الطبقة العاملة الى فراش الطبقة الرأسمالية؟. انت صرحت امام الهيئات العمومية وكتبت: ان الفاشية لن تطرح نفسها على قدم الملك، لان الملك لا رابطة بينه وبين فكرة الوطن. وقد كنت اول من طرح نفسه على قدمي الملك، انت يا من كنت تريد اعلان الجمهورية. كيف تشرح هذا؟ انت اعلنت ان قتل الملوك واجب أدبي وان الماليين قطاع طرق، وحاربت الجيش، وهاجمت الاكليروس (رجال الدين – المحرر)، وأنت اليوم اول محام عن هذه الشخصيات وعن هذه الافكار. كيف تفسر ذلك؟ وقد كان جواب موسليني في سره: ان الفاشية لم تكن في خدمة الطبقة العاملة في يوم ما؟ وكان جوابه العمل على قتل هذا السائل الجسور.

فخيانة موسوليني وتذبذباته لم تكن مجهولة من الشعب الايطالي ولم يكن علمها قاصرا على قادة امثال (ماتيوني)، فقد ظهرت كتابات في شوارع بولونيا (في ايطالية) "من يخن مرة واحدة يخن مرتين" وكانت الملح التي تجري على ألسنة الايطاليين كثيرا ما تمتزج بالسخرية من خيانة موسوليني وتقلباته.

****

لم نورد هذه الترجمة المختصرة لحياة موسوليني لنعرف منها تاريخ الحركة الفاشية، لان تاريخ هذه الحركة لا يمكن ان يدرس في شخصية زعيم من زعمائها، وما موسوليني وهتلر من هذه الحركة إلا كالأخشاب تطفو في رأس التيار وان كنا لا

ننكر ان لمثل هذه الشخصيات اثراً في تلك الحركة.

فالفاشية في الحقيقة، انما هي سلاح الرأسمالية الاحتكارية اتخذته بعد ان لم تعد الوسائل الديمقراطية البرجوازية كافية للمحافظة عليها وعلى مصالحها امام التيارات الثورية والحركات التقدمية، التي اخذت في الانتشار بعد الحرب العالمية الماضية في كثير من انحاء العالم، وخاصة في ايطالية وألمانية، وقد وصف المؤتمر السادس للشيوعية الدولية، الحركة الفاشية بما يلي: "ان الصفة المميزة للفاشية، هي ان الطبقة البرجوازية، بالنظر الى الهزات العنيفة التي اصبح يعانيها النظام الاقتصادي الرأسمالي، وبالنظر الى بعض الظروف المادية والشخصية، اخذت تستغل تذمر الطبقات البرجوازية الصغيرة من فردية ومدنية، وبعض الطبقات العاملة غير الواعية، فتقيم من هذا المزيج حركة رجعية جماهيرية، تبني عليها حكما مستندا على اساليب العنف الصريح لتعيق نمو الثروة وتحطم قوة منظمات العمال والفلاحين التي تتقدم نحو السلطة".

وليس لظهور الفاشية في ايطاليا قبل غيرها من البلاد الاخرى أي قيمة عملية وأي اثر في الحوادث السياسية الجارية الآن، وإنما كان ظهورها في تلك البلاد ناشئا عن عوامل مادية وظروف امتازت بها البلاد الايطالية عن غيرها. اما ان نعزو سبب قيام هذه الحركة في ايطالية في ذلك الوقت الى موسوليني نفسه فذلك خطأ محض. ولم يكن موسوليني غير قائد في حركة تهيأت الظروف المادية لقيامها، فلو لم يكن موسوليني موجودا حينذاك لوجدت هذه الحركة غيره قائدا لها ونصيرا، ولهذا السبب ذاته لا يجوز ان ننتظر موت الفاشية باستقالة موسوليني وإنما تموت باجتثاث العوامل التي ادت الى قيامها ليس غير. والذهاب الى ان مجرد سقوط موسوليني انهيار لأقدم صرح للفاشية في اوربا واعتبار زعامته الركن الاساسي لصرح الفاشية خطأ. لأننا لا يجوز ان نستدل من هذا الحادث على تصدع اركان الحزب الذي كان يقوده هذا الزعيم، وقد الغي هذا الحزب فعلا وحلت جميع مؤسساته في ايطالية اول امس (26 تموز 943). ولكن لا يجوز ان نذهب الى العكس فنعتبر سقوط موسوليني او الغاء الحزب الفاشي انهيارا للفاشية.

على ان الفاشية وان قامت في ايطالية قبل غيرها، إلا ان العوامل المادية التي مهدت الطريق لظهورها في ايطاليا قد كانت موجودة في كثير من البلاد الاوربية وخاصة في المانيا. ولهذا لم تلبث هذه الحركة ان ظهرت في كل بلاد الغربة، وكانت تارة قوية عنيفة كما في (المانيا) وتارة ضعيفة كما في (انكلترا).

فالفاشية ظاهرة وجدت في كل الاقطار الرأسمالية مع تفاوت في الدرجات، في مرحلة من مراحل تطور الرأسمالية. وقد قامت في ايطاليا وفي المانيا وفي اسبانيا (حكومة فرانكو) وفي اليابان (وهي هنا شكل خاص من الفاشية العسكرية القائمة على اساس التوسع الاستعماري الاقطاعي) وفي فرنسا الفيشية بعد الفتح الجرمني (الالماني —المحرر) (وان كانت الحركة الفاشية قوية قبل هذا الفتح بسنين، وقد نظم مؤيدوها الاستسلام لكي يفرضوا نظامهم الرجعي). وظهرت في البرتغال وبريطانيا (بزعامة موزلي)، وفي الولايات المتحدة بقيادة (دنس) والأب (كوفلن) وفي حركة القمصان الفضية. على ان الفاشية الالمانية وبعد ان توصلت الى

الحكم اقامت اقوى نظام فاشي في العالم. اما بقية الحركات الفاشية في الاقطار الاخرى فقد بات قادتها اتباعا ومنفذين للنفوذ الفاشي الجرمني. ولكن هذا لا يعني ان هذه الحركات لم تنشأ مباشرة من ظروف متشابهة ومن عناصر رجعية متفسخة من تلك الأقطار مشابه للعناصر التي جاءت منها الفاشية الالمانية. فعندما اعلن اللورد (روذرمير) تأييده لموزلي منذ بضعة سنين، لم يكن يعلم انه انما كان يعمل لمصلحة الاستعمار الالماني. ولكنها على اية حال ليست حركة شخصية، ولا يمكن تفسيرها بحياة الاشخاص وميولهم، وان كان للأشخاص اثر فيها كما قلنا. وهي وان كانت ظاهرة تظهر في البلدان الرأسمالية في مرحلة من مراحل تطورها الرأسمالي إلا انها نظرا الى كونها حركة رجعية لشل قوى التقدم الشعبية والقضاء على الحركات التحررية، قد لقيت انصارا لها ومؤيدين ومصغين الى دعواتها في بلاد الشرق ولم تسلم من ذلك بلادنا العربية.

****

ولما كانت الفاشية حركة رجعية استعمارية ترمي الى السيطرة على العالم واستعباد شعوبه، فقد استعانت لتنفيذ سياستها الاعتدائية، هذه أولا بسحق الحركة التقدمية ومحو المنظمات الشعبية بالقوة والإرهاب. وثانيا: تأييد القوى الرجعية في تلك البلاد وفي البلاد الاخرى ممن لهم اثر في السياسة الدولية.

وفي الحقيقة، لا يمكن ان نفرق بين المأجورين وبين القوى الرجعية لان المأجور يضع نفسه في خدمة الفاشية لينال اجراً على خيانته. والقوى الرجعية تؤيد الفاشية وتضع نفسها في خدمتها للمحافظة على مصالحها المادية.

فلا فرق بين الفريقين في الاعمال ولا في الغايات. ولم تستطع الفاشية ولن تستطيع ان تحصل على مأجور واحد إلا من بين العناصر الرجعية. وكلما زادت الرجعية تفشيا في بلد زاد عدد المأجورين الذين يبيعون ضمائرهم وأوطانهم بأبخس الاثمان. وكلما زادت الرجعية في بلد وكلما ضعفت الحياة الديمقراطية والمنظمات الشعبية فيه، ازداد عدد الذين يصغون الى الدعوة الفاشية ويحبذونها ويبشرون بها، لان العناصر الرجعية ترى في الفاشية عدوة الحركة التقدمية التي تخافها، وما حركة بيتان في استعجاله بتسليم وطنه الى الفتح الجرمني خوفاً من الحركة الشعبية إلا مثال بارز، له امثلة في كل الاحداث التي وقعت في اوربا.

ولقد كان الفاشيون نقطة الضعف هذه في العالم الرأسمالي عامة، وفي البلاد التي ارادوا فتحها خاصة، واخذوا يروجون دعوتهم تحت ستار مكافحة الشيوعية، فكانت كل الحركات الرجعية التي تظاهرت بالقومية في مختلف البلاد، تعمل تحت هذا الستار وعلى هذا المنوال. وليس بعيدا عنا الدور الذي لعبه "الدكتور كَروبا" في هذه البلاد تحت ستار القومية ومكافحة الشيوعية، ولا الدور الذي لعبته القوى الرجعية الوطنية وغير الوطنية في تشجيع هذا الداعية وتأييده. على ان رواج هذه الدعوة في بلادنا وفي البلاد العربية عامة، سبب سلبي غير هذه الاسباب الايجابية وهو ان لهذا الشعب اماني لم تتحقق، تمكنت الدعاية الفاشية من استغلالها والضرب على أوتارها، وخصوصا ما تعلق منها بقضية فلسطين التي كانت ولم تزل موضع اهتمام جميع الشعوب العربية. فرأى كثير من البسطاء المخلصين، في الدعوة النازية تحقيقا لهذه الأماني وان انحراف كثير

من الطلاب والشباب ليعزى الى هذه الاسباب السلبية.

******

اذا القينا نظرة في تاريخ هاتين الحربين العالميتين، نجد ان القوى الداخلية في اكثر البلاد الاوربية قد انقسمت الى معسكرين، معسكر القوى التقدمية التي حاولت تكوين جبهة شعبية لمقاومة الفاشية ولتوجيه السياسة الدولية ضد العدوان الفاشي وإقامتها في عدد من البلدان حينا من الزمن، ومعسكر المؤامرات الفاشية، التي كانت تتظاهر لتنفيذ مآربها الرجعية والاستعمارية بمقاومة الشيوعية، لتنال عطف الخائفين من غول الشيوعية! وكان من بين هذين المعسكرين قوة ثالثة كان لها اكبر الاثر في تسيير السياسة الدولية في هذه الحقبة من الزمن، تلك هي العناصر التي لا تختلف عن العناصر الفاشية كثيرا وان تظاهرت بكونها تعمل على الدفاع عن معاقل الديمقراطية وحفظ السلام، وقد كانت سياسة هذه العناصر الاستسلام الى الاعتداءات الفاشية ولو على مضض في بعض الحوادث القليلة.

وقد انعكست هذه الصورة للسياسات الاوربية الداخلية على السياسة الدولية، فانقسمت القوى الدولية الى معسكرين كذلك، معسكر العدوان الفاشي الممثل بزعامة المانيا وايطالية واليابان، وقد تبلور هذا اخيرا بالحلف المحوري الثلاثي، روما –برلين– طوكيو، الذي وضعت فيه اخر خطة لاقتسام العالم تحت ستار مكافحة الكومنترن.

وفي المعسكر الثاني، القوى التي تريد دفع هذا العدوان والمحافظة على استقلال اوطانها وعلى السلام العالمي، وكان في مقدمة هذا المعسكر الاتحاد السوفياتي الذي دعا وعمل بكل قواه الى السلامة الاجماعية.

ومبعث هذه النظرية، هو ان العالم المكون من دول مستقلة بعضها عن بعض، لا يمكن ان يحافظ على السلم فيه، ما لم تتحد على القيام بعمل مشترك تنفذه كل الدول مجتمعة، ضد الدولة التي تلجأ الى الحرب. والنتيجة المنطقية لذلك، هي ان التأكد من وجود مثل هذه المقاومة سيمنع في العمل كل دولة من اللجوء الى الحرب، وحتى عند حدوث أبعد الحوادث احتمالا ومحاولة دولة ما للجوء الى الحرب، فان هذه الحرب ستنتهي انتهاء سريعا.

ونظرية السلامة الاجماعية في الواقع صدى معكوس لسياسة الاعتداء الفاشي الذي يسعى للتفريق بين اقطار العالم وابلاغها واحدا بعد اخر. وبما ان اكثر دول العالم – وخصوصا الصغيرة منها – لا تتمكن من الدفاع عن اوطانها منفردة، فان اجماع هذه الدول على مقاومة كل اعتداء يقع على احداها امر ضروري لسلامتها.

ان سياسة السلامة الاجماعية في الحقل الدولي تتصل بسياسة الجبهة الشعبية الموحدة في الحقل الوطني، لان كلا منهما يستهدف مقاومة الاعتداء الفاشي ودعاة كل منهما هم دعاة الحركة التقدمية.

وقد كان في الحقل الدولي بين هذين المعسكرين، العناصر الرجعية التي سيطرت على الحكم في كثير من الدول الديمقراطية، فسارت على سياسة مناقضة لنظرية السلامة الاجماعية وتمسكت بما سمته سياسة "حصر الحرب" في ناحية واحدة، وذلك لأنها تعتبر الحرب امرا لا بد من وقوعه، وكل ما تريده هو ان تحدد نظامها.

ان اصحاب هذه النظرية حري بهم ان يوضعوا في قائمة معسكر الفاشية، لأن سياستهم قد خدمت الحركة الفاشية منذ

قيامها، وهم يرون في السلامة الاجماعية توسيعا للحرب وتعميما لها، ويردون الامن الدولي لا يستتب إلا على ايدي الدكتاتوريين. فقد قال اللورد لوثيان في محاضرة القاها في 29 مايس 935: "ان النظرية الجديدة، نظرية السلامة الاجماعية، ما هي إلا اسم مموه تمويها خطيرا لحلف عسكري، نتائجه قلب كل نزاع محلي الى حرب عالمية". وكان السير اوستن تشنبرلن يزعم ان الحكم الدكتاتوري في اوربا يزيد من تعزيز النظام. (....)

يقف ضد هؤلاء وأمثالهم من الذين يمثلون رأي الفاشية او يوالونها كل مؤيدي السلامة العالمية، ويدافعون بحق عن نظرية السلامة الاجماعية ويرون فيها النضال الحق من اجل السلام.

وعندما نأتي الى تطبيق نظرية السلامة الاجماعية على حقائق الامبريالزم نجابه معضلات اشد تعقيدا. فان فكرة اتحاد الجميع ضد واحد يخرق السلام، تناقض المصالح الخاصة المتناقضة، والعلائق القائمة بين الدول الاستعمارية. وان تجربة عصبة الامم قد اظهرت انه عندما يكون المعتدي دولة صغيرة، وترغب الدولة الكبيرة في اعادة السلام الى نصابه بسرعة فعالة، تقوم هذه الدول بعمل اجماعي وتعيد السلام الى نصابه بسرعة فعالة، كما حدث في الاختلاف الذي وقع بين بلغارية واليونان عام 1925 . اما عندما تكون الدول الكبيرة في اختلاف او عندما يكون المعتدي احد تلك الدول الكبيرة، يشل في تلك الحال العمل الاجماعي، لان الدولة الكبيرة تستطيع ان تعتمد على معونة الدول الاخرى وتأييدها الصريح او الخفي. فعندما خرقت اليونان عهد العصبة عام 1931 خرقا صريحا باعتدائها على الصين، نالت عون الحكومة البريطانية سياسيا، وشلت بذلك كل عمل لمنع العدوان الياباني. وعند فرضت ايطاليا الحرب على الحبشة وخرقت الميثاق في عام 1935 كانت الحكومة الفرنسية مرتبطة ارتباطا دبلوماسيا بالحكومة الإيطالية وعرقلت كل عمل لمنع العدوان الايطالي. ولما كانت كل من الحكومتين البريطانية والفرنسية مرتبطتين بايطالية باتفاقيات التقسيم، فقد حاولنا مرارا ان تصلا الى تسوية بان قدمتا الاسلاب(؟؟؟) للمعتدي على حساب ضحية عدوانية. فبينما كان العالم يترقب توقيع العقوبات على إيطاليا، اذا به يفاجأ في اليوم الثاني من كانون الاول بمشروع لافال وصموئيل هور الذي تضمن اعطاء نصف الحبشة لايطاليا وبسط نفوذها على النصف الثاني. ولكن الحبشة رفضته لأنه يلغي استقلالها، ورفضته ايطاليا لأنه لا يشبع نهمها.

فلم تلق نظرية السلامة الاجماعية تأييدا من الدول الرأسمالية، بل كان ساسة تلك الدول آنئذ يسيرون على سياسة مناقضة لهذه النظرية تمام المناقضة. وقد اتخذت تلك السياسة الوانا متعددة وظهرت بأسماء مختلفة حسب الظروف، فقد اتخذت الحرب الاهلية الاسبانية اسم عدم التدخل لحصر الحرب ضمن الحدود الاسبانية ولكن سياسة عدم التدخل لم تكن في الواقع إلا تدخلا فعليا لحرمان الجمهورية الاسبانية الشرعية من حقها المشروع في شراء الاسلحة والعتاد لجيوشها والأغذية لشعبها، لتقمع بذلك حركة تمرد وعصيان غير مشروعين. بل ان سياسة عدم التدخل هذه اطلقت ايدي السفاكين الفاشست من عصابتي هتلر وموسوليني، للفتك بأرواح الشعب الاسباني. وهكذا ذهب الشعب الاسباني ضحية سياسة التدخل تحت ستار عدم التدخل.

إن سياسة الاستسلام الى الاعتداء الفاشي قد سار عليها زعماء الدول الغربية من ممثلي الرجعية العالمية، الذين كانوا يرون في الحركة الفاشية منقذا لهم من خطر القوى التقدمية النامية. فاعقب المأساة الاسبانية استسلامات متوالية، من جانب ممثلي تلك الحكومات وخضوع كلي الى مطالب الدكتاتوريين الفاشيين هتلر وموسوليني، كان اخرها وأبرزها تسليم جيكوسلوفاكيا في مؤامرة ميونيخ الشهيرة المنعقدة في ٢٩ ايلول 1938، فأخذت حركة الاستسلام اسم (الميونيخية).... فالروح الميونيخية التي سادت الجو السياسي منذ نهاية الحرب الماضية (أي الحرب العالمية الاولى –المحرر) كانت خير جو ترعرعت فيه الحركة الفاشية ونشرت وباءها وهيأت فيه اسباب الحرب حتى اغرقت العالم في هذا البحر الخضم من الدماء.....

وبعد النظرة العجلى التي القيناها على تلك العوامل والأحوال الاجتماعية والسياسية التي قام عليها صرح الفاشية –وهذا الصرح لم يكن موسوليني بالطبع – وعرفنا كيف نجحت في اعتداءاتها المتتالية على اقطار العالم، وجب علينا ان نرى خطر الفاشية ماثلا – ولو تحت اسماء وأثواب اخرى – حتى تزول الظروف والأحوال التي مهدت لنجاحها.

ان زوال الجو الذي تسود فيه المؤامرات الفاشية والرجعية، لن يتحقق بدون تحقيق امانينا القومية وفي مقدمتها حل القضية الفلسطينية، وإطلاق الحريات الديمقراطية والمنظمات الشعبية من احزاب وجمعيات ونقابات، وإطلاق حرية التعبير والاجتماع والخطابة، والبحث الجدي في حاجات جماهير الشعب، وإفساح المجال لكل حركة ترمي الى تحقيقها.

ولسنا نفهم معنى لمكافحة الفاشية في هذه البلاد اليوم بدون تحقيق هذه الشرائط الاساسية. فبعد ان زال الظل الفاشي عن البلاد العربية اصبح الرأي العام العربي ينتظر بصبر فارغ شمول هذه البلاد بتصريح الاطلنطك ببيان رسمي صريح من جانب الحلفاء. وتطبيق ذلك فعلا بحل قضية فلسطين، بإلغاء جميع الوعود والبيانات التي تنتقص من حقوق العرب المشروعة في هذا القطر العربي، وبإعطاء عرب شمال افريقيا حق تقرير مصيرهم وإفساح المجال لهم لكي يمارسوا حكم انفسهم بأنفسهم منذ الآن، لان ذلك خير دليل على صدق رغبة الحلفاء في تطبيق هذا التصريح على كل الأمم وإننا لنرجو ان يكون تصريح المستر ايدن وزير الخارجية البريطانية الذي ادلى به امس (٢٧ تموز ٩٤٣) مقصودا به تأكيد تحقيق استقلال هذه البلاد. اذ قال في مجلس العموم البريطاني: "اننا لن نعيد الى ايطاليا مستعمراتها". على ان هذا التصريح لم يكن فيه الصراحة الكافية التي يمكن ان نرتكن اليها في تطمين رغائبنا. فنأمل ان يعقب هذا بتصريح من الحلفاء واضح لا يترك مجالا للشك في استقلال جميع البلاد العربية.

بغداد في 1943/7/28

* عبد الرحيم شريف، علام يدل سقوط موسوليني ؟، مطبعة الرشيد، بغداد، 1943 .

طاولة مستديرة

طاولة مستديرة حول:

ازمة الكهرباء في العراق ❖

في العشرين من كانون الثاني/ يناير 2012 وعلى قاعة جمعية المهندسين العراقيين في بغداد انتظمت أعمال طاولة مستديرة، أدارها المهندس فلاح المعروف وضمت عددا من الخبراء والمهندسين والفنيين المختصين بالكهرباء والأكاديميين ورجال الاعمال للمساهمة في مناقشة واقع الكهرباء في العراق والأزمة التي يمر بها.
في البداية رحب مدير الندوة بالحاضرين مشيرا الى انها تستهدف المساعدة في ايجاد توجهات صحيحة لحل هذه المشكلة.
وتسهيلا للنقاش في الطاولة المذكورة فقد تم تعميم ورقة العمل ندرجها هنا تعميما للفائدة.

ورقة عمل الطاولة المستديرة حول ازمة الكهرباء في العراق

يمر العراق منذ عقود بأزمات عديدة كان الطموح ان يتمكن النظام الجديد من اجتيازها بعد التغيير الذي حصل في نيسان 2003 كأزمة الكهرباء والإسكان والتعليم والصحة وحقوق الانسان وغيرها.

وتعد ازمة الكهرباء في وطننا واحدة من المشاكل ان لم تكن اهمها لما لها من علاقة وثيقة بحياة الناس اليومية وإدامة حركة الاقتصاد والتنمية.

ولذلك سعى الحزب الشيوعي العراقي وحسبما ورد في برنامجه المقر في المؤتمر الوطني الثامن (10-13 ايار 2007) وفي حقل الضمانات الاجتماعية حيث ورد في الفقرة (2) منه (توفير الخدمات العامة كالنقل والمواصلات ومشاريع الماء والكهرباء والمشاريع البلدية والخدمية).

وفي حقل القطاع النفطي والاستخراجي والطاقة ورد في الفقرتين 11 و 12 منه ما يلي:

- (اعتماد إستراتيجية جديدة لقطاع الكهرباء تهدف الى تحسين مستوى اداء هذا القطاع بإدخال طاقات جديدة في الانتاج والاهتمام بتطوير مصادر انتاجه المتنوعة وتحسين اساليب التخطيط المستقبلي لتطور هذا القطاع بما يمكنه من تلبية حاجات البلاد).
- (تشجيع المشاريع والبحوث الهادفة

الى تطوير مصادر الطاقة البديلة الى جانب النفط كالمياه وأشعة الشمس والرياح وغيرها).

كما انه في حقل الصناعه يؤكد وفي الفقرة (10) منه على أن الكهرباء من ضمن البنى التحتية التي يجب أن تخصص لها الاستثمارات المناسبة لإقامتها وذلك كهدف يعمل على تحقيقه ضمن السياسة الصناعية. ان الكهرباء هي الفقرة الاساسية لتسيير عجلة الاقتصاد وتنميته وتحديثه اضافة الى كل ما يتعلق بحياة الناس في المجالات الزراعية والصحية والمياه والبيئة والثقافة والإعلام والتجارة والنقل والسياحة والاتصالات وغيرها.

ومن المعلوم أن ازمة الكهرباء في بلادنا مستمرة منذ بدأ النظام الدكتاتوري المباد حروبه العبثية عام 1980. ولغاية يومنا هذا لم توضع خطة إستراتيجية حقيقية للحل، خصوصا بعد سقوط النظام المذكور وحلول نظام جديد يعتمد الديمقراطية وسيلة للحكم. وتوفرت لهذا النظام الجديد الامكانيات الهائلة من الاموال التي ظهرت نتيجة بيع النفط بأسعار عالية وتخفيض النفقات العسكرية مما وفر فرصة حقيقية لحل هذه المشكلة.

ولكن بسبب غياب الارادة السياسية والحس الوطني الذي يضع مصلحة الانسان العراقي فوق كل مصلحة، وعدم وضع الشخص المناسب في المكان المناسب والفساد الاداري والمالي والمحاصصة الطائفية التي اتخذت مبدأ لتسير شؤون الدولة، والإرهاب، وغياب التخطيط العملي المبرمج.. كل هذه العوامل وغيرها سببت عدم القدرة على حل ازمة الكهرباء في العراق.

لذلك ندعو في ندوتنا هذه زملاءنا من المختصين والقريبين منهم في مجال الكهرباء الى مناقشة جادة وهادفة لهذه الازمة وإيجاد الحلول الممكنة بما يتلاءم مع الحاجة الملحة والسريعة للطاقة الكهربائية.

نتطلع الى ان تتوصل الندوة الى استنتاجات عملية لغرض الدفع باتجاه اعتمادها من قبل الجهات المعنية في الدولة، وتغني ما يسعى الية الحزب لتوثيقه في برنامجه القادم والذي يجري الاعداد له وإقراره في مؤتمره الوطني التاسع.

قضايا مطروحة للنقاش

1- القدرة الحالية لإنتاج الكهرباء ومقدار حاجة البلد

في لقاء مع السيد حسين الشهرستاني في 16 -- 12-2011 بيّن ان انتاج الكهرباء الحالي هو 6000 ميكا واط، والمستورد من الطاقة يساوي 1000 ميكا واط. وعلية يكون المتوفر الكلي 7000 ميكا واط وان مقدار العجز يساوي 5000 ميكاواط. وأوضح الشهرستاني انه تم التعاقد خلال عام 2011 على انتاج 10.000 ميكا واط تنجز خلال سنة ونصف الى سنتين.

أما التقديرات الفعلية للحاجة من الطاقة الكهربائية في الوقت الحاضر فان الكثير من المتخصصين يؤكدون على انها لا تقل عن 20.000 ميكا واط.

2- انواع محطات التوليد والمناسب منها لظروف العراق (محطات التوليد البخارية والنووية، المائية ومحطات التوليد من المد والجزر، محطات ذات الاحتراق الداخلي "ديزل -غازي"، محطات التوليد بواسطة الرياح ومحطات التوليد بالطاقة الشمسية).

3- معوقات انتاج الطاقة الكهربائية في العراق

أ. عدم وجود خطة إستراتيجية على مستوى الدولة لحل المشكلة.

ب. عدم وجود الارادة السياسية المخلصة لحل الازمة.

ج. الاعتماد على الحلول الترقيعية لحل الازمة مثل اللجوء الى المحطات الغازية ذات الدورة البسيطة.

د. عدم توفر الوقود اللازم لمحطات التوليد ونقل المتوفر منه بطرق قديمة مثل استخدام التناكر.

هـ. ضعف كفاءة خطوط نقل الضغط العالي والاعتماد على خطوط الـ 132 كيلو فولت بينما العالم يتجه الى خطوط 750 كيلو فولت.

و. استخدام الاسلاك الهوائية بدلا من الكيبلات الارضية.

ز. ضعف او انعدام مشاركة القطاع الخاص والاستثمار الاجنبي في هذا الجانب.

ح. التجاوزات الكبيرة على الشبكة الكهربائية وبشكل عشوائي.

ط. عدم الاعتماد على ذوي الخبرة في التصدي لهذه المعضلة.

ي. الفساد الاداري المستشري في القطاع العام.

وبعد الانتهاء من تقديم ورقة العمل، فتح باب النقاش الذي شارك فيه العديد من المشاركين. وأدناه خلاصة لهذه المداخلات حسب تسلسل تقديمها:

الاستاذ رائد فهمي
عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي

يحتل موضوع الكهرباء الصدارة بالنسبة للشعب لما له من اهمية في الحياة الاقتصادية والإنتاج نريد الحديث عن الاشكالية الاساسية مع مسؤولين سياسيين وفي كل الميادين.

اولا: ما هي حقيقة وضع الكهرباء، فقد طرح بان انتاجنا 5 ميكا واط وفي مكان اخر طرح 7 ميكا واط واليوم يقال بأننا ننتج 6 ميكا واط، المختصون يقولون 4- 5 ميكا واط فما هو الواقع الفعلي "وكم ننتج" وقد سمعت من شخص مسؤول بأننا لا نصل الى 5 ميكا واط. ويقال بان الانتاج هو 17500 ولكن لماذا يقال 12 ميكا واط. هل هناك خطأ أو تباين في الحساب؟ هل هناك نية للتقليص من حجم الأزمة.

وثانيا: الحلول المقترحة والإجراءات هناك اتفاقية مع كوريا الجنوبية وستجلب وحدات لنصبها وقد بدأوا بنصبها، وقد سمعت من بعض المسؤولين بان هذا ليس حلا للمشكلة، ناهيك عن وجود مسألة كنا في مجلس الوزراء تناولناها، عندما جاء الوزير السابق قائلا بأننا اشترينا المولدات على النصب وان لدينا الامكانية بان تنصب المحطات حتى توظف الاموال المرصودة لشراء الأجهزة ثم اتضح بعد التدقيق بان من الصعب ان نفصل بين العمليتين، هذا الخلل هو القصور في الفهم وتوجد اعتبارات اخرى. هذه الحلول الترقيعية والمحطات الكبيرة اولا تعتمد على الغاز ولا يوجد لدينا غاز هذا التنسيق مع الكهرباء وهذا مثال هل هي مشاكل تحتاج الى زمن ام هي مشاكل مستعصية؟ موضوع احمد اسماعيل وتجربة كردستان حيث استطاع ان يعمل مشروعه لأنه اعطى مقدما اسناد مالي في البداية لحد مليار من قبل بنك التجارة و وهذه العملية لا تتكرر اليوم حيث لا توجد مثل هذه الامكانية فبإمكانية احمد اسماعيل لو اليوم نقوم بها وبدون مساعدة بنك التجارة حسب مايدعي فإنها لا تتحقق لأن احمد اسماعيل لم يعمل بأمواله وإنما اعتمد على القروض التي اعطيت له، ويقال ايضا ان بنك التجارة عليه مساءلة الان على القرض الذي قدمه.

اريد ان اخلص الى ان هذا الحل اذا تم اعتماده.. فلماذا لا نعتمده؟ فيه بعد تمويلي وإجرائي. لذلك هناك حديث بان تجربة احمد اسماعيل لا تتكرر لأنه لا بنك التجارة يمكن اين يقوم بها ولا توجد لدينا امكانات تمويلية تغطي هذه الحاجة. عالميا اليوم يسهم القطاع الخاص في قطاع الكهرباء كما يساهم القطاع العام. هذا القرار يهم حياة الناس هل ممكن ان يخرج كليا من القطاع العام؟ نتحدث اليوم عن الخصخصة، عمليا اليوم القطاع الخاص هو المهيمن ولكن عبر المولدات الصغيرة. قطاع الكهرباء ينبغي ان يكون قطاعا مترابطا منسقا.. الخ. اتذكر تجربة اميركا عندما حصل عجز في لوس انجلس وبما انه لديهم تكامل بين الولايات وكان هناك فائض في الكهرباء في تكساس استخدم في تعويض العجز الذي حصل في لوس انجلس. اقصد ان هناك مصلحة عامة كليا اساسا تجعل طبيعة قطاع الكهرباء لا يمكن ان يكون كليا بيد القطاع الخاص. نعم يسهم القطاع الخاص بدرجات معينة ولكن يجب ان يكون هناك رقابة وإدارة عامة، فالمواطن والمصانع تكون تحت رحمة من يوفر الكهرباء. وبشأن موضوع الخصخصة، نحن لا نؤيد خصخصة هذا القطاع بشكل خاص.. نعم يستطيع القطاع الخاص ان يسهم في قطاع الكهرباء كمساند. اما المساهمة الرئيسية فتبقى للقطاع العام بهذا البعد الاستراتيجي.

ملخص الكلام، لقد صرفت اموال هائلة وما تزال تصرف الى الان دون معرفة السياسات المتبعة، نريد ان نعرف هذه السياسات وهذه التوظيفات الجارية هل هي صحيحة ام خطأ؟ وهل تنفذ الخطة الموضوعة وهل تتابع من قبل وزير الكهرباء؟ من جانب اخر الخبراء يشككون بهذه الإستراتيجية ويقولون ان فيها خللاً جوهرياً. واعتقد اننا نستطيع ان نخرج بنتيجة هي اننا لا نريد تشخيص الخلل فقط بل نريد معرفة، عبر المصارحة والمكاشفة الحقيقية، واقع قطاع الكهرباء.

خوشابا سولاقا مدير الصيانة في مديرية توزيع كهرباء بغداد:

مقترحات لحل ازمة الكهرباء في العراق

لغرض التصدي لازمة الكهرباء القائمة والتي مضى عليها سنوات بعملية عقلانية مع مراعاة الامكانيات المالية والهندسية في العراق وأهمية الكهرباء في تنمية البلاد وتطوير اقتصادها على المستويات كافة وفي الحقول الاقتصادية كافة، لابد من معرفة المعلومات التالية ليتسنى لنا بذلك الانطلاق من خط الشروع المفترض للوصول الى الحلول الجذرية الناجعة لتجاوز هذه الازمة التي اقضت مضجع المواطن العراقي منذ سنين. وانطلاقا من هذه الرؤية اتمنى ان تكون مقترحاتنا هذه مشاركة فعالة في صياغة هذه الحلول:

– ان السعات المؤسسة لمحطات الانتاج بمختلف انواعها قبل حرب الكويت الاولى عام 1991 كانت بحدود 9500 ميكا واط.

– الانتاج المحلي من مختلف محطات الانتاج وفي احسن الاحوال –كمعدل – يتراوح وحسب معلوماتي (5000–6000) ميكاواط.

– كمية الطاقة المستوردة حاليا من دول الجوار بحدود 1000 ميكا واط. وبذلك تصبح كمية الطاقة المتاحة للتوزيع بحدود (6000 - 7000) ميكا واط.

– مقدار الاستهلاك الكلي من الطاقة المطلوبة حاليا في الاوضاع الاعتيادية يقدر بحدود 12000 ميكا واط.

– كمية الطاقة المجهزة للمستهلكين بكل اصنافهم صافي التجهيز يوميا وكمعدل في

احسن الاحوال هي 4500 – 5500 ميكا واط والباقي من معدل الطاقة المتاحة تذهب الى المغذيات المستثنية من برنامج القطع.

– في ضوء ما تقدم هناك نقص في الانتاج بحدود وكحد ادنى بنسبة 40٪ وهذا واضح للجميع من عدد ساعات التجهيز والقطع المبرمج يوميا.

– حسب الاسعار السائدة عالميا لتشييد محطات الانتاج البخارية، والتي تختلف حسب تنوع الشركات العالمية المتخصصة، فان السعر المطلوب لإنتاج 1 ميكا واط هو كمعدل 1.25 – 1.5 مليون دولار في ظروف العراق الامنية الحالية. أما كلفة تأهيل 1 ميكا واط كمعدل ولنفس الاسباب هو 0.4 – 0.6 مليون دولار.

– نسبة نمو الاحمال، اي الاسلاك المعتمدة والمقبولة عالميا كمعدل تتراوح 3–5٪ وبسبب اوضاع العراق الاستثنائية نعتمد نسبة النمو كأسوأ حالة وهي 5٪ سنويا.

– يجب ان نخطط لبناء محطات الانتاج لفترة زمنية لا تقل عن 20 سنة قادمة اي لغاية 2032. وعلية وبالاستناد على معدل الانتاج الحالي ونسبة نمو الاستهلاك المذكورة في اعلاه يتطلب ان يكون معدل الانتاج عام 2032 بحدود 24000 ميكا واط يوميا و 18000 ميكا واط في عام 2022. والمعمول به عالميا وفي ظروف التشغيل المستقر لمنظومات الكهرباء يجب ان تكون لمحطات الانتاج قابلية وعلى مدار الساعة لإنتاج ما لايقل عن 25٪ من الحد الاقصى للحمل الدوار في المنظومة كإنتاج احتياط لمواجهة حالات الطوارئ. وبذلك تكون قابلية محطات الانتاج العاملة في عام 2022 ان تنتج ما معدله من الطاقة 22500 ميكا واط وان تنتج ما معدله 30.000 ميكا واط في عام 2032. في ضوء هذه المعطيات يتطلب تشييد محطات انتاج بخارية بسعة اجمالية 20500 ميكا واط وتأهيل وحدات الانتاج الموجودة حاليا العاملة والمتوقفة والتي تصل مجموع سعتها 9500 ميكا واط.

– تكون التخصيصات المالية المطلوبة لتشييد وتأهيل قطاع الانتاج لتكون سعتها المتحققة في عام 2032 كما تقدم كالآتي:

أ –تشييد محطات بخارية جديدة بحدود (31) مليار دولار.

ب– تأهيل الوحدات الانتاجية القائمة بحدود (6) مليار دولار.

– ولغرض نقل هذه القدرة المنتجة من محطات الانتاج الى مواقع الاستهلاك فإن الأمر يتطلب تشييد محطات التحويل وخطوط لنقل الجهد 132 و 400 ك ف وتأهيل الشبكة القائمة حاليا وهذا القطاع يحتاج تخصيصات مالية بحدود (6) مليار دولار.

– ولغرض توزيع هذه القدرة يتطلب تشييد محطات التوزيع 33 /11/11/0.4 ك ف وخطوط توزيع هوائية وقابلوات ارضية لجهد 33 و11 و0.4 ك ف وتأهيل وتحسين وتطوير الشبكات القائمة لغرض استيعاب الطاقة المنتجة المشار اليها اعلاه وفق الشروط الفنية ويحتاج هذا القطاع تخصيصات مالية بحدود 10 مليار دولار.

– يتطلب مثل هذا العمل انشاء مراكز سيطرة وتحكم وأنظمة الاتصالات الحديثة المطلوبة في منظومات الكهرباء لتحقيق الامان والحماية والتشغيل الامثل للمنظومة الكهربائية. وكذلك يتطلب الامر انشاء مراكز التدريب والتطوير للكوادر الهندسية والفنية ولجميع القطاعات انتاج + نقل + توزيع وكذلك انشاء مراكز البحث العلمي للتخصص الدقيق للكوادر الهندسية تحديدا في هذا المجال مما يتطلب تخصيصات مالية بحدود (2) مليار دولار.

– في ضوء ما ورد اعلاه تكون الكلفة

الكلية التخمينية المطلوبة لانجاز وتنفيذ هذا المشروع بحدود (55) مليار دولار موزعه على فترة زمينة امدها عشر سنوات 2013 2023 – اي بمعدل (5.5) مليار دولار سنويا.

هذا مع العلم ان الاسعار العالمية نسبية بسبب الظروف غير المستقرة في العراق حاليا وعند استقرارها سوف تنخفض بنسبة كبيرة.

هيكلية الوزارة

لغرض تفعيل دور وزارة الكهرباء فإن الأمر يتطلب إجراء التغيير الهيكلي الاتي:

1- يفضل دمج وزارتي النفط والكهرباء في وزارة واحدة باسم وزارة الطاقة وذلك للعلاقة التخصصية الوثيقة بين الوزارتين لغرض تجاوز الاشكالات اللوجستية بخصوص تجهيز الوقود والزيوت التي تدخل في عملية انتاج الطاقة الكهربائية.

2- بالنظر لكون عملية تجهيز الطاقة الكهربائية الى المستهلكين عملية خدمية، ولغرض تفعيل هذا النشاط ورفع مستوى الاداء اقترح فك ارتباط قطاع توزيع الطاقة الكهربائية مديريات توزيع الكهرباء بغداد والمحافظات في الوزارة الجديدة وربطها الى مستوى مديريات عامة وان تتعامل معها وزارة الطاقة من خلال دائرة مبيعات الطاقة الكهربائية تستحدث في وزارة الطاقة لتولي هذا الملف، وان يكون هذا التعامل على اساس (مستهلكي جملة) وفق الية تحدد مستقبلا ويشترط على مديريات التوزيع في المحافظات اعتماد المواصفات الفنية التي تصدرها وزارة الطاقة في استيراد المواد والمعدات والاجهزة الكهربائية الخاصة بشبكات توزيع الطاقة الكهربائية للمحافظة على وحدة مكونات الشبكة الكهربائية في عموم العراق.

3- عدم احالة اية مناقصة تخص هذا المشروع خلال مراحل تنفيذه الى الشركات المحلية العراقية والعربية والأجنبية الجنسية التي تمتلكها او تتولى ادارتها وكالة او يمثلها عراقيون من كوادر قطاع الكهرباء السابقين وذلك لوضع حد وتحجيم الفساد المالي المستشري في اروقة وزارة الكهرباء الحالية بحكم العلاقات الوثيقة بين تلك الكوادر والكوادر التي تدير الوزارة. وهذه النقطة من وجهة نظرنا المتواضعة مهمة للغاية وستساهم الى حد كبير في غلق منافذ الفساد بكل اشكاله.

4- استحداث هيئة في الوزارة الجديدة ترتبط بالوزير مباشرة تضم في صفوفها خبراء متخصصون من مختلف الاختصاصات الهندسية والقانونية والمالية والتجارية والعقود والادارية، وتخول الصلاحيات المطلوبة لتتولى ادارة وتنفيذ هذا المشروع والإشراف عليه.

5- اقترح احالة دراسة وضع التفاصيل الفنية الكاملة والجدوى لهذا المشروع الى شركة عالمية متخصصة وضمن سقف زمني محدد وبمشاركة خبراء مختصصين بالإنتاج والنقل والتوزيع والاتصالات من وزارة الطاقة لوضع هذه الدراسة المتكاملة.

6- اقترح تشجيع الشركات العالمية المتخصصة للمشاركة في تنفيذ المشروع وتشريع قانون خاص بهذا المشروع يمنح الشركات العاملة امتيازات تشجيعية من قبيل ان الدفعة المقدمة لا تقل عن 20٪ فضلا عن إعفائها من الرسوم الكمركية والضريبة على المواد والمعدات والمكائن والآليات والأجهزة الداخلة في المشروع وتأمين الحماية الامنية لمنتسبي وممتلكات الشركات العاملة وغيرها من الامور.

7- اقترح احالة المناقصات الخاصة بهذا المشروع من خلال توجيه الدعوات الخاصة

المباشرة الى الشركات العالمية وعدم احالة المناقصات الثانوية الى اي مقاول ثانوي إلا بعد موافقة الهيئة المشرفة على المشروع الوارد ذكرها في الفقرة خامسا اعلاه.

طريقة تنفيذ المشروع

يتم تنفيذ هذا المشروع بالاعتماد على تشييد محطات بخارية لإنتاج الطاقة الكهربائية حصرا والتخلي عن استراتيجية الاعتماد على تشييد المحطات الغازية التي تعتمدها وزارة الكهرباء حاليا وذلك لعدم ملاءمة مثل هذه المحطات لظروف العراق المترية من جهة وكونها تحتاج الى اعمال صيانة باستمرار وبكلفة عالية جدا وتعمل بكفاءة تشغيلية وعمر تشغيلي اقل من المحطات البخارية من جهة اخرى. والميزة الوحيدة التي تتميز بها المحطات الغازية بالمقارنة مع المحطات البخارية هي قصر فترة التشييد للسعة نفسها، وهذا لا يكفي من وجهة نظر الجدوى الاقتصادية للتعويل على افضليتها واستغلال المحطات العاملة منها حاليا، التي هي قيد التنفيذ في الحالات الطارئة وعند حمل الذروة وتأهيل اي تجديد محطات الانتاج البخارية القائمة حاليا، العاملة والمتوقفة عن العمل بكل مكوناتها وكما يلي:

المرحلة الاولى

تشمل هذه المرحلة التي امدها خمس سنوات (2013-2018) ما يلي:

1- اكمال المحطات البخارية التي تمت المباشرة بها منذ زمن النظام السابق والتي مجموع سعاتها 6000 ميكا واط وهي: محطة الشمال-محطة بلد-محطة الانبار-محطة الزبيدية-محطة اليوسفية.

2- تأهيل كامل لجميع محطات الانتاج البخارية القائمة حاليا على التوزاي مع المحطات الجديدة في الفقرة (1) اعلاه والتي تصل مجموع سعاتها بحدود (9500) ميكا واط وذلك من خلال توجيه دعوات مباشرة الى الشركات نفسها التي شيدتها لضمان جودة المعدات وإعادة تجديدها بنفس سعاتها المؤسسة وبذلك يكون مجموع القدرة المنتجة في نهاية عام 2018 بحدود 15500 ميكا واط وهذا الانتاج يغطي الاستهلاك حسب معدل نمو الاحمال المفترض في العراق 5٪. هذا من جهة، ومن جهة اخرى يجب ان يرافق هذا الانجاز بناء وتأهيل منظومات شبكات النقل والتوزيع والسيطرة والتحكم على التوازي.

المرحلة الثانية:

تشمل هذه المرحلة تشييد محطات انتاج بخارية جديدة بسعة 14500 ميكا واط خلال خمس سنوات تبدأ من 2018 الى 2023، ويرافق هذا التشييد في محطات الانتاج البخارية على التوازي تشييد وتأهيل منظومات شبكات النقل والتوزيع والسيطرة والتحكم ومراكز التدريب والتطوير والبحوث.

ملاحظة: ليس بالضرورة ان يتم تنفيذ هذا المشروع بالكامل بتمويل مركزي من الدولة، وإنما من الممكن ان يتم من خلال الاعتماد على الاستثمارات المحلية والعالمية جزئيا ايضا لتعظيم الموارد المالية على حساب تقليص فترة التنفيذ.

باسم جميل انطوان- صناعي ورجل اعمال

نكرر الشكر للقائمين على الطاولة وللحزب الشيوعي العراقي في استمراره في هذه الطاولات ومناقشة مسائل اقتصادية بشكل رئيس. الواقع ما تناولته الورقة من أمور وهناك إلمام كبير والذي اكمله الاستاذ خوشابا الذي غطى بدوره كل الأمور ولذلك

سوف لا نعيد القضايا الواردة. الموضوع في الحقيقة ذو جانبين: جانب فني وجانب اقتصادي وإداري ومن ضمنه يدخل الفساد. الجانب الفني يشمل نقطتين مهمتين جدا هي جلب الكفاءات والنزاهة؟؟؟ الى الوزارة سيحقق تزاوجاً كبيراً وهو يشمل كل الوزارات. وكل الاعمال الاقتصادية مفقودة تقريبا في هذين الجانبين تهميش الكفاءات وغيرها من الامور. سأطرح بعض الأرقام لو نأخذ ماذا صرف القطاع الخاص (العوائل والفرد العراقي على الكهرباء) والدولة ليس لها استيعاب وتصور كأن هذا لم يخرج من عندها. يخرج من هذا من البلد ومن العوائل ومن الموظفين ما يقرب من 10 مليار دولار لـ٢٥ مليون مولدة صغيرة في البيوت التي تحويها، مقابل المولدات الكبيرة والأسلاك الكهربائية التي صرفت والكيبلات التي امتدت اضافة الى تلوث البيئة الكبير وتشوه مدينة بغداد والتي اصبحت من اسوأ العواصم في العالم، وتكفي نظرة على الشبكة العنكبوتية من الاسلاك لتأكيد ذلك. هذه العوامل أساءت جدا الى واقعنا. لنأخذ على سبيل المثال السعودية التي تنتج 50.000 ميكا واط وعند تقسيم ذلك على 27 مليون سعودي سينتج ان حصة الفرد السعودي هو 8 امبير بينما حصة الفرد العراقي ثلاثة ارباع الامبير. هناك اكثر من 30 مليون فرد عراقي يتنافسون على 6000 ميكا واط منتج في العراق. نحن امام خطة تنمية مستدامة والخطة الخمسية ونمو 10٪ هل هذا هو واقع الكهرباء؟ وكما تعلمون ان الكهرباء هي اساس التنمية المستدامة. فالتخلف كبير وبائس. السعودية ستنتج عام 2020 ما مقداره 80 الف ميكا واط ونحن اذا اضفنا 5000 ميكا واط فسنكون محظوظين. ان النقص الكبير يكمن في عدم وجود إستراتيجية للكهرباء، والقرار السياسي ضعيف، والتغيير في الوزراء متواصل. في كل العالم، ولنأخذ الولايات الامريكية هناك حزبان: الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي، لا تتغير الامور بذهاب احدهما وحلول الثاني محله بسبب وجود خطة محددة لا تتغير بتغيير الاشخاص. نعم قد تحدث مشاكل ولكن سرعان ما يتم الاتفاق نتيجة وجود استراتيجية. قبل شهرين او ثلاثة اشهر وقضية الدين والأزمة اتفقوا ايضا فيما يخص دور القطاع الخاص. ورغم اني امثل القطاع الخاص ولكني ارفض ان يقود القطاع الخاص لأنه ليس لدينا قطاع خاص ناضج بهذا المستوى. لقد وردت اموال كثيرة للبلد لكن لم تأت بثقافات وانتماءات للوطن وهذا التفاوت في الثقافات تأتي متأخرة والثروات تأتي بسرعة ولا يحصل انسجام. لذلك لا بد من الاستفادة من امكانيات القطاع الخاص في عملية التعاقدات وتخطي الروتين، والتخلص من الفساد المالي والإداري الموجود. واليوم مثلما شخص الاستاذ خوشابا وورقة العمل أيضا فان الفساد اصبح ينخر في جسم وزارة الكهرباء ويشكل العائق الاساس. وثم التطرق الى ان الامن احد الاسباب. والأمن الاقتصادي الذي هو اخطر منه اليوم موجود يمكن ان تنشر محطة كهرباء والمواطن يحميها. ونحن في (اتحاد رجال الاعمال) وكما يذكر الأستاذ حميد الدجيلي والأستاذ يحيى الدجيلي قبل 6 سنوات قدمنا مقترحات عملية جدا وجاءت شركات مقاولة لإنشاء محطات كهرباء ولكن لم يتم تشجيعها في اللحظات الاخيرة من قبل كبار المسؤولين لعدم الاستفادة وقاموا بإجهاض كل المحطات. وكان لدينا مقترح بوضع ٤ محطات حول بغداد بـ 500 ميكا واط لحل ازمة الكهرباء وكل محافظة تتخلص من مشكلة النقل والتوزيع والمخاطر التي تهددها

ولم تكن هناك استجابة.

حميد الدجيلي- مهندس كهرباء- استشاري في اتحاد الصناعات العراقي

اعتمد جهاز التخطيط العراقي قبل التسعينيات 7٪ معدل النمو لحاجة الطاقة وهذا معناه ان الطاقة الكهربائية المنتجة يجب ان تتضاعف وتصل الى 12٪ واعتمادا على هذا التخطيط وقعت في ذلك الوقت سنة 1980 – 1988 (6 عقود) لإنشاء 6 او 7 محطات كهربائية كي تساهم في مضاعفة الطاقة الكهربائية. وقسم من هذه المشاريع التي تم توقيعها في ذلك الوقت بوشر العمل فيه ووصل الى مراحل متقدمة، على سبيل المثال محطة اليوسفية الحرارية بسعة 1680 ميكا واط ومحطة الانبار بسعة 1320 ميكا واط. محطات الشمال الحرارية ومحطة الناصرية (توسيع رقم 2) ومحطات كهرومائية في أسكي كلك وبطمة وغيرها سعتها 1650 ميكا واط، ومحطة خور الزبير الغازية بحدود 400 ميكا واط. هذه بوشر العمل فيها وكان من المفترض بالدولة بعد التغيير ان تجلب الشركات المتعاقدة معها على هذه المشاريع. غير انه وللأسف الشديد بقيت هذه العقود مجمدة. وحتى محطة الناصرية التي هي عبارة عن 8 مولدات × 210 لكل واحدة، كانت جاهزة للتشغيل ولكن وبعد الحرب بسنة قام الطيران الامريكي بقصفها وتعطيل العمل بها بالكامل بحجة دخول ارهابيين اليها. هذه المحطات بوشر فيها واعتماداتها مفتوحة وقسم من المبالغ مستلمة فيجب تفعيل هذه المحطات. الجانب الثاني هو انه هناك محطات غازية اتفقت الدولة على شرائها من شركة G.E ومع شركة سيمنز قد اشتريت من دون الاخذ بنظر الاعتبار ان هناك جهات اخرى تنصب وتشغل هذه المحطات. وبعد شراء 62 مولدة بطاقة انتاجية 125 ميكا واط لكل واحدة اعلنت الدولة ان من يريد استخدامها ان يشتريها بفائدة ميسرة ويقوم بنصبها وتشغيلها. ولأن الشركات المصنعة لهذه المولدات عندها شروط وعندها فيتو ان يمنح العمل لهذه الشركة او تلك مثلا، ولهذا استبعدت من العمل الشركات التي قد يكون بها رأسمال ايراني وكذلك الشركات الروسية التي نفذت مجموعة من المحطات في السوق، اضافة الى ذلك فان قسما من هذه المحطات الغازية يعمل بالدورة البسيطة، بموجب بحث قدمه الاستاذ عبدالله الماشطة احد افضل خبراء الكهرباء.

ثابت نعمان اسماعيل- رئيس مهندسين كهرباء في وزارة الاعمار والاسكان

أدناه مجموعة ملاحظات على شبكة الكهرباء الحالية وبعض السلبيات في الممارسات حول استخدام الشبكة:

– الاعتماد بشكل رئيس على التوربينات الغازية والتي تقارب من (60٪) من مجموع التوليد مما يعني حكما مسبقا بالهلاك والدمار بالمنظومة الكهربائية، لان مثل هذه الوحدات تؤسس لتغطية احمال الذروة وحالات الطوارئ وليست لتوفير الحمل الاساس (وخاصة في حالة عدم الاستخدام الامثل للوقود) لان كفاءاتها الحرارية بحدود (31٪). لذا يجب البدء فورا بدراسة تحويل جميع المحطات المتعاقد عليها مع G.E وسيمنس لتعمل بنظام الدورة المركبة التي قد تصل كفاءتها الى 58٪ حيث يمكن توفير الوقود وذلك عن طريق استخدام التوربينات البخارية دون الحاجة لحرق وقود اضافي من خلال الاستفادة من الطاقة الكامنة في غازات العادم الناتج من التوربينات الغازية. كما ان التحويل من هذا العمل بنظام الدورة

المركبة يقلل من انبعاثات الغازات الملوثة للبيئة والتي تساهم بتغير المناخ الى الأسوأ وارتفاع درجات حرارة الجو، بالإضافة الى درجة سمية عالية التي سيدفع هذا الجيل والأجيال القادمة اثمانها الباهظة، مما يقتضي وضع مقاييس محددة وملزمة للحد من هذه الملوثات الخطرة بالتعاون مع وزارة البيئة العراقية والهيئات الدولية ذات العلاقة. ومن الجدير بالذكر ان تسمية محطات كهربائية غازية لم تأت عن كون المحطات تشتغل بالغاز كما هو شائع، بل لان عملية دوران التوربين تتم بواسطة الغازات المتولدة في غرفة الاحتراق نتيجة حرق الوقود سواء كان هذا الوقود سائلا ام غازاً طبيعياً.

– لجوء وزارة الكهرباء الى شراء وحدات التوليد من شركات معينة وإحالة نصب تلك الوحدات الى اخرى، ادى الى فوضى وهدر وضياع الجهة المسؤولة عن الخطأ او الاخفاق في تشغيل الوحدات.

– عدم استخدام الطاقة البديلة كالطاقة الشمسية وطاقة الرياح (وهي المصادر النظيفة والصديقة للبيئة) مما ادى الى الاعتماد على مصدر واحد للطاقة. ونود ان نشير هنا ان العراق يتمتع بوقت شمسي يتروح بين (12–18) ساعة يوميا موزعة بين الشتاء والصيف. وبرغم ان كلفة التأسيس عالية نسبيا إلا ان كلفة التشغيل قليلة جدا.

– ان مشاريع التوليد التي تعتمد الطاقة الشمسية، يمكن الاستفادة منها في المناطق النائية لرفع الماء من الابار ومشاريع الدواجن دون الحاجة الى خطوط نقل الطاقة مما يوفر دعماً كبيراً للاقتصاد الوطني. على سبيل المثال في النمسا (30٪) من الطاقة الكهربائية يتم توليدها من طاقة الرياح.

– انعدام ثقافة الاقتصاد في الاستهلاك بشكل عام، وصعوبة الحصول على الديون الخاصة بأجور الكهرباء، خاصة من دوائر الدولة ودوائر الأوقاف وعدم وجود مقاييس الطاقة في كثير من الوحدات السكنية والمعامل والدوائر الحكومية. كل ذلك ادى الى عدم الاكتراث بصرف الطاقة عند توفرها ولو لساعات قليلة.

– استهلاك شبكات التوزيع الداخلية (بين المحولات 11 كي في) تؤدي الى كثير من الضياعات، وذلك بسبب استخدام الخطوط الخارجية.

– وعليه ضرورة استخدام الكيبلات الارضية والتي تقلل الى حد كبير من التجاوز على الشبكة الكهربائية.

عباس الشطري- صحفي

يمكن القول ان مشكلة الكهرباء هي مشكلة القطاعات الثلاث: الانتاج والتوزيع والنقل. وقد افاض الاستاذ خوشابا عند شرح هذا الموضوع. فإذا لم تحل مشكلة هذه القطاعات بشكل متوازن فان قطاع الكهرباء سيبقى يعاني. لدينا حلول في قطاع الانتاج حيث هناك تعاقدات كثيرة مع شركات كثيرة كبرى عالمية لبناء محطات جديدة سواء البخارية ام الحرارية ام الغازية. ولكن بالمقابل ليس لدينا حلول إستراتيجية لمشكلة القطاعات الثلاثة في ظل تبدل اربعة وزراء للكهرباء، ولهذا يمكن القول ان الارادة السياسية هي التي تحل مشكلة الكهرباء. وفيما يتعلق بالطاقة البديلة والطاقة الشمسية فإنها تحتاج الى مبالغ هائلة والإنشاء المؤسساتي اغلى والتشغيلي أقل ووزارة الكهرباء تعمل حاليا على طاقة الرياح والتي يمكن استخدامها في المناطق النائية، اما الطاقة الإستراتيجية الرئيسية فهي المحطات البخارية. لقد أنشأ الروس محطات الناصرية، والتي تنتج الان بحدود

(400) ميكا واط. ان تأهيل المحطات يدخل فيه الحساب المالي والإداري بشكل واسع وكبير وهي مشكلة رئيسية. ثمة مثل بسيط على التأهيل، لقد زرنا محطة جنوب بغداد بحدود 30 او 40 مرة وهي تنتج 300 ميكا واط، كانت واحدة منها فقط تعمل وتنتج (75) ميكا واط، مما يعني ان تأهيلها غير معقول وإخراجها افضل. اضافة الى ذلك هناك قضايا الفساد المالي والإداري والوزراء غير القادرين على معالجة هذه القضية بسبب وجود مافيا حقيقية داخل الوزارة والكثير من المسؤولين مرتبط بها. اما قضية المفتش العام فواجبه الرئيس ليس معالجة ملفات الوزارة وإنما التجمع حول الوزير والوكلاء والمدراء العامين.

- ولمواجهة المشكلات اعلاه اقترح ما يلي:

● الإستراتيجية الكبيرة هي انشاء محطات بخارية بالدرجة الأولى، الفنيون في الوزارة يقولون واجهتنا مشكلة بانخفاض مستوى المياه، وفي رأيي انه من الممكن حل هذه المشكلة بإنشاء بحيرة داخل النهر حتى ينزل مستوى المياه داخل النهر كما يمكن الاتفاق مع تركيا ومع سوريا بشأن المياه ويمكن التركيز على هذه النقطة.

● قضية سوق الطاقة العالمي تزداد اسعاره يوميا ولذلك ليست القضية فقط امنية، وقد تعاقدنا مع الشركة الصينية لننشئ محطة الزبيدية بكلفة 200 مليون دولار زيادة على 950 مليون دولار المطروحة لأنهم قالوا ان هناك مشاكل وقد تأخرنا ويجب على الوزارة ان تدفعها وقد تم التعاقد سنة 2008 ونحن اليوم في 2012 والى الان 20٪ من الانشاء قد تم خلال اربع سنوات وقد اضيف عليها 1300 ميكا واط وتم توقيع العقد وهذه ستأخذ ايضا ثلاث سنوات لتنفيذها.

كاظم الوكيل- مهندس كهرباء استشاري قطاع خاص

هناك ملاحظة على ما قاله الاستاذ خوشابا لغاية 2022، هل تم اخذ احتمالات التطور الصناعي والفلاحي أم بنيت التقديرات على أساس الاستهلاك الحالي؟ المشكلة الاخرى الموارد المائية، فالمحطات البخارية تعاني من مشكلة الموارد المائية.. وهذا كيف يتم حله؟ هل سنجلب 5 او 6 محطات حرارية ومشكلتنا بالمياه كبيرة فهل تم اخذ هذا بنظر الاعتبار؟ الشيء الاخر الموضوع الذي تقوم به دول الخليج والمتمثل بتحلية مياه البحر، البصرة يمكن ان تحلها. ولدي ملاحظة اخرى وهي انه في سنة 2004 عقد مؤتمر اعمار، رئيس وزراء لبنان – وكان في حينه رفيق الحريري – الذي بدوره طلب عقد اجتماع مع المهندسين العراقيين الموجودين في المؤتمر وقد حضرته وحضره ايضا وزير الاسكان باقر الزبيدي ووزير الكهرباء ايهم السامرائي ووزير التخطيط مهدي الحافظ. وكان الزبيدي يتكلم عن خطة اسكان حيث اشار الى ان العراق يحتاج الى 3.000.000 وحدة سكنية وكيف ان العراق باتجاه بناء العمارات السكنية، وقد رفض الحريري هذه الفكرة حيث ذكر بأنه يتكلم بصفته مقاولا وليس رئيسا للوزراء. وبرر رفضه قائلا: لديكم اراضٍ كبيرة وإمكانيات كبيرة ولديكم مواد ولديكم بطالة، وزعوا الاراضي واجعلوا كل مقاول ينجز عددا من البيوت مثلما صارت الخطة في زمن عبدالكريم قاسم، وزعوا الاراضي وتخلصوا من البطالة. اما بالنسبة للكهرباء فقال أيهم السامرائي: نحن باتجاه جلب مولدات غازية وهو امر بيد الدولة فقال الحريري بأنه لا

يؤيد ذلك ففي رأيه وبخبرته، التوليد يذهب للقطاع الخاص، كل التوليد للقطاع الخاص وأنا اتعهد لكم خلال سنة تحلون مشكلة الكهرباء. وهذا حصل في كردستان خلال سنة واحدة وكان هذا في سنة 2004. والشيء الثاني وهو التوزيع وهذه مشكلة كبيرة نعاني منها، الكادر الهائل الخاص بالتوزيع وجمع المال وهذا يعطى للقطاع الخاص كله. اخلص من مشكلة التوزيع هذا ما قاله الحريري. في حين ان ايهم السامرائي كان يريد ان يجلب محطات غازية في وقتها وقد طلب في عام 2004 المقاولين العاملين في الكهرباء وقد حضرت الاجتماع وكان يتكلم عن المحطات الغازية، وقد اجبته بان العمود الفقري لمحطات الكهرباء في العراق هي المحطات البخارية وقد تركتم المحطات البخارية وتمسكتم بالغازية فلماذا؟ فلم يجبني. معنى هذا انه كان هناك مخطط لتخريب الكهرباء. وعندما بدأ المخربون بنشاطهم فإن اول ما قاموا بتخريبه هو الطرق والكهرباء. المهم ان فكرة التوزيع يمكن ان يقوم بها القطاع الخاص وتصير به تجربة منطقة بعد اخرى وبالتالي تتخلص وزارة الكهرباء من هذه المشكلة الكبيرة.

عبد العزيز حسون- مهندس كهرباء استشاري

هذه طروحات مهمة وأرجو ان لا تستغربوا من قولي أن جزءا اساسيا وكبيرا من مشكلة الكهرباء في العراق هي اننا نعلم بكل هذه التفاصيل. اذا كنا نعلم كل هذا والآن جميعنا واجهنا تساؤلات من أناس بعيدين عن هذا المجال عندما نلتقي بهم يسألوننا: اذا كنتم بهذه القدرات وهذه الدراية فلماذا فعلتم ببلدكم كل هذا؟ وهذا الموضوع ارجو ان لا يغيب عن ذاكرتنا. الاخوان الشباب السابقون من امثالي يتذكرون ان هناك نقلة كبيرة حدثت في قطاع الكهرباء الذي تأسس في العراق مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي وفي بداية التسعينيات عندما تأسست مصلحة الكهرباء الوطنية، وكنا نعرف ان الكهرباء كانت على نوعين في العراق، نوع AC,DC فكان الذي عنده ثلاجة في الحلة لا يستطيع تشغيلها في بغداد. وعندما اسست مصلحة الكهرباء الوطنية جاؤوا بضابط عميد مهندس اسمه جهاد الفخري والرجل تولى رئاسة المصلحة كضابط، وكلنا نعرف ان الضباط يضعون في مكاتبهم اسرة وهذا يعني ان هذا مكان اقامته بعد بيته وعندما وجد مساعدوه والعاملون معه انه ينام في مكتبه كلهم صاروا يعملون بأوقات تزيد عن اوقات الدوام الرسمي، وهكذا بدأت اعمدة خطوط الضغط العالي تنتشر في العراق من شماله الى جنوبه. هذه تجارب يجب ان نقف عندها عندما نقول ان للكهرباء وزيراً فهذا خطأ كبير، الكهرباء لا يديرها وزير. المشكلة ان وزير الكهرباء لا يفترض ان يعرف ما الامبير وما طاقته أو ما هو (الواط) فهذا ليس عمله بل هو يرسم سياسة ويصادق على خطة عمل يضعها الفنيون ويراقب التنفيذ، هذا هو عمل الوزير. لا يفترض بالوزير ان يزور محطة كهرباء إلا ليقص الشريط وإذا احترقت محطة كهرباء فهو ليس له علاقة. ولكن هذه المفاهيم يجب ان نعود اليها إذن نحن نقدم خطة ومقترحات ومن المؤلم ومن اصعب المواقف التي يواجهها البشر اليوم، نحن بالذات نواجهها عندما نتكلم ونقدم عصارة ذهننا الى من لا يفهم وكل ما نقوله يذهب هباء. المسألة هي اكثر من هذا لكن العيب هو حدث عندما بدأت الافتراقات. والافتراقات لم تبدأ بعد

الاحتلال بل هي من زمن قديم عندما يصدر قرار ان الكهرباء يجب ان تغطي المنطقة الفلانية خلال فترة قصيرة لا يؤخذ فيها رأي الفنيين ولا خطة الخ. الفنيون في الكهرباء يذهبون وينصبون اعمدة ويمدون الاسلاك ويفتحون الإضاءة. أتذكر مرة على موضوع الصيانة في الكهرباء شبكة الكهرباء الوطنية الى نهاية الثمانينيات وبعد ان استكملت شروطها ووصلت الطاقة تسعة الالاف وخمسمائة ميكا واط كان قد صرف عليها من بداية الستينيات 25 الف مليون دولار وكانت برامج الصيانة تزيد عشرة بالمائة دائما، الـ 2500 لم تعد موازنة الدولة قادرة على الايفاء بها ويتم تصليحها كيفما تشاء قبل اشهر عندما سقطت الامطار بعض المولدات تعرضت للانفجار وهناك محولات قديمة عمرها بحدود 60 سنة وهي مستخدمة ولم تنفجر عند سقوط الامطار. هذه هي المشكلة الان. نضع مقترحات ولكن لم تقدم.

عامر الجواهري- رئيس مهندسين استشاري في وزارة الكهرباء

بدءاً جرى حديث قبل قليل حول لمن تعطى المقترحات، يفترض انه توجد توصيات واضحة تذهب الى لجنة الطاقة في البرلمان، والى نائب رئيس الوزراء لشؤون الطاقة والى وزارة الكهرباء وبوضوح. ويلاحظ ان ما يثار اليوم قد طرح قبل اربعين سنة، نحن نكرره اولا حتى نتحاشاه وان نتحاشى الاجراءات الترقيعية. يعني اليوم عندما يقع حادث ما في اي مكان يغلق الشارع بالكونكريت وعندما نأتي الى الكهرباء بعلاج وقتي فهذا يجب محاربته وان تقدم توصية بان يتم تحاشي الاجراءات الترقيعية التي تهدد الاموال وتضيع الفرص. ان عدم توفر الكهرباء هو احد عوامل تدمير الاقتصاد العراقي لان بيئة الاعمال والإنتاج متوقفة. اليوم الكهرباء هي اكبر واغلى شريك لأي جانب انتاجي في العراق. هذا الشريك الغالي جدا ادى الى فقداننا الانتاجية والتنافسية. وعندما نقول استيرادات العراق من بلد واحد ستصل الى 12 مليار دولار وهم يستهدفون زيادة تصديرهم الى العراق، بما معناه، ولكي لا ننسى نظرية المؤامرة، ان كل مصدر يهمه ان لا ننتج. من الناحية الآخرى ندعو وزارة الكهرباء اذا لم تكن قد بدأت بالمباشرة وإذا بدأت أن تسرع، فعليها الاسراع بإعداد الاستراتيجية للطاقة الكهربائية. وان تعمل مع وزارة النفط لإعداد استراتيجية الطاقة والتي تتضمن النفط والكهرباء وندعو الى اعداد الاستراتيجية. ويتعين ان نتحاشى الاجتهادات والاجتهادات المضادة والرأي والرأي المضاد حيث ان ذلك لا يخرجنا بنتيجة ويكون اعداد هذه الاستراتيجية بالتناغم مع الوزارات كافة. مثال اليوم نحن نعمل على استراتيجية صناعية، نبدأ بالتشخيص لواقع الحال والرؤيا ماذا نريد ان يكون عليه قطاع الكهرباء، ويجب ان تقسم الى خمس سنوات ونلاحظ الاستهلاك المتوقع. فالتشخيص ضروري والرؤية اي تحديد ماذا نريد والسياسات لتحقيق هذه الرؤية. عندئذ لا خوف يا اخوان ان يتبدل الوزراء ولا يوجد في العالم وزير يبقى عشرين او خمس عشرة سنة، لكن توجد استراتيجية مقرة لا حياد عنها وخطط وسياسات مقرة، لان السياسات مستدامة التنفيذ مثلما الخطط مستدامة، فعندئذ لا نخاف ولا نقلق. ووجود هذه الخطط والسياسات ووفق المعايير المتعارف عليها يجعلنا لا نقلق من تبديل فلان وفلان، عندما توجد خطة وإدارة حازمة للتنفيذ ومتابعة. لقد تمت المباشرة بتنفيذ

المحطات على الارض وأحيل العديد منها، اخرها اعتقد في البصرة، وأدعو ان تنفذ هذه بالنوعية والتوقيتات المطلوبة. عندئذ نحتاج الى جهاز متابعة لمتابعة جماعة الكهرباء. هذه الطاقات التي تنفذ اليوم لا تلبي الطلب الى عام 2020 او 2025، وبناءً على التشخيص الذي سيصير وبناءً على التوقعات لغاية 2030 عندئذ ممكن دراسة ما هي التكنولوجيا التي سوف تستخدم وما هي البدائل التي يمكن استخدامها.

الاستاذ رائد فهمي

العمل المؤسسي لا يمكن ان يكون في هذا الظرف. حاليا الاستراتيجية في الوزارات هي استراتيجية الوزراء. وينبغي ان تكون الاستراتيجية بمشاركة جميع المستويات في الوزارة كي تكون استراتيجية الوزارة. وكلما يأتي وزير جديد لا يوجد اعتراض على الاستراتيجية لأن كل المستويات قد اشتركت فيها.

سعدون حسن مجيد- مهندس كهرباء- استشاري قطاع خاص

مقترحات لحل ازمة الكهرباء في العراق:

أولا: من الضروري اعادة التصميم الاساسي للمدن الكبيرة، خاصة العاصمة بغداد، وذلك بوجوب حصر المناطق الصناعية في مساحات معينة بأطراف المناطق السكنية للسيطرة على البنى التحتية وبالذات على استهلاك الطاقة الكهربائية، وذلك بالفرز بين الاستهلاك الصناعي الثقيل والاستهلاك البشري المتواضع light cur-rent، وبالإضافة الى التقليل من الضائعات بفقدان الطاقة الهائل الذي يحصل بالشبكات الكهربائية الناقلة للطاقة والمحولات transformers. ومن المهم ان تكون تلك المناطق الصناعية ذات خطوط كهربائية مستقلة ومفرزة عن خطوط نقل الطاقة الكهربائية للمناطق السكنية. ومن الافضل ان تكون لها محطات تحويل 11/132 كي في substation خاصة بها.

ثانيا: التوجه نحو استخدام الطاقة الشمسية للاستخدام السكني والمحال والمكاتب وإنارة الشوارع. ان المدن العراقية يستخدم فيها تصميم السكن الافقي والذي له سطح يساعد على استخدامه لنصب الالواح السلكونية لأجهزة توليد الكهرباء من الطاقة الشمسية. ان الحصول على الطاقة الكهربائية من تلك الاجهزة يمتاز بزهد انتاج الطاقة الكهربائية kwh للأسباب ادناه:

- فهي بدون كلفة تشغيل لأنها بدون وقود وبدون اجزاء ميكانيكية متحركة فلا تشملها كلف الصيانة وإدامة ميكانيكية maintenance cost وكذلك بدون اندثار فهي لا تسقط حيث لا يصل الاندثار فيها 100٪ كما في مكائن توليد الطاقة الكهربائية التي يحصل فيها الاندثار depreciation cost.
- والامتياز المهم بها خلوها من مسببات تلوث البيئة ففي الدول المتقدمة التي فيها شروق الشمس كما في العراق، مثل اليابان والصين تستخدم الطاقة الشمسية بشكل واسع فقد صممت ونفذت مدن بالكامل على استخدام الطاقة الشمسية. فلا اليابان ولا الصين عنده ازمة كهرباء لكي توجه نحو الطاقة الشمسية، انما الجدوى الاقتصادية والبيئة النظيفة هي الدافع الاساسي لها.
- وكذلك عدم حصول فقدان الطاقة الذي يحصل في شبكات نقل وتوزيع الطاقة الكهربائية وكذلك المحولات transformers المربوطة عليها للمستهلكين والتي لا تقل عن

10٪ من الطاقة المنتجة.

ملاحظة: كان العراق قد باشر منذ اكثر من 30 عاما بالتجارب والبحوث حول استخدام الطاقة الشمسية وكان ذلك في (مؤسسة البحث العلمي –وزارة الصناعة). وكان لهذه المؤسسة بحوث في الطاقة الشمسية وقد الغيت وحلت تلك المؤسسة في العهد السابق.

ثالثا: لقد نفذت في السنوات الاخيرة شبكة لإنارة الشوارع قي بغداد باستخدام الطاقة الشمسية وقد اشرت عليها ملاحظات سلبية، منها ان الاجواء العراقية مغبرة مما يترك ترسبات ترابية على سطح الرقائق السلكونية مما يسبب قلة وضعف كفاءتها. هذا بالإضافة الى احداث الطرق وتأثيرها على اعمدة الانارة مما يتوجب تجنيد اعداد كبيرة من فرق الصيانة وأعداد كبيرة من الاليات لإجراء اعمال التنظيف والصيانة والإدامة الدورية على الطرق المنصوبة فيها تلك الاعمدة للإنارة المثبتة عليها لوحات الرقائق السلكونية المنتجة للطاقة الكهربائية المستخدمة لإنارة الشوارع.

ولكن في حالة استخدام الرقائق السلكونية لإنتاج الطاقة الكهربائية بنصبها في اسطح المنازل فان من السهولة على رب البيت القيام بتنظيف وصيانة تلك الالواح (بشرط الركون الى الشركات الصانعة من ان تكون من الشركات الرصينة وتمتاز بجودة انتاجها ذات الشهرة العالمية لغرض الحصول على الكفاءة العالية وقلة حدوث العطل والصيانة وخاصة الدائرة الكهربائية integrated circuit.

*** نظمت الطاولة المستديرة محلية المثقفين في الحزب الشيوعي العراقي، والتي قامت بإعداد هذه الخلاصة عن أعمال الطاولة، وخصت مجلة (الثقافة الجديدة) بنشرها.**

ترجمة نصوص

مجدرا الصين... الى أين؟

د. صـــالح يـــاســـر

مـا جري ويجـري في الصين منـذ اكثر مـن ثلاثة عـقود يثـير العـديد من المشكلات المنـهجية والنظرية النـاجمة عن التحديد الـدقيق والملموس لخصائص العمـليات الجـارية هنـاك، ويفتح سجـالات لا ينتهي أوارهـا، ويقدم مقـاربات مـختلفة لفهم العديد من الظواهـر والعمليات الاقتصادية والتحولات في البنية الاجتمـاعيـة ووجهتهـا في هـذا البلـد. فقـد شكّل تحـول الـصين وصعـودهـا الاقتـصادي ظـاهرةً محـورية خلال تلـك العقود. ومـن المؤكـد أن "الظـاهرة الصيـنية" ليست بظاهرة عـادية لإن حجمها وأبعادها وانعـكاساتها، تمثل تحدياً كبيـراً للاقتصاد العـالمي وفي المقدمـة منه المراكـز الاقتصاديـة الرأسمـالية الثلاثـة: الأمـريكي والياباني والأوروبي التي تعد اكبر الاقتصادات في العالم.

وتواجه الـولايات المتحدة بوصفها شريك الـصين الأول، صعـود الـصين الـصنـاعي والتجـاري بـاعتبـاره تحـدياً استـراتيجياً للـولايات المتحدة وهيمنتها على نـظام العولمة الرأسـمالـي الجديد، ذلك لان الزخـم الفائق الـذي يتصف به نموها الاقتـصادي وتطورها الصـناعي، وتجـددها التكنولـوجي يمكن أن يؤدي إلـى تحول القوة الأولـى من حيث عدد السكان إلـى قوة عظمـى اقتصاديـة، تتحدى الـولايات المتحدة واليـابان والاتحاد الأوروبي في الأفق الـزمـني المنـظور. أعلـنت الـصين تبنيهـا "اقتـصاد الـسوق الاشـتراكـي" وكان هـذا، بحسب العـديد مـن الباحثـين، اجتهاداً فكريـاً وتطبيقـاً علمياً للـربط بين الاشـتراكية والسـوق لا سـابق له بـاسـتثنـاء مـا طرحته المدرسة البولـونية بزعامـة المفكر الاقتصادي المعـروف الـراحل أوسكـار لانغه (Oscar Lange)

ولم يـكتف مهندسو هذا التحول بإقرار منهج ونظام اقتصادي جـديدين يقومان على الربط بـين الاشـتـراكيـة والسـوق وعمـلياً إدخـال السوق الى الصـين، وإنما ادخلوا الاستثمار الأجنبي الخاص أو المشترك أو نظام السوق وآليـاته في منـاطق الـصين الـشـرقيـة والجنـوبية، وحولوها الـى "اقتصاد رأسمالي متطور" قائم على نظام السوق، وقد باشروا وانطلقـوا في تطبيق بـرنـامج الاستـثمـار والتنمية والتحـويل الاقتصـادي الى السوق

ليغطي شمال الصين وغربها.

يصف قادة الصين اقتصادهم بأنه "اقتصاد سوق اشتراكي" ويعلنون أنهم يقيمون نظاماً يقوم على اقتصاد السوق ودولة الحزب الشيوعي "في آن واحد". فما يزال الاقتصاد الصيني محكوماً بجزء كبير، وإن متناقص، بنظام الملكية العامة لوسائل الإنتاج الذي ارتبط به نظام الصين السياسي بقيادة الحزب الشيوعي، كما أن هذا النظام تجنب ورفض أي تحول سياسي يغير من طبيعة الدولة والسلطة السياسية عموما، وهذا ما يميزه عن التحول الذي حدث في الاتحاد السوفيتي السابق والبلدان الأخرى التي انتقلت من الاشتراكية الى الرأسمالية ضمن مسار معقد ونتائج كارثية.

وهذا كله طرح جملة أسئلة من بينها: هل تستمر الصين في الجمع بين النقيضين، نظام السوق الاشتراكي والتوجه المتزايد نحو الليبرالية الاقتصادية؟ هل يشكل اقتصاد السوق الاشتراكي نظاماً انتقالياً الى الرأسمالية، أو نظاماً انتقالياً الى اشتراكية ديموقراطية مبتكرة أو نظاماً انتقالياً؟ وما هي التناقضات والصراعات التي تجري في الصين المعاصرة؟ ما هي نقاط القوة والضعف في الطريق المتبع؟ وما هي نقاط القوة في يد القوى المعادية للرأسمالية (الساعية نحو الاشتراكية، على الأقل)؟ وهكذا يحتل الجدل حول مستقبل الاشتراكية في الصين مكاناً مركزياً وحياً، ويمكن أن يلم هذا الجدل بالزوايا المتعددة للواقع الاجتماعي المعقد، وما يتيحه من فرص للتحليل، والتحرك نحو التغيير.

لا نريد أن نستبق القارئ بالتوصل الى استنتاجات خاصة به بعد قراءة النصين التاليين، واللذين ياتيان امتدادا لنصوص سابقة ترجمها مشكورا الاستاذ عزيز سباهي ونشرناها في اعداد عدة من (الثقافة الجديدة) (1).. ولكن يهمنا الإشارة هنا الى خلاصتين فقط هما:

– الخلاصة الاولى هي أن التجربة الصينية اعتمدت خلال العقود الثلاثة الأخيرة على الإصلاحات التي قام بها (دينغ سياو بينغ) وخاصة ما عرف بإصلاحات عام 1978، أو ما أطلق عليه بينغ "**الخيار الجديد**" إذ بدأ بإصلاحات اقتصادية تقوم على التحول إلى سياسة السوق والتصالح مع النظام الاقتصادي العالمي (وهو في جوهره نظام راسمالي بالطبع)، وخلق مناطق صناعية وتكنولوجية خاصة، وجذب الاستثمارات، والتنمية التدريجية للطبقة الرأسمالية ومشاركتها في اتخاذ القرار الاقتصادي.

ومن المفيد الإشارة هنا الى أن استيعاب الطبيعة الطبقية الاجتماعية الفعلية والمعقدة لهذا الخيار وما تضمنه من إصلاحات، يستوجب القيام بتحليل متمايز سيكون وحده قادرا على إظهار من هي القوى الاجتماعية التي "تدخلت" فعليا –على المستويين الاجتماعي والإيديولوجي –على الساحة السياسية وقد لعبت دورا هاما في تحديد المضمون الفعلي لهذا الخيار والخط السياسي الذي شكل مرجعيته.

– الخلاصة الثانية: لم تترافق التنمية الاقتصادية مع "التنمية السياسية"، وإنما امتازت التجربة الصينية بتقديم الإصلاحات الاقتصادية على الإصلاحات السياسية، وتأطير التحولات السياسية بما يخدم التحولات الاقتصادية. ويبدو أن القاعدة التي كانت تحكم هذا المسار هي أهمية الاستقرار السياسي، وضرورة بناء شروط التحول الديمقراطي الاقتصادية والاجتماعية، التي تجعل من هذا التحول تحولاً سلميًا مدروسًا في إطار مخطط، على

خلاف التجربة السوفيتية التي اعتمدت مبدأ الصدمة، وأدت إلى الانهيار الكامل وأزمة شاملة ما زالت البلاد تتجرع مرارتها إلى الآن وسوف تستمر زمنا.

*****

(1) نشرت مجلة (الثقافة الجديدة) النصوص المترجمة التالية والتي قام بترجمتها الاستاذ عزيز سباهي وهي: اقتصاد السوق الاشتراكي. خطوة الى أمام أو خطوة للوراء في الصين؟ / الثقافة الجديدة العدد 325؛ تساؤلات بشان التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في الصين، العدد – 326 327؛ خطوة الى الامام خطوتان الى الوراء في الصين، العدد 335 ؛ افق ماركسي للإصلاحات الصينية، العدد 335؛ الاساس الطبقي لـ الماركسيات الصينية اليوم، العدد 337؛ اقتصاد السوق الاشتراكية (الصين والعالم)، العدد 338؛ طرق متقاطعة: حديث صحفي مع فينغزين وانغ وشاوبو تزي، العدد 338؛ مئة زهرة. ردود على تصريح البروفسور يانغ وحوارات مع البروفسورين يي و وانغ وتسي، العدد 339.

وبنشر نصين اخرين عن الاوضاع في الصين في هذا العدد (350–351)، نكون قد نشرنا جميع النصوص الواردة في العمل الموسوم الاشتراكية: **الرأسمالية، السوق.. ما هي الآن؟ والى أين تتجه؟** – مجموعة مقالات، والذي ترجمه مشكورا الباحث المعروف الأستاذ عزيز سباهي والذي تتوجه مجلة (الثقافة الجديدة) له بتحية الشكر الواجبة ذلك لمرتين. الأولى، على ما بذله من جهود كبيرة واختيار دقيق للنصوص المترجمة بما تضمنته من مقاربات متنوعة تتكئ على مرجعيات ومدارس فكرية مختلفة. والثانية على ترجمته الرفيعة التي سمحت لنا أن نطلع على هذه النصوص باللغة العربية مباشرة ومن دون وساطة. كما نتمنى له في الوقت ذاته موفور الصحة والعمر المديد والعطاء المتواصل.

الأهمية التاريخية للجمع بين الاشتراكية واقتصاد السوق *

جنهاي يانغ Jinhai yang
ترجمة عزيز سباهي

البرفسور جنهاي يانغ نائب السكرتير العام لمكتب التوثيق والترجمة، وهو واحد من المعاهد الثقافية الملحقة باللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني. ومهمته الأساسية انتاج الطبعة الرسمية لأعمال ماركس وانجلز ولينين، ولكنه يخدم كذلك كبوابة لهيئات استشارية أخرى. والآراء الواردة في هذه المقالة ليست آراءً حزبية رسمية بالضرورة.

الأفق الجديد في تطور الاشتراكية العالمية

منذ ان نشر (البيان الشيوعي) عام 1848، فان الاشتراكية العلمية التي أوجدها ماركس وأنجلز مرت بتجربة قاربت المئة والستين عاماً. خلال هذه المدة مررنا بثلاث مراحل وثلاث قفزات تأريخية. المرحلة الأولى، من عام 1848 حتى عام 1917، شهدت قفزة الاشتراكية من عالم اليوتوبيا الى العلم، تأسس فيها النظام السوفييتي وكانت المهمة الرئيسية لهذه المرحلة هي ان تمسك البروليتاريا بسلطة الدولة في ثورة اشتراكية. وكانت المرحلة الثانية قد امتدت من عام 1917 حتى عام 1978، وتمثلت بقفزة الاشتراكية من النظرية الى التطبيق وتأسيس الاسلوب التقليدي للاشتراكية. وكان الهدف الأساسي لهذه المرحلة هو استكشاف السبيل لبناء الاشتراكية. اما المرحلة الثالثة والراهنة فتمتد منذ عام 1978. في هذه المرحلة، تحققت قفزة الاشتراكية من الاسلوب التقليدي الى نموذج حديث، حامله معها اصلاحاً اشتراكياً.

في المرحلة الاولى، انتصرت الثورة الاشتراكية في بلدان عديدة، لاسيما في روسيا، فاتحة بذلك عصراً جديداً في تطور البشرية. وفي المرحلة الثانية، برزت هنا بلدان اشتراكية عديدة حذت حذو الموديل التقليدي. برغم ان هذا الموديل اختلف في البلدان المختلفة، إلا أن الاطار الأساسي ظل واحداً، ذا شكل وحيد للملكية العامة،

واقتصاداً مخططاً تخطيطاً مركزياً عالياً، وتوزيعاً طبقاً للعمل ذا اتجاه مساواتي. كان لهذا النموذج بالتحديد بعض المزايا. اذ تغلب على عيوب أساسية عانت منها الرأسمالية كالتلقائية غير المنتظمة للسوق الحرة، وفوضى السوق والاستقطاب الطبقي الحاد. وفي ذات الوقت، منح الشغيلة هيمنة على التطور الاقتصادي من خلال حكومتهم الخاصة لأول مرة في التأريخ.

هكذا، كان من النافع للدولة في النظام الاشتراكي ان تعبئ الرجال والنساء، والموارد المادية لانجاز التصنيع، مقللة بذلك الهوة القائمة بين البلدان المتخلفة والبلدان الغربية المتقدمة. هذه حقيقة معروفة. فالسوفييت باستخدامهم الاقتصاد المخطط حققوا تصنيعاً في الثلاثينيات، وطوروا في الحال التكنولوجيا العالمية في مجالات عديدة، لاسيما في ميادين الشؤون العسكرية والفضاء. كذلك حقق الاقتصاد المخطط وظائف ايجابية في الصين، حيث لم يزود الأسس المادية الاساسية للصناعة الصينية فقط، وانما ضمن لها أعمالاً فذة تكنولوجيا كـ "الصاروخين والقمر الصناعي"]والقنابل الذرية والهيدروجينية في عام 1964 و1967 والقمر الصناعي في 1970[.

وكثير من الناس الذين يتصفون بحدة الذهن في البلدان الرأسمالية تلمسوا أيضاً مزايا الاقتصاد الاشتراكي المخطط، وحاولوا ان ينتفعوا من أساليبه لإعادة بناء النظام الرأسمالي. فبروز الكينزية، التي تدخلت الحكومات بموجبها في الاقتصاد كان واحداً من ثمار هذا الامر. والنيوديل الامريكي، على سبيل المثال، حاول ان ينظم فوضى الانتاج (عندما تولى الرئيس الامريكي روزفلت الفترة الرئاسية الأولى (1932– 1940) بعد اندلاع الازمة الاقتصادية العالمية الكبرى 1929 – 1932، كانت البلاد تمر بأسوأ تدهور اقتصادي في تاريخها. فوضع روزفلت اعتمادا على فريق متخصص برنامجا لتجاوز الأزمة الاقتصادية أسماه "العهد الجديد (- (New Dealالمحرر).

ومع ذلك، ففي المرحلة الأخيرة من الاشتراكية التقليدية، بدأت تلوح نواقصها العظيمة. اذ ان اسلوب الانتاج هذا ينكر من الأساس تنوع العناصر الاقتصادية، ويرجع تطور السوق حصراً الى الخطأ، ويروج الى نظام مساواتي متطرف للتوزيع، ويخفض من القدرة الانتاجية يوماً بعد يوم ويعيق التقدم الاقتصادي الأبعد. مثل هذه المعيقات بالاضافة الى عوامل أخرى كالبيرقراطية المتفاقمة وندرة الضرورات الاستهلاكية، قادت الى ازمة في الاسلوب السوفييتي.

في هذه المرحلة الثالثة، وبرغم أن انهيار اتحاد السوفييتي السابق وشرقي أوربا، قد دفع بالاشتراكية العالمية الى أزمة، الا ان الاشتراكية ذات الخصائص الصينية لازالت تتقدم من خلال الاصلاحات والتجديدات، ويزداد بهاؤها يوماً بعد يوم. ان الحزب الشيوعي الصيني إذ يأخذ بالاعتبار تجربة ودروس الاشتراكية العالمية، فانه يواصل بدأب على تحرير العقل الاشتراكي ويتمسك بالاصلاح والانفتاح. ان الشعب الصيني يتحرى البحث عن نموذج للتطور الاشتراكي يلائم ظروف الصين ويؤسس أخيراً نموذجاً اقتصادياً اشتراكياً جديداً– اقتصاد السوق الاشتراكي.

ان هذا النظام الذي تسوده الملكية العامة، يتعايش جنباً الى جنب مع قطاعات أخرى، يجري التوزيع فيها، أساساً، طبقاً للعمل، ويتولى السوق فيها العناية باغلب تخصيصات الموارد، وخاضعاً الى تنظيم الاقتصاد الكلي .macroeeonomic لقد اعطى هذا النظام حيوية جديدة للاشتراكية. ولهذا يستنتج تقرير المؤتمر السابع عشر

للحزب ان الاشتراكية هي وحدها تستطيع انقاذ الصين، وأن هذا هو الاصلاح الوحيد الذي يمكنه تطوير الصين والاشتراكية والماركسية.

تعلمنا التجربة انه لتطوير الاشتراكية أكثر نحتاج مزيداً من الاصلاح والانفتاح من اجل ان نستوعب وننتفع من اقتصاد السوق الاشتراكي ومن كل ثمرات المدنية الانسانية. ان اقتصاد السوق الاشتراكي، هو واحد من اكثر النتائج ذات الاهمية للإصلاح الصيني، وهو يدشن افقاً جديداً في تقدم الاشتراكية العالمية، إستكشاف طريق جديد للتقدم.

في العصور الحديثة، كانت الرأسمالية هي النظام السائد في أغلب البلدان والمناطق في العالم. وكان هذا النظام نافعاً لتقدم المجتمع البشري. ومع ذلك كانت فيه عيوبه الخطيرة التي تسببت في أزماته الاقتصادية الدولية، المرة تلو الأخرى. أضف الى ذلك، قادت المجتمع الى حمأة الحروب العالمية مرتين. لذلك، كان البحث عن سبيل علمي لتجاوز الرأسمالية، على الدوام، المسعى الدائب لمفكري البشر.

تنطوي الرأسمالية على اقتصاد السوق والملكية الخاصة ونظام مناسب للتوزيع. داخل هذا النظام، ثمة تناقض قوي بين تشريك الانتاج الرأسمالي والملكية الخاصة لوسائل الانتاج التي تتولد عنها سلسلة من الشرور الاجتماعية مثل فوضى السوق والاستقطاب القاسي للمجتمع. وقد تولدت الاشتراكية من انتقاد الرأسمالية، ونظريتها بشأن قيمة العمل وجدت القبول لدى المجتمعات الغربية. وخلال المئة عام المنصرمة تبنت الرأسمالية إجراءات تحسينية لمعالجة مشكلاتها، لاسيما تلك التي تتعلق بفوضى السوق. وقد أدخلت انظمة الرفاه الاجتماعي على اختلافها ما صار يعرف بالاشتراكية الديمقراطية أو راسمالية الرفاه الاجتماعي. إن البلدان الرأسمالية بتعديلها نظام الانتاج وتبنيها قيم منصفة من الاشتراكية صار بوسعها أن تحقق النمو الكامن في القوى المنتجة. وبالتالي بات المتوقع ان تتعايش الاشتراكية والرأسمالية لفترة طويلة من الزمن.

ومع ذلك، فان التناقض الاساسي في النظام الرأسمالي لا يمكن ان يختفي اوتوماتيكيا. ما هو بالغ الاهمية ينبغي ان نتذكر أن فوضى اقتصاد السوق لا يمكن تصفيتها في اطار النظام الرأسمالي بسبب مصالح الطبقة البورجوازية الحاكمة. إن تصفية فوضى الانتاج تحتاج القضاء على الملكية الخاصة والهيمنة عليها من جانب الشعب، وهو أمر لا يمكن ان تقبل به الطبقة الرأسمالية مطلقاً. وبالتالي فان اقتصاد السوق الحرة في ظل الرأسمالية، شأنه شأن حصان وحشي دون لجام، يقود المجتمع الى امام، دون ان يكون بوسع احد السيطرة على ذلك الحصان الوحشي. وفي هذا السبيل، يصبح تطور الاقتصاد والمجتمع ظاهرة "طبيعية" لا غاية لها ولا يمكن ضبطها. لهذا السبب يعتقد كثيرون من الناس أن التطور الاجتماعي الأبعد غير ممكن في ظل الرأسمالية.

ان نظرية وتطبيق اقتصاد السوق الاشتراكي تتخطى اساسا حدود الرأسمالية، جامعة بين تفوق النظام الاقتصادي الاساسي للاشتراكية ومزايا اقتصاد السوق. أي ان النظام الاقتصادي الاساسي للاشتراكية يضمن العدالة في المجتمع بينما يؤكد السوق الكفاءة الاقتصادية. إن اقتصاد السوق في ظل اقتصاد السوق الاشتراكي يشبه حصانا روّض وربي جيدا يمكن للشعب ان يمسك بأعنته ويعمل وفقا للقيم الاشتراكية.

وبالنتيجة، فان اقتصاد السوق

الاشتراكي يمكن ان يجمع سوية المعرفة الاقتصادية والقيم الاشتراكية، التلقائية والوعي، التوجه الموضوعي والتوجه الانساني. على هذا النحو، فان هذا التطور لاقتصاد السوق يتغلب على شرور الاقتصاد الرأسمالي كالعفوية، والتوجه الموضوعي والوحشية، ويحقق الوعي والتوجه الانساني والقيم الانسانية. انه يتجنب نواقص الاشتراكية التقليدية كطبيعتها المصطنعة وطبيعتها الوحدانية الذاتية، ورفض العوامل الاقتصادية، مُمَكّنا الاقتصاد من التطور بمزيد من العافية وبعلمية طبقا لقوانينه الموضوعية. لهذا يمكننا ان نقول دون تردد ان اقتصاد السوق الاشتراكي سبيل جديد لتطور الاقتصاد والمجتمع البشري، او على الاقل سبيل جديد تحت الاستكشاف.

تحسن اقتصاد السوق الاشتراكي

برغم منجزاتنا في التطور الاقتصادي والاجتماعي فلا زالت هناك حاجة الى جهود عظيمة لتحسين النظام. فلتحسينه يلزمنا ان نسعى لفهم سلسلة من القضايا النظرية، لاسيما ما يتعلق بالعلاقة ما بين الاشتراكية واقتصاد السوق، وهل يمكن الجمع بينهما. في رأيي، ان العلاقة بينهما، هي في الجوهر، العلاقة بين العدالة والكفاءة، وانه من الممكن الجمع بينهما بصورة جيدة.

في الماضي، غالباً ما كان الناس يربطون اقتصاد السوق بالرأسمالية، والاقتصاد المخطط بالاشتراكية. الحق، ان السوق والخطة كلاهما مقياسان لتنظيم الاشتراكية والاقتصاد، واقتصاد السوق ليس أبا الرأسمالية. ان اقتصاد السوق كوسيلة في خدمة الناس لتبادل منتجات العمل او المصادر المحلية يمكن ان يتكامل ليس مع الرأسمالية وحدها وانما مع الاشتراكية أيضاً. ان اقتصاد السوق، من الوجهة التأريخية، كآلية هامة للشعب لتبادل العمل والمنتجات، هو احد المبتكرات العظمى للأنسان، وهو أمر شهدته مدنيات عديدة. ففي عهد الاقطاع بل حتى في المجتمعات القديمة، وجد السوق، لكنه لم يلعب الدور المركزي في النشاطات الاقتصادية. ولكن المجتمع الرأسمالي طور اقتصاد السوق الى أبعد حدوده ليغدو الشكل الاقتصادي السائد.

والعتلة الاقتصادية لأقتصاد السوق هي القيمة. وميزتها الهامة للغاية كونها قادرة على توليد مختلف المصالح الاقتصادية بين الناس وبهذا فانها تزيد من التقدم الاقتصادي. في الجانب المقابل، نقيصتها الخطيرة للغاية تكمن في كونها تميل الى توليد استقطاب اجتماعي، وتغري بالظلم، ولا تساعد في استقرار التقدم الاجتماعي. ان الطبيعة الثورية للرأسمالية تكمن الى حد بعيد، في قدرتها على الانتفاع الكامل من الأوجه الايجابية للسوق، لكن محدوديتها تكمن في كونها غير قادرة على السيطرة على تطورها وتوليدها التباينات الاجتماعية الكبيرة.

والاشتراكية التي انبثقت من نقد شرور الرأسمالية، تسعى الى الحفاظ على مصالح الغالبية وتحقيق العدالة والمساواة الاجتماعية. واقتصاد السوق الاشتراكي لا يمكنه فقط جعل السوق يلعب الدور الذي يمكّن من نيل المنافع الاقتصادية العظمى، وانما ايضا تحقيق العدالة والمساواة الاجتماعية الى حدها الاقصى. وقد اظهرت النظرية والتطبيق ان اقتصاد السوق الاشتراكي هو الشكل الاقتصادي الرئيسي الذي يأخذ بالاعتبار الكفاية والعدالة في آن واحد.

في هذا المجتمع، إن الكفاية والعدالة هما عجلتا عربة وكجناحي الطائر، وكلاهما

جانبان لا يمكن الاستغناء عنه. ومن اجل أن يؤدي المجتمع وظيفته على النحو الأفضل، من الضروري ان يعدل العلاقة بينهما بانتظام ويجعلهما في حالة توازن أساسية. الكفاية والعدالة هما وحدة تناقض، تتوحدان من خلال فجوات مناسبة من المصالح الاجتماعية والاقتصادية. ورغم ان الفجوات شرط أساسي للكفاية، الا انها ينبغي ان تكون محمودة لدرجة معينة. فلو كانت الفجوة صغيرة للغاية، حينئذ تكون الكفاية واطئة، والقوى الدافعة ستكون غير كافية ولن يؤدي المجتمع وظيفته على نحو جيد. أما اذا كانت الفجوة واسعة جداً، حينئذ ستكون هناك حاجة الى الكفاية وخصام جلي من المجتمع، الذي لا يمكن ان يتطور بيسر. ان الفجوات الصغيرة ستقود الى المساواة، غير العدالة بالنسبة الى الناس ذوي القابليات العالية. والفجوات الواسعة ستحبط من حماسة غالبية الشعب، وهي بدورها ستقلل من كفاية المجتمع.

في هذا الشأن، العلاقة ما بين الكفاية والعدالة هي علاقة جدلية. ففي المرحلة الاولى من الاصلاح والانفتاح الصيني، كانت مشكلة المساواتية، والكفاية الواطئة بارزة، لذلك حشرنا كل قوانا لمعالجة قضية الكفاية، مستفيدين من ميكانزم السوق، لجعل المداخيل متباينة والسماح لفئة صغيرة من الشعب لكي تغتني قبل الأوان. اما اليوم فالوضع مختلف تماماً: فالفوارق في المداخيل واسعة حقاً وباتت مسألة العدالة بارزة.

لذلك، ينبغي ان نعبئ قوانا لمعالجة هذه القضية. ومن خلال سياسات الرفاه الاجتماعي ونظام سليم للمالية والعوائد، يمكننا ان نقلل الفجوات في الثروة والمواقع تدريجياً، مبقين عليها ضمن نطاق معقول، ومحققين الرفاه المشترك خطوة فخطوة. وبالتالي، فلا توسيع الفجوات بافراط، ولا التقليل فيها بافراط، هو السليم. وهو صحيح البحث الى الحد الاقصى عن تفاوت مقبول من المجتمع والتقدم علمياً نحو الدرجة التي يمكن للمجتمع ان يتقدم الى امام قدماً وبعافية. وهذا هو ما يؤلف لب نظرية اقتصاد السوق الاشتراكي.

ثمة، بالتأكيد، عديد من القضايا الأخرى التي تتعلق بالاقتصاد السوق الاشتراكي. ومع المزيد من التطبيق، سنعمق فهمنا والهيمنة عليه اكثر مستخدمين مقاييس القيم الاشتراكية. وبذلك سنحسن اقتصاد السوق الاشتراكي، وهكذا يغدو بوسع الشعب الصيني ان يسهم بشيء جديد في تقدم المجتمع البشري.

*** الاشتراكية، الرأسمالية، السوق.. ما هي الآن؟ والى أين تتجه؟ –**

إنسجام بين الرأسمالية والاشتراكية**

منكي لي
ترجمة عزيز سباهي

منكي لي، يدرس الاقتصاد في جامعة يوتاه (كندا) وكتابه الحديث: نهوض الصين وزوال الاقتصاد الرأسمالي العالمي، سينشر من جانب دار نشر Pluto.

هل الصين رأسمالية او اشتراكية؟ بصراحة، لا اعتقد ان هذا سؤال يبعث على التحدي الثقافي. مع هذا، فطالما كنا نتحدث عن الصين، فعلى الأرجح يلزمنا ان نواجه الحقيقة "في الخصائص الصينية". الاشتراكية يمكن ان تكون رأسمالية، بينما يمكن ان تكون "الرأسمالية وبشكل جيد اشتراكية". وتجد ما بعد الحداثة الصينية أسلافها المثقفين في التاوية الصينية السابقة للتمدن. وكلاهما ينسجمان في "الماركسية الصينية الرسمية المعاصرة"(1).

في الصين المعاصرة، بين الذين يصرون على ان الصين لم تصبح رأسمالية بعد، (او لم تصبح رأسمالية كاملة بعد؛ والوصف بالكاملة هنا يعطي المرء قدراً كبيراً من المرونة في الغالب). ثمة ثلاثة مواقع سياسية وثقافية مختلفة. الأول، هناك اليمين، او اللبراليون (او قل اللبراليون الجدد، ولكن لا ينبغي خلطهم مع اللبرالية بالمعنى السياسي في الولايات المتحدة)، الذين يرون ان الرأسمالية لفظة جيدة للغاية لوصف الصين الراهن.

الصين اليوم سابقة للحداثة، سابقة للرأسمالية، "اقطاعية" او في أحسن الأحوال رأسمالية "بدائية" (تفسير لمفهوم ماركس عن التراكم البدائي) ولذلك، فإنها "غير متمرنة". و"الرأسمالية"، بالنسبة للبراليين كلمة بديلة للبلدان "الديمقراطية" و"المتمدنة" في شمال أمريكا واوربا الغربية.

ثانياً، هناك الذين يعتبرون أنفسهم ضمن اليسار، وحتى "ماركسيين" وهم يصرون على ان الصين لاتزال اشتراكية، اذ انها تواصل احتفاظها بالعديد من الخصائص الاشتراكية، او أنها في نوع من الانتقال

الثابت (اشتراكي او رأسمالي وكلاهما لا ترى له نقطة نهاية).

وليس الأمر انهم لا يبالون كلية بالأوضاع الإجتماعية للصين (ولو ان بعضهم يعوزه حقاً الاهتمام المناسب لانعزاله عن حياة الطبقة العاملة). كما انه لا يعوزهم التدريب النظري، بل هم يحتلون مواقعهم الفكرية الراهنة تماماً لأنهم يعتمدون التعليل الماركسي النظري.

فلو ان المرء كان ماركسياً وأراد أن يتوصل الى استنتاج بأن المجتمع الذي يعيش فيه هو رأسمالي، وبالتالي فهو مجتمع استغلال واضطهاد، فماذا سيكون التفسير المنطقي الذي سيتوصل اليه من هذا التحليل؟ حسناً هذه نقطة صغيرة من الخطير جداً التفكير بها.

ثالثاً، هناك الذين يعرفون كل شئ ويفهمون كل شيء، ولكنهم قرروا ان لا يفصحوا عن أي شيء لسبب معروف جداً، أعني به "الخصائص الصينية" مع هذا الخلط الذي يعوزه "النقاء"، (كما يصف شاوبو تسي الأمر) فان ما يجري في الصين لا يطابق بدقة أي نوع معروف من التطور الاجتماعي، برغم ان تسي دقيق نسبياً في أغلب مناقشاته، ويتجرأ المرء ليجد ان هناك شيئاً يبدو ان المجتمع الصين يتفق عليه من اليسار حتى اليمين وهو: ان الصين ينبغي ان تُحدّث، وأن تنجح في بحثها عن "الحداثة".

وبروح "المجتمع المنسجم" من الحكمة بالنسبة لي ان أضع هذا المفهوم نصب عيني كنقطة للانطلاق.

في الصين، ما يعتبر تمدناً هو في الغالب ما يتفق بلون ما مع الغرب. فطوال آلاف السنين من تأريخ الصين، لم تكن للغرب منذ زمن طويل أهمية تذكر بالنسبة للصين. ولم يبرز النظام العالمي الحديث الراهن الا في القرن السادس عشر. برز أولاً في أوربا الغربية، وامتد من بعد ليحتوي الكرة الأرصية برمتها.

أي شئ هو الأحدث بالنسبة الى النظام العالمي الحديث؟ في قوانين الحركية الأساسية، انه يتميز عن كل الانظمة الاجتماعية السابقة بطريقين أساسيين اثنين: الأول، هناك كثرة من الدول او كثرة من الكيانات السياسية، مقابل هذا فان كل الحضارات العظيمة السابقة للأزمنة الحديثة كانت امبراطوريات ذات سلطة سياسية مركزية (تلك التي كانت أما في طريقها الى الانحلال أو أنها خضعت في النهاية الى الامبراطوريات).

ثانياً، أوجدت المنافسة الدائمة والمكثفة ما بين الدول أوضاعاً سياسية مناسبة لنشاطات إقتصادية موجهة نحو الانتاج من أجل الربح (الدول تحتاج الى دعم مالي من اولئك الذين يملكون رأس المال. وليست هناك دولة تستطيع معه ان تصادر رأس المال دون ان تعاني من النتائج). وفي النتيجة، غدا الانتاج من أجل الربح وتكديس رأس المال فعاليات قائمة بذاتها. وتطور النظام بعدئذ لأن يقوم على قاعدة التوسع الدائم في تراكم رأس المال وفقاً لمقاييس متعاظمة.

في القرن التاسع عشر أرغمت الصين على ان تغدو "مفتوحة" امام التجارة والمدنية الحديثة. وفي العقود التالية، حين أدمجت الصين في النظام العالمي الحديث، تضاءلت من واحدة من أعظم المدنيات في التأريخ الانساني الى واحدة من افقر دول العالم، كما أصبحت عضواً سطحياً شبه مستعمر ضمن مجموعة النظام الدولي.

ومنذ ذلك الحين باتت كل الطبقات الاجتماعية والاتجاهات السياسية في الصين تواجه تحدي "التمدن". وصارت الصين تبحث عن المدنية، واحتاجت، اولاً وقبل كل

شيء، الى ان تعكس انحدارها المدني الذي فرضه التمدن. وبهذا المعنى أصبح البحث عن التمدن ستراتيجية قابلة للحياة، للتطور الوطني. تعمل اولاً على تثبيت وضع الصين ومن ثم تقويته في اطار النظام العالمي الدولي، بحيث تستطيع الصين في يوم ما من "اللحاق بالغرب، والتحول الى دولة قوية وغنية".

وما بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، منذ النخب التقليدية الى النخب الجديدة على الطراز الغربي (كالقوميين ومثقفي الرابع من أيار) أقدمت هذه النخب على محاولات متعاقبة للبحث عن هذه الستراتيجية، دون ان يحالفها النجاح. وتحول الأمر الى ان يغدو نهوض الصين الحديثة في حاجة الى ما يقل عن التعبئة الكاملة للجماهير الواسعة من المستغَلين والمضطهَدين –الثورة الصينية العظمى.

تلكم كانت الظروف التأريخية التي ولدت فيها الصين؛ والكوابح التأريخية التي تعين على الصين ان تتعايش معها.

ناقش (جيتسيونغ يي) خمس مقاربات مختلفة بين "الماركسيين" الصينيين. لم يشر عامداً الى "اليسار الجديد" وهم صنف واسع يضم كل الاتجهات الثقافية التي تتخذ موقفاً نقدياً من الرأسمالية النيولبرالية و "الانفتاح والاصلاح" الصيني. (هوي وانغ)، وهو أحد الباحثين البارزين من اليسار الجديد الصيني يستخدم مفهوم "الحداثة البديلة" في تحليله للصين الحديثة. ومن هذا المنظور، ينظر الى الصين الحديثة وهي تبحث عن كلٍ من الحداثة وبديل عن الحداثة (والغرب).

وحقيقة كون الصين تبرز من خلال ثورة شعبية عظيمة، كانت تعني أن الاوضاع السياسية والاجتماعية بعد الثورة كانت لابد ان تكون ملائمة نسبياً للعمال والفلاحين (انظر الى بعض المناقشات التي دارت بين شاوبوتسي وفينغزهان وانغ). كان العمال في المدن في الفترة الماوية يُزوَدون بقدر كبير من الرعاية الاجتماعية بما فيها ضمان العمل، الرعاية الصحية، التعليم، الضمان الاجتماعي، السكن، وما يعرف جماعياً بـ"صحن الرز الحديدي". كذلك كان الفلاحون يعيشون في ظل نظام تعاوني يزودهم بالرعاية الصحية والتعليم. أضف الى هذه، كانت هنالك بين الحين والآخر مشاركات شاملة من جانب العمال والغلاحين في الشؤون السياسية والادارة الاقتصادية.

مع ذلك، فقد ظل في الصين بعد الثورة جزء من النظام العالمي الرأسمالي الحديث، ولذلك قيد ببعض قوانين الحركة التي فرضت على جميع الدول الحديثة. وكان على الصين أن تدخل في منافسة عسكرية وصناعية مكثفة ودائمة ضد الدول الكبرى الاخرى. وكان هذا يعني ان تنصرف الى التصنيع وان يستخلص جزء من التصنيع وفائض الانتاج الاجتماعي من العمال والفلاحين لتراكم رأس المال. زد على هذا فان التصنيع يتطلب خبرة تقنية وادارية. وكان لابد لمجموعة صغيرة من السكان تتصف بهذه الخبرة ان تحظى بموقع يتطلب إمتيازات مادية.

وهكذا، حالما سارت الصين بعد الثورة في طريق التصنيع والتراكم الرأسمالي، حتى ظهرت طبقة جديدة من البيروقراطيين والتكنوقراط ذوي الامتيازات. ونظرت هذه الطبقة اكثر فأكثر الى الشروط السياسية والاجتماعية المواتية نسبياً للعمال والفلاحين الصينيين، وكذلك الحدود التي تفرضها الثورة على امتيازاتهم المادية الخاصة، كعقبة تحول دون تمدن الصين، وبالطبع دون

ثرائهم الشخصي كذلك.

هذا يقودنا الى صراع ما بين "خطين": اما ان تجد الصين لاشك سبيلاً الى التسامي فوق العصرية او انها ترضخ للعصرية. وكلنا نعرف جيداً حصيلة الصراع الذي دار في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، وهو ما قادنا الى الصين الراهنة.

اذن، هل الصين الآن في طريقها الى بناء "مجتمع متجانس"؟ دعنا نقيم هذه المسألة من خلال النظر الى "المراتب الاجتماعية الرئيسة الثلاثة". (فينفزين وانغ) ناقش الطبقة العاملة والطبقة الوسطى والطبقة الرأسمالية.

ان الطبقة العاملة التقليدية في قطاع الدولة قد دحرت حتى الآن، وفقدت، في الواقع، كل حقوقها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي كانت تثير، يوما، حسد العمال في أجزاء عديدة من العالم. لكن الطبقة العاملة وهي تندحر، تعلمت دروساً سياسية مهمة وباتت تفهم ماذا تعني الرأسمالية والاشتراكية في الحياة الحقيقية للشغيلة. وفي السنوات الأخيرة تسيس كثير من العاملين التقليديين في قطاع الدولة. وحالما تصبح الأوضاع السياسية مناسبة فأنهم لن يترددوا في شن معركة رئيسية لتصفية الحساب مع اولئك الذين كدسوا الثروات من خلال الخصخصة والفساد. وكجزء من هذه العملية سيطالب العمال بالتأكيد باستعادة حقوقهم التأريخية.

ان الطبقة العاملة الصينية الجديدة (بمن فيهم العمال المهاجرون) التي تستخدم في القطاعات الرأسمالية الجديدة، هي من العمال الأشد استغلالاً في العالم. والعلاقات السياسية والإقتصادية المباشرة ستظل غير مواتية للبروليتاريا الصينية الجديدة في السنوات القادمة. مع هذا، ففي غضون عقد او عقدين، حين تستنزف القوة العاملة الفائضة في الريف الصيني، ويصبح كثير من العمال المهاجرين ضمن سكان المدن، ويرون أنفسهم اكثر فأكثر كعمال بروليتاريين بدلاً من "عمال فلاحين" فإن المرء سيتوقع ان يحذوا العمال الصينيين حذو العمال في بقية أنحاء العالم، ويؤلفوا المنظمات الاقتصادية والسياسية، ويشرعوا بالمطالبة بالمزيد من الحقوق الإقتصادية والسياسية. لاشك ان هذه المطالب ستكون محدودة في البداية وبما يتلاءم مع الحدود التي فرضها مجرى "حقوق الانسان" البرجوازية، وهي في الغالب ستضمن أجوراً أفضل وشروط عمل أحسن وساعات عمل أقل والحق في تكوين النقابات. ولنلخص هذه المطالب بمطلب "يوم عمل بثماني ساعات".

لاتزال الطبقة الرأسمالية الصينية حتى الآن، قادرة الى حد بعيد على جعل الطبقة الوسطى الحضرية (المثقفين في السابق) تقدم دعما سياسيا حرجا لمشروع "الاصلاح والانفتاح". واذ رفعوا توقعاتهم وباتوا واثقين من انهم قريبا سيحققون احلامهم الاستهلاكية الامريكية، فإن كثيرا من "العوائل الوسطى" الصينية، باتت تناضل الان من اجل رفع رهوناتها وتنظر الى مدخراتها وهي تختفي في سوق الاسهم. أما بالنسبة الى خريجي الكليات الجدد، فانهم ما عادوا يستطيعون الحصول على شقة جديدة، ولا سيارة جديدة، وكثير منهم يجد نفسه عاطلا عن العمل حالما يتخرج.

كيف تستطيع الطبقة الرأسمالية الصينية ان تواجه مطالب كل من الطبقة العاملة التقليدية للعودة الى "قصعة الرز الحديدية"، والطبقة العاملة الجديدة بما لا يقل عن "يوم عمل بثماني ساعات" فيما يترنح التأييد السياسي الحرج من الطبقة الوسطى في المدن؟ اشار (بي) الى الاصلاح السياسي،

وهو أمل من المحتمل ان يشارك فيه أغلب المثقفين الصينيين من اليمين الى اليسار. لتكن عندنا ديمقراطية لبرالية، لتكن لنا دولة رفاه، ليكن لدينا تساوم طبقي وليس صراعا طبقيا ودكتاتورية بروليتارية، ولنشارك جميعا في تكوين مجتمع منسجم عظيم. واذا كانت النزاعات الطبقية سهلة الحل واذا كان المجتمع المنسجم أمراً رائعاً فلماذا لم تكتشفه الطبقات الحاكمة من قبلُ؟

وطالما كان يتوجب على المسؤولين الصينيين "الماركسيين" ان يقرأوا لينين، فانهم ملزمون بان يراعوا أن "الانسجام" النسبي في البلدان الامبريالية كان يقوم على وجود "ارستقراطية عمالية" الذين يُشترون بفائض الارباح التي تنجم عن الاستغلال الفاحش في المستعمرات واشباه المستعمرات. والان، فان الاستغلال الفاحش للعمال الصينيين ربما يلعب دورا ليس بالصغير في امتصاص ارباح الاحتكارات في عصر اللبرالية الجديدة. هكذا تولد "انسجام" بين الرأسمالية العابرة للقارات وشروط العمال الصينيين الذين يعملون في المجالات المرهقة. والان بات للرأسماليين الصينيين نصيبهم في "النهوض السلمي"، هناك قضية: أتوجد في عالم اليوم مستعمرات واشباه مستعمرات تستغلها الصين؟

ثمة إزعاج صغير آخر. منذ قرون من التراكم الرأسمالي المتواصل في ظل النظام العالمي الحديث، يستنفذ العالم، وبسرعة، كل انواع المصادر التي لا يمكن التعويض عنها، وكذلك تتكون "بؤر" التلوث الخطيرة التي يقول عنها العالم الأقدم في التغيرات المناخية جيمس هانسن (James Hansen) التي سينشأ عنها ان العالم خلال عقدين من الزمن لن يعود قادراً على التخلص من اشعاعات اوكسيد الكاربون المنبعثة من إحراق الكاربون خلال عقدين من الزمن، والتي ستتولد عنها كوارث بيئية يمكن ان تقضي على الحضارة البشرية.

والتراكم الصيني السريع قد اتخذ من الفحم ما يسد 70 ٪ من حاجة الى الطاقة. فكم سيتبقى من الفضاء الايكولوجي إذا واصلت الصين بناء الأساس المادي لـ"مجتمعها المنسجم"؟ هل هناك يسار آخر؟ شيء واحد مؤكد. في المستقبل القريب جداً، ستكون الطبقة العاملة الصينية على استعداد للمطالبة بـ"يوم عمل بثماني ساعات" وهو ليس مطلباً اشتراكياً. ولكن هل بوسع الطبقة الرأسمالية الصينية ان تلبي هذا الحق البرجوازي؟ أم ستكون هذه نهاية لعبة الحداثة؟

** الاشتراكية، الرأسمالية، السوق.. ما هي الآن؟ والى أين تتجه؟ – مجموعة مقالات. ترجمة عزيز سباهي.

(1) التاوية: التاو عقيدة ظهرت في الصين في القرن السادس قبل الميلاد. وهي تقول بأن الاشياء تصدر وتتغير وفق "طريقتها الخاصة" وكل الاشياء متبادلة وتتحول الى أضدادها في عملية التبادل. والتاوية تعارض التسلط والقهر وتدعو الى العودة الى المجتمع البدائي. ويرى بعض دعاتها ان التشبث بالتاو سيعطي كل انسان الحكمة والمعرفة بالحقيقة. وراى آخرون ان نفس الانسان تتألف من جزئيات رقيقة، تأتي وتروح استناداً الى "نقاء" او "تلوث" عضو التفكير. هذه المادية البدائية طعمها بعضهم بعدم وجود حقيقة موضوعية، وان الحياة وهم. وان الوجود الحق ينبع من التاو الموجودة الأبدية المستقلة من هذه الافكار تطورت التاوية الى دين أيضاً. ولهذا ينبغي التمييز بين التاوية كفسلفة والتاوية كدين– المترجم عن الموسوعة الفلسفية لروزنتال ويودين ترجمة سمير كريم.

حـــــــــــــــوارات

ياسين النصير..
اسهامات نقدية ودراسات في حقول شتى

حـــاوره : سعـــدون هلـيل

ياسين النصير مفكر وناقد، معروف على المستوى المحلي والعربي والدولي، مثير في البحوث والكتابات النقدية، واسع الاطلاع في حقول المعرفة الادبية كافة، ملم بشكل واسع في حقول شتى بالموضوعات المسرحية والتشكيلية. له دراسات مختلفة في مجالات: ادب الأطفال، اشكالية المكان في النص الأدبي. بعيد عن الجمود، متفاعل مع الحياة بتياراتها الثقافية المتعددة، واضح العطاء، سريع البديهية، صفته المثابرة، والإخلاص والنزاهة، عضو الهيئة الادارية لاتحاد الادباء في العراق، وسكرتير رابطة النقاد. له حضور مميز في المنتديات الثقافية والمؤتمرات محلياً وعربياً وأوربيا، كما له بصمات في النقد البنـّاء لنصوص عدد كبير من الكـُتاب والمؤلفين والشعراء، وهو إسم راسخ في حركة النقد الأدبي في العراق، ومن هذا المنطلق كان لنا هذا الحوار مع المفكر والناقد المعروف ياسين النصير.

● ***كيف تعرف نفسك لقراء الثقافة الجديدة بعد أن عرفك الأدباء العرب أكثر من الأدباء في العراق؟***

– أعتبر نفسي معروفا عربيا وعراقيا، ولكن شكل المعرفة مختلف بين مَن يعرفك ناقدا مجربا ولك تأثير ما في الدراسات الاكاديمية والنقدية، ومن يعرفك شخصيا أي يجلس معك ويتحاور معك ويصادفك في الباص والطريق وأمكنة أخرى. شخصيا لست مقروءا جيدا من قبل بعض النقاد العراقيين، بينما مقروء بشكل جيد من قبل بعض بل وأكثرية النقاد العرب، حتى أن صديقا ناقدا مثل فاضل ثامر، وهو الذي زاملني منذ عام 1969 وشكلنا ثنائيا نقديا متميزا، لم يقرأني، والعذر معه، فهو ناقد تجمد عند حدود معرفية وأسلوبية معينة ولا يريد أن يخرج عنها، ومن يخرج إلى غيرها يعده مارقا. في حين أن ناقدا مثل حسن بحراوي أو حسن نجمي أو عشرات النقاد يقرأونني بشكل جيد وبروح نقدية. من هنا

أقول لك انني لست منشغلا بآراء ليست مبنية على قراءة. الشيء المهم في معرفة النقاد والدارسين العرب أنها معرفة علمية وحوارية، بينما معرفة قرائنا من العراقيين مع الأسف معرفة سطحية.

● ***الملاحظ انك تهتم بالجزئيات المكانية الآن كالأرصفة والشوارع والمقاهي والمنازل المعزولة والغبار وغيرها بعد أن كنت تهتم بالأمكنة الكلية الشاملة والكبيرة، هل ثمة فلسفة ما تقف وراء هذا التحول من الفضاءات الكلية إلى الفضاءات الجزئية؟***

– نعم ثمة فلسفة تقف وراء اختياري للجزئيات المكانية، هي أن هذه الأمكنة هي ميدان الممارسة اليومية والتي تنتج لغة اليومي والمألوف وفيها يجد الشاعر والروائي والقاص والفيلسوف غير المألوف، الذي هو ميدان لما بعد الحداثة حيث الغرائبي والعجائبي والشاذ والنادر والساخر واليومي، كلها تستحم في قدر الأمكنة الصغيرة وتنتج ثقافة يومية قادرة على استيعاب التواريخ والأحداث الكبيرة. فأنا اعتبرها الشواهد الفاعلة في تنويع الرؤية للمكان الواحد. لا يمكنك أن ترى المكان بكلية عيانية واحدة، كما لا يمكنك أن تفهم شحناته لمجرد أن تعرفه، المكان هو مجموعة أمكنة، وليس المكان الكلي إلا إطار كلي للأمكنة الجزئية التي يتألف منها، وهذه الجزئيات مختلفة بل قائمة على الاختلاف وليس على التشابه والتكرار، وإلا لما كان ثمة بنية. عندما تتعامل مع المدينة مكانا، لن تجد وحدة مكانية واحدة لها، بل مجموعة من الأمكنة، وهذه الامكنة تتألف بدورها من مجموعة اصغر وهكذا تجد نفسك غارقا في التفاصيل، ثمة رؤية روائية تكمن في كل منحى نقدي جديد، هذه الرؤية تبحث في التفاصيل الصغيرة من أجل بنية اشمل للصدق الفني. ولو امعنت النظر في اية جزئية ستجدها من محتويين، الأول خاص بها ذاتيا، والثاني اشتراكها مع غيرها في تكوين وحدة أوسع، وهذه بدورها تشترك مع وحدات أوسع. الفلسفة القائمة وراء هذا الاهتمام هي ان النقد يرفض المقولات الكلية والشاملة وعليه أن يذهب إلى الجزئيات المختلفة ليجد العلاقة التي انشأتها المجاورة والمماثلة والإيهامية. ومن هنا بدأت حوارا مكانيا مع الأرصفة لأتحدث عن علاقة الرصيف بالسلطة، وفيما إذا كان الرصيف عاليا قويا يعني ثمة نظام قمعي يسلط على القدمين الرؤية البصرية، وبالتالي ثمة فكرة بوليسية وراء الأرصفة القامعة لحرية الجسد. وعندما افكر بجزئية الساحة ودورها وهي جزئية مدينية بامتياز، أتصور فعل الحركة الجماهيرية بمواجهة خطاب السلطة القامعة التي تتمترس وراء قلاعها وأسلحتها، فالساحة المكشوفة تؤلف خطابا جماهيريا عاما، وهو ما شهدناه في الربيع العربي بينما تؤلف قلاع السلطة خطابا قمعيا وهو ما صدر مؤخرا عن السلطات العراقية مثلا حين منعت تظاهرة الأول من أيار أن تكون في ساحة التحرير. الساحة تؤلف خطابا جماهيريا شعبيا ممتلئا بالجزئيات النابضة، بينما تؤلف القلاع خطابا أحاديا قامعا وخائفا من التغيير. وقل ذلك بشأن الجزئيات الأخرى للشيء الواحد، لا يمكننا فهم اية ظاهرة نقديا إلا بعد تفتيتها ومن ثم إعادة بنائها ذاتيا، وهو مبدأ ضمن منهجية الصيانية والتدميرية.

● ***أصدرت مجموعة من الكتب في المكان وعن المكان، هل غطت هذه الاصدارات مشروعك عن المكان؟***

– لا يمكن أن تغطي أية اسهامات موضوعا مثل المكان، فالمكان ليس فكرة يمكن توصيفها نقديا، إنما هو إطار معرفي يتسع بالأسئلة، والنقد اسئلة معرفية باحثة عن جدلية مختفية في الشيء. من هنا يعد ما اصدرته من كتب ممهدات وها انت ترى ثمة عشرات الدراسات الجديدة والمترجمة عن المكان، وكلها تفتح أفقا معرفيا. البعض يتحاشى الاقتراب من المكان حتى لا يقال له أنه متأخر ويذهب لتكرار نفسه في عدد من المقالات لا تغني النقد ولا تجدده. وهكذا ثمة نقاد منفتحون على التجديد وهم نقاد تدميريون، وثمة نقاد ساكنون على ما بين أيديهم وهم نقاد صيانيون، النقد الجديد يحمل هاتين الشعيرتين، وسيكون الصراع حاسما في السنوات القادمة لصالح النقد التدميري للأطر النقدية الساكنة، ومن الآن بدأنا نتحسس جمود وعقم النظريات النقدية الساكنة.

● ***ما الجديد في مشروع المكان الذي لما يزل فكرة أو مشروعا يكمل كتبك؟***

– المكان عالم معرفي كبير، فيه تتجذر الميثولوجيا، والانثروبولوجيا، وفيه تتجذر الحياة اليومية، وفيه مجالات قول وفعل لا يمكن حصرها. أنا لم اكتشف المكان، فالمكان موجود منذ الأزل، يحيط بنا ويلف ما حولنا، كل ما فعلته هو أنني تنبهت إلى قواه المعرفية والجمالية، فيما لو أحسن الكاتب التعامل معه لأنتج تصورا مختلفا عن العالم وعما يصلنا عبر كتب دينية وسياسية. المكان هو الجغرافيا، والجغرافيا علم وخرائط، وعليها قامت الكولونيالية القديمة والجديدة. والمكان معرفة فلسفية وعليه قامت النظريات منذ أرسطو وحتى اليوم، والمكان دول وقارات ومجاهل ومفازات، وقد احسنت المخيلة الشعبية حين طوته باللغة وجعلته مجرد مقولات، والمكان لغة في اللغات، لا توجد مفردة في القاموس العربي لا يوجد لها مصدر مكاني.

● ***لديك مشروع ثنائي هو الصيانية والتدميرية، نرجو بداية ان تعرّف هذين المفهومين للقراء.***

– الصيانية والتدميرية فكرة فلسفية مترابطة المفردتين، لا توجد صيانية دون أن تكون فيها قوى تدميرية، ولا توجد تدميرية دون ان تكون فيها قوى صيانية، لذلك فهما مفهومان جدليان يولدان صراعا داخليا ينتقلان به من مرحلة إلى اخرى، وقد جددا نفسيهما واستوعبا معطيات وأشكالاً وأفكاراً جديدة.الصيانية والتدميرية ينتميان إلى جنس واحد وليس إلى فئتين من الاجناس بحيث يكونا في الطبيعة متعارضين، ففي الطبقة العاملة قوى صيانية جامدة وقوى تدميرية متحركة، وفي الطبقة الرأسمالية قوى صيانية متحجرة وأصولية وفيها قوى تدميرية ثورية متحركة وفاعلة ومجددة لمشروعها، وتكون الغلبة لأي من القوتين نتيجة للظروف الموضوعية والذاتية. فالتدميرية في الطبقة العاملة ثورية والصيانية في الطبقة العاملة اقل ثورية، الصراع بينهما ينتج تدميرية جديدة منتقلة إلى ميادين تشكُّل جديدة وقوى صيانية جديدة منتقلة ايضا إلى ميدان صراع جديد، هذا الصراع ليس عقيما بل هو متحرك فاعل يخضع لمتطلبات المرحلة ويستوعب الجديد

الفكري والممارسة المنفتحة، ومن هنا لن تكون لغة الصراع داخل الطبقة العاملة في مرحلة ما هي نفسها في مرحلة قادمة. كذلك الصراع بين القوى الرأسمالية التي تحتوي قوى صيانية وقوى تدميرية، فالرأسمالية تجدد نفسها ولكن في الوقت نفسه تصون قواها التدميرية، التي تلتقي في مراحل ما من الصراع مع القوى التدميرية أو الصيانية في الطبقة العاملة. فالصراع اولا يكون في الصيانية والتدميرية موضعيا ثم في مرحلة ثانية يكون بين القوى التدميرية والصيانية في اشكال وطبقات ومواقع مختلفة، وهو الصراع الديالكتيكي، وهكذا لن يقف الصراع مادامت الحياة قائمة ولن يتوقف التجديد ما دامت هناك حاجة للثورة. مشروع الصيانية والتدميرية ليس هو الثابت والمتحول، ولا هو القديم والجديد، بل هو الجدل الموضعي للظاهرة الواحدة، أولا، وللظواهر في علاقاتها الجدلية ثانيا. الصراع يكون داخليا أول الأمر بين ثابت صياني ومتحرك تدميري في الظاهرة الواحدة، وبين قديم صياني وجديد تدميري في الظاهرة الواحدة، ومتحول صياني ومتحول تدميري في الظاهرة الواحدة، وجديد صياني وجديد تدميري في الظاهرة الواحدة، وهكذا، إن حركة التاريخ ليست مستقيمة إنما هي حركة لولبية تحفر في عمق الظاهرة وليس على سطحها، أولا، ثم في عمق العلاقات الاجتماعية والمادية التي تكونها مجموعة الظواهر ضمن مرحلة او مراحل متداخلة.هذا المشروع ما يزال في طور الاعداد والدراسة.

● ***هل هناك مشروع تطبيقي للصيانية والتدميرية؟ خارج الأدب؟ وهل هما جزء من فكرة فلسفية تسعى لتأكيدها كما سعيت في المكان والمكانية؟.***

– بالطبع ثمة مشروع تطبيقي أدرس فيه قصة حي بن يقظان، ففي هذه القصة ثمة رؤية كونية لميادين الصراع الموضعي للصيانية والتدميرية، لن افصح عن تكوينات هذه الدراسة لأنها جزء من المشروع لم يكتمل بعد.

● ***في كتابك المساحة المختفية طرحت منهجا جديدا لقراءة الحكاية الشعبية تحديدا؟ إلى أين وصل ذلك المشروع الذي نعتقد أنه ما يزال بحاجة إلى صقل بعض مفرداته كمفهوم أن الحكاية لا تبدأ إلا بعد موت الحدث أو اندثاره عما قريب، أو أن الحدث على وشك التغيير؟.***

– هذا المشروع مهم جدا وقد قرأت أخيراً ان باحثة مغربية أو جزائرية هي عتقية الاطرش قد تناولت دراستي عن الحكاية الشعبية والمنهجية المقترحة لقراءتها، وكنت سعيدا بذلك ان ينتبه النقاد المغاربة لإنجازاتنا. وحقيقة انا مدين لهم لأنهم يحاورون ما يقوله الآخرون في ميدان البحث الجديد وأعزو سبب انتشار النقد المكاني إليهم عندما نبهوا الاخرين إلى دراساتي المتواضعة عن المكان.

نحو منهجية جديدة لقراءة الحكاية الشعبية العربية، هو اجتراح رؤية قائمة من داخل بنية الحكاية الشعبية العربية، كتبته قبل ثلاثين سنة أيضا ومفادها، أن الحكاية لا تنشأ إلا عندما تكون الحادثة على وشك الاندثار أو الموت، اسميت هذه النقطة"نصف موت – نصف حياة" اي ان الحكاية عندما تصل إلى مرحلة يتغلب الموت فيها على الحياة يعني ذلك أنها في مرحلة الانهيار،

وعندئذ تنهض القوى الصيانية في الحكاية وفي اية رواية او قصة لترميم ما اختل في بنيتها عبر الصراع مع القوى التدميرية التي تريد تغيير مسار الحكاية او تجديدها. اسميت هذه المنطقة من ميتاصراع بين القوى الصيانية التي تريد اعادة الحكاية إلى مسارها القديم ولا تؤمن بالتغيير، بينما القوى التدميرية الثورية تريد المحافظة على الحكاية ولكن بنقلها إلى منطقة جديدة اسميتها بـ "استمرار الحكاية". وفي مرحلة لاحقة يكون الصراع بين القوى الصيانية والتدميرية قويا فتنتصر إحداهما. أما القوى الصيانية بعد أن تجدد نفسها او القوى التدميرية لتصبح الحكاية القديمة حكاية جديدة، أسميت هذه المرحلة من تطور الحكاية بـ "نصف حياة – نصف موت"، ويعني ان قوى الحياة التدميرية قد تغلبت على قوى الموت الصيانية. وعندما يستمر السرد بعد هذه النقطة من التحول وغالبا ما تشكل النهاية، تكون الحكاية قد عادت من جديد ولكن بأثواب صراع جديدة وبطريقة وجود مختلفة عن السابق، اسميت هذه المرحلة بـ "استمرار الحكاية". ولو قرأت كل حكايات الف ليلة وليلة تجدها تقع ضمن الصراع بين قواها التدميرية وقواها الصيانية من اجل ان تكون الحكاية القديمة بأثواب جديدة من دون ان تفقد منطق الحكي. هذا المشروع لقراءة الحكاية ابتدأ في مرحلة التفكير في منهجية الصيانية والتدميرية، أي في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي وهي افضل مرحلة نضج لتفكيري، حيث ان كل الافكار التي اشتغل عليها الآن، أي بعد ثلاثين سنة وأكثر، هي بنت تلك الأيام.

● كنت قد قرأت لك بحثا ألقيته في قطر عن الحروفية وقلت فيه أن الحروفية في اللوحة التشكيلية هي حداثة ولكنها حداثة مقيدة، ما معنى الحداثة المقيدة؟

– الحداثة المقيدة من الافكار المحورية في منهجيتي النقدية المنفتحة على الانواع والأشكال الفنية والأدبية. المعروف ان اللوحة الحروفية بدأت في فرنسا على يد (بول كلي) وثمة لوحات لبيكاسو وغيره استثمرت ثروة الحروف التشكيلية. وأول فنان عراقي تعامل مع الحروف هي الفنانة مديحة عمر، وقد اسست للوحة الحروفية منهجية منفتحة على الفن الأوروبي وعلى التراث العربي اللغوي، وكانت الآيات القرآنية والكلمات الدينية ميدانا تطبيقيا لذلك. وقد استخدم جواد سليم الحرف ولكن بصيغة فنية جمالية وليست غاية تشكيلية، ثم توسع المدى فوجدنا عشرات الفنانين يحتذون بمديحة عمر وابنها جميل حمودي ومن بينهم نجا المهداوي في المغرب وشاكر حسن آل سعيد وضياء العزاوي ورافع الناصري والصكار وغيرهم كثيرين، إلى الحد الذي اصبحت اللوحة الحروفية لوحة فنية بجمالية تقنية جديدة، ولوحة فنية تزيينية استخدمت في واجهات المدن والمطارات والفنادق.

المشكلة ان هذه اللوحة التي استثمرت الحروف العربية لم تخرج عن اطار مفهوم الحرف الديني الذي تقدسه الشعائر، فبقيت تخشى التعامل الجمالي مع التغييرات الشكلية للحروف، لأن ثمة قوى دينية ترفض ان تكون الحروف العربية، وهي في عرفها مقدسة، مشوهة او منحرفة عن طبيعتها الجمالية والنفعية الدينية، اي تحويلها إلى تصوير، من هنا بدأت الخشية تلازم اللوحة

الحروفية. فالفنان يحدّث لوحته ويجعلها بقيمة جمالية عالية لكنه يخشى ان تفسر دينيا على انها ضد المقدس، فبدت ثمة قيود خارجية تضغط على فنان اللوحة الحروفية، ومن هنا اسميتها "الحداثة المقيدة"، في حين ان اللوحة الحروفية الاوروبية لم تواجه بمثل ما تواجه به الحروفية الاسلامية، التي اعتقد انها مرافقة للموقف الفكري الاصولي المتشدد..

● كتابك الاستهلال طبع مرات عديدة، وهو اليوم من الكتب التي يقصدها الدارسون، هل ثمة تطوير لمفاهيمه، لاسيما وانه صدر وأنت خارج العراق مهاجراً؟

– ستصدر الطبعة الرابعة قريبا، لكتاب اراد الدكتور محسن الموسوي والدكتور جميل نصيف – ادامهما اللّه احياء يذكرون بالطيبة – أن لا يظهر الاستهلال، وكنت قد انجزته عام 1990 وقدمته لدار الشؤون الثقافية، ولولا ان يأتي الاستاذ الناقد طراد الكبيسي مديرا للدار، ويعطى الكتاب لخبير منصف وشاعر هو ياسين طه حافظ لما رأى الاستهلال النور بعد ثلاث سنوات من تقديمه، اي ظهر عام 1993 وأنا في الاردن. (الاستهلال) اليوم من الكتب المطلوبة في الدراسات الاكاديمية والنقدية الحديثة، وهو اول كتاب في النقد العربي يعالج مجموعة الفنون والآداب القديمة والحديثة، ومحوره قائم على الكيفية التي تصاغ بها الجملة الأولى من اي نص إبداعي. وقد درست استهلالات الحكاية والملحمة والشعر القديم والشعر الحديث والرواية والقصة والمسرحية بأنواعها والخطابة والنص القرآني، بمعنى أن دراستي اسلوبية كانت مبتدأ لدراسات لاحقة عن المسرح والسينما، وقد اخذ عدد من الدارسين منهجية الاستهلال في اطروحاتهم. الجديد اني عدت للكتاب ثانية وبدأت بكتابة فصل جديد سأضمنه الطبعة الخامسة.

مهمة هذا الكتاب أكبر من تفهم الجملة الاستهلالية للنص، وهي انني لم أقلد فيه احدا ولم احتذ ما سبقني ولذلك يحمل اخطاءه وصوابه، هو جزء من تجربة المغامرة والمشروع النقدي.

● تقول أنك تعمل منذ ثلاثين سنة على تطوير منهجك الجديد "الصيانية والتدميرية" وأن هذا المنهج أساسه الفكر الإسلامي. والسؤال: هل هذا المنهج هو منهج الشهيد حسين مروة في كتابه "النزعات الإسلامية.."؟ أو كتاب الطيب تيزيني "من التراث إلى الثورة"؟ أو منهج الأصالة والمعاصرة لأنور عبد الملك وعبد الله العروي، وفؤاد زكريا، أو منهج ادونيس في الثابت والمتحول، ارجو توضيح ابعاد هذا المنهج؟

– لا ليس منهجي في الصيانية والتدميرية مشابهاً لأي من هذه البحوث المهمة والكبيرة، أنا متواضع جدا بمعلوماتي وخبرتي النقدية، أنت تتحدث عن اساتذة اجلاء ومفكرين كبار وأنا لست كذلك، محاولتي هي دراسة جدل الظاهرة المفردة وعلاقتها بعد ذلك بما يتعلق بها. رأيت مثلا ان الماركسية تركز على الكليات، في حين ان رؤيتي تركز على الجزئيات، بمعنى أن اية ظاهرة يمكن ان تدرسها وحدها، ويمكن بعد دراستها وحدها ان تدرسها ضمن علاقاتها، وتستمر دراستها ضمن علاقاتها تبعا لتطور تاريخها الذاتي وتاريخ علاقتها مع الآخر. بمعنى

أدق، ليست الطبقة الواحدة شريحة متجانسة، ولا الحداثة صيغة واحدة، الجزئيات التي تكوّن الطبقة او فكرة الحداثة هي المعنية بالدراسة اولا، وبمجموع الرؤية لأجزائها يمكن تكوين رؤية شاملة ذات خصوصية لها، ثم أعمل على الكيفيات التي تتجسد بها علاقتها مع الآخر. هذه المنطقية لا تتعامل مع ثنائية الثابت والمتحول او القديم والجديد، وأية ثنائية أخرى الثنائية التي اتعامل معها، هي ثنائية ذاتية تكمن في الشيء الواحد نفسه، فاللّه مثلا ليس واحدا، إنما هو مجموعة من الآلهة صيّرت في الواحد الأحد، اي ان الإله واحد، ومن التوحيد تنشأ ثنائية وربما ثلاثية او تعددية، لكنها كلها منصهرة في الواحد. جدل الواحد اغنى وأصعب من الجدل الثنائي او الثلاثي، لأن التطور يبدأ داخليا، التغيير يبدأ من الذات، والذات مفرد.

● ***مشروعك في الاجابة عن اسئلة الناقد زهير الجبوري صدر في كتاب مهم، هل أعتبر هذه الاسئلة جزءاً من مشروع الحوارات والاستجوابات التي يلجأ إليها البعض معك؟***

– شخصيا اجد في الحوار شكلا ابداعيا جديا ومهما في الكشف عن طريق اسلوبية خاصة بفن الحوار عن الكثير من الافكار التي لا يمكن ان تقال سرداً او مسرحاً او تشكيلاً او فوتوغرافاً او نقداً. للحوار امكانية ان تكون داخله وخارجه، فهو منهجية ديمقراطية استنبطها الفلاسفة اليونانيون وأقاموا عليها افكارهم. في حوار زهير الجبوري ثمة عفوية وبساطة، وجدت أول الأمر ان اسئلته جديدة يمكن الاجابة عنها، لكني وبعد مرور سنة تقريبا وجدت انه قد تحايل على فنية المحاور ليدخل معي في فنية السؤال المنفتح، فكانت اجاباتي مستمرة انتجت فيها وعنها كتابا. اليوم لا أبدأ اي حوار ما لم يكن بمستوى تلك المساهمة البكر في الثقافة العربية، واعتقد انها جديرة بان تكون وتؤسس لنوع من الكتابة المغايرة عن اللقاءات الصحفية.

● ***نذهب الآن إلى الثقافة العراقية، فالملاحظ فيها أن الأجيال الحديثة قد تحررت من تأثير الستينيات.. ترى كيف تقرأهم الآن؟ هل تتم قراءتك في ضوء منهجية معينة؟ أم انك لا تقرأهم لمشاغلك الكثيرة؟***

– القراءة هي محور سؤالك، وليس ما تقرأ ولمن تقرأ، والقراءة ليست اية قراءة، بل هي قراءة ناقد تعتقد ان قراءته للنتاج الأدبي هي كشف عنه وعن قيمه وأفكاره. كل هذا صحيح، ولكني انا الناقد لي وجهات نظر في مبدأ القراءة نفسها، والكيفية التي اتعامل بها مع نفسي أولا ومع الآخر الكاتب ثانيا.

القراءة بالنسبة للناقد لها مراحل خاصة بالناقد نفسه، وللتبسيط أشبه الناقد بتلميذ مدرسة اسمها النقد، في المرحلة الابتدائية يقرأ كل شيء حتى يتعلم فن القراءة، في المرحلة المتوسطة يجد ان قراءته تستمر ولكنها تتعمق بمصادر معرفية أخرى، في المرحلة الثانوية تكون قراءة الناقد محددة بنوع أدبي بحثا عن الاختصاص او التميز مع البقاء على قراءات أخرى، هنا في هذه المرحلة يحدد لمن يقرأ وأي اتجاه يقرأ فيه، بمعنى ثمة خصوصية لخطوط عامة شخصية توضح كيف يقرأ، وفيها ايضا تبدأ الكتابة النقدية المتميزة والخاصة به. في الجامعة يكون أكثر تخصصا وأوضح تفردا، هنا يبدأ

الناقد في تقصي منهجية ما يكتبه ويسندها بما يراه تعميقا لتوجهه. في هذا المرحلة يبدأ بتكوين مشروعه النقدي أو ملامح معينة لمشروعه. في المرحلة التي تلي الجامعة وهي مرحلة التخصص لا يقرأ اي شيء خارج منهجيته أو رؤيته النقدية، إنما يقرأ ما يعمق منهجيته النقدية واختصاصه، سنجده يبتعد عن قراءة الأدب المحلي وأشكاله ويذهب لقراءة الفلسفة والعلوم والنظريات المهمة والاقتصاد والفكر التنويري والاجتماعي، وربما يعود بين فترة وأخرى لقراءة ما سبق وان قرأه من روايات وقصائد ومسرحيات وكتب. في هذه المرحلة يعيد قراءة الكتب الأساس التي تتحدث عن تكوين المعرفة عبر عناصرها الكونية المكونة، فالناقد إن خلت قراءاته من الكونيات والانثروبولوجيا والمثيولوجيا وعناصر المستقبل وتفهم جدلية الحاضر لم يصبح ناقدا او كاتبا صاحب مشروع. شخصيا استهجن الناقد وقد تجاوز عمرا نقديا عندما يعود للكتابة عن نص روائي او قصصي ويبقى ضمن حدوده، في حين يمكن ان تقرأ نصا روائيا او شعريا ولكن ضمن وضعه في منظومة كونية أشمل من مادته وما يقوله، اي تضعه ضمن مشروعك النقدي. الناقد تلميذ معرفة مستمرة، ولذلك على النقاد الشباب ان يهتموا بقراءة النصوص الادبية، أما النقاد الذين تجاوزوا مراحل الدراسة عليهم أن يقرأوا الكونيات وجزئياتها كي يكونوا على دراية فلسفية بما تؤول إليه حكاية الابداع في جذرها لا في تمظهراتها الواقعية والشكلية.

● ***بعض الكتاب يشكون من عدم تناول نتاجهم الابداعي ويوعزون ذلك إلى انحسار النقد المنهجي في العراق، باعتبارك ناقدا كيف ترى ذلك؟***

– شيء من سؤالك اجبت عنه. الشيء الذي لم اجب عنه لا يتعلق بي، بل بالكاتب نفسه، لماذا يريدني الكاتب ان اقرأ نصه، فأنا لست موظفا عنده، ولست موكلا بتتبع خطوات سيادته. لماذا لا يفصح عن مشروعه؟ الكاتب الذي بلا مشروع لا يستحق القراءة، الكاتب بمشروع ستجد النقد يتتبعه لأنه يضيف لمشروع الناقد رؤية جديدة متفقة او مغايرة. لماذا يكون الكاتب بلا مشروع؟ وعندما لا يكون له مشروعه لا يمكن للناقد ان يقبله. في عموم كتابات ادبائنا لم نجد إلا القلة منهم اصحاب مشاريع ابداعية وهؤلاء القلة هم مشروع الناقد.

● ***ماذا حققت من انجازات نقدية تعتبرها جديدة في النقد العربي؟***

– لا استطيع الحديث عن نفسي وعما قدمت، ولكني اشير إلى ما يتحدث به الآخرون عما قدمت، وها أنت ترى ان الكتابة النقدية بعد المكانية اصبحت بمنحى جديد، وقد تجاوزت تلك المقالة النقدية الكلاسيكية التي يصر بعض النقاد على كتابتها. لقد اصبحت المقالة النقدية متطورة من الحديث عن كتاب او كاتب إلى الحديث عن ظاهرة او فكرة مشتركة، هذا التطور الملموس في الكتابة النقدية العربية جاء نتيجة التأثر بالتيارات النقدية الحديثة التي فسحت المجال للثقافة وللفلسفة ان تدخل بيت المقال النقدي. بالنسبة لي اعتبر "المكانية" و"الاستهلال" و"نحو منهج جديد لدراسة الحكاية الشعبية" و"الصيانية والتدميرية" أفكارا وممارسات نقدية جديدة، ستجد تأثيرها في النقد وفي الكتابة الابداعية

لاحقا، وستكون احدى كشوفات النقدية العربية، وبالطبع لست أنا وحدي من يقوم بهذا كله، إنما هناك نقاد وكتاب بدأت ملامح النقدية المكانية تتشكل عندهم، وأول مجموعة من هؤلاء موجودة في العراق، ستعلن عن نفسها عندما تستكمل شروط بيانها النقدي. لذلك اقول أن الناقد بلا منهج ليس ناقدا حتى لو كتب عن أليوت وشكسبير، الناقد الحقيقي هو من يثير الأسئلة الثقافية، لا من يجيب عنها، إنه جزء من سؤال الفلسفة الذي يغيب عن نقدنا.

كتبي التي تعالج النقدية الحديثة بإمكاناتها المعروفة طبعت عدة طبعات، مما يعني أن ثمة من يهتم بالنقدية الحديثة ودورها في تنمية القراءة الجديدة للنصوص. المقالات الكلاسيكية والأكاديمية لا تثير أسئلة، ولا تفتح مجالا للحوار، إنها تكتفي بذاتها كما لو كانت نصا مغلقا، في حين ان المقال النقدي الثقافي يتيح للقارئ أن يختلف معك وان يضيف لك لأن المقال النقدي الثقافي يتحول إلى نص ابداعي.

● ***كيف تفسر انحسار الابداع العربي في المجال الفلسفي والفكري وغياب الأصالة فيما يكتبه المثقفون العرب؟***

– هناك عوامل عديدة تكبح جماح النقد العربي من أن يتطور، أولها هيمنة الروح الاكاديمية على المقال والدراسة النقدية، وهذه الهيمنة جزء من فكرة الصيانية الثقافية الاكاديمية التي تحدد المساحة النقدية وتقننها.

وثانيا ثمة خوف من المغامرة النقدية، وعلى العكس ليس من خوف في المغامرة الشعرية والقصصية، لأن النقد ابن البنية المحافظة، وابن الحرية المقيدة، وابن الممارسة الأرستقراطية الثابتة. يمتلك النقد بنية للحرية أكثر من بقية الأنواع لكنه في مجتمعاتنا شبه محرم دينيا وعرفيا ويتصل بمفهوم المغايرة الذي تحرص بنية المجتمعات العربية على عدم السماح به. الناقد مغاير ومفكك للبنى الساكنة والصيانية وهو متمرد وقد يكون كافرا بعرف البعض وقد يكون زنديقا وثوريا، ومن هنا فالناقد جزء من البنية التدميرية للمجتمعات وللثقافة الساكنة والمتحجرة ولن تجد ناقدا حقيقيا غير ثوري او ماركسي او تقدمي. لذلك قمع النقد دون فتوى وأصبح عدد النقاد لا يتجاوز اصابع اليد في حين ان الشعراء والقصاصين بالآلاف، لان الشعر ذاتي ومحدد قوله بما يحسه الشاعر وبما ينفعل به، وحينما يصبح الشاعر ثوريا تراه يعتمد المنهج النقدي في اشعاره عندئذ يكون الشاعر ناقداً، وناقداً تدميريا عبر الشعر.

وثالث العوامل، أن الفلسفة في مجتمعاتنا لم تتطور مع أننا بدأنا بها منذ ايام الكندي والتأثر العميق بالفلسفة اليونانية، اليوم لا فلسفة فالقديم هو السائد في التفكير، والسلطة تخشى الفلسفة لأنها ستفضح زيف مناهجها الفكرية وعجزها عن مسايرة تطور العالم، ما يحدث في العراق من هيمنة القوى المستبدة لا يتيح لأي منهج فلسفي ان يكون حاضرا، ولذلك سيكون من المبرر أن يضعف النقد وان يقل ممارسوه.

● ***سادت في المرحلة الاخيرة مفهومات مثل نهاية الفلسفة، نهاية التاريخ، نهاية الايديولوجيا، نهاية أو موت المؤلف...الخ، هل نحن نعيش حقا عصر النهايات؟***

– مثل هذه المفاهيم عاجزة تماما عن صياغة جديدة للوعي، فنهاية تاريخ ما تعني

بداية لتاريخ جديد، ونهاية الفلسفة تعني بداية لفلسفة جديدة، ونهاية الايديولوجيا تعني بداية لايديولوجيا جديدة، وموت المؤلف يعني ظهور مؤلف آخر، ربما الترجمة تخون المعنى الذي قصدته النهايات. ارى من الضروري تفهم مسألتين قبل الإيمان أو الأخذ بمثل هذه النهايات.

المسألة الأولى ان من ادعى النهايات وهم مختلفون، ينطلقون من الثقافة الأوربية، ومن ثقافة مجتمعات متطورة، ومن فلسفات لها حضور يومي في الشارع والفنون والثقافة، هم لا يريدون نهايات للأبد، إنما نهايات لأفكار سادت فترة الحرب الباردة.

المسألة الثانية، لا يوجد مثيل واقعي مادي وفكري وسياسي في مناطقنا الشرقية للنضوج الفكري وللمراحل التي مرت بها الرأسمالية بكل صورها كي نتبنى مثل هذه النهايات. استطيع القول أننا لم نبدأ إلا ببدايات مشوهة لمفهوم التاريخ عندما حصرناه بالحكم، وبمفهوم قاصر للأيديولوجيا عندما حصرناها بالمفهوم القومي وأحزابه الفاشية، وعندما حصرنا الفلسفة بمفهومها الديني ولم نفتحها كما فعل اجدادنا على الفكر اليوناني، لذلك ليس لدينا اي تصور منهجي وواقعي عن هذه النهايات.

في ثقافتنا العربية وفي مرحلة التحولات الحديثة التي اسميتها منذ عام 2003 بالمرحلة العراقية والتي ستعم، كما اشرت اكثر من مرة، العالم العربي كله، وهذا ما يحدث الآن. علينا ان نفكر بنهايات أخرى، وليس بالنهايات التي فكر بها الفلاسفة الغربيون.علينا أن نفكر بنهاية هيمنة الفكر الواحد، وعلينا أن نفكر بنهاية السلطة الدينية المتحكمة في الشارع السياسي، وعلينا ان نفكر في نهاية الاقتصاد الحر والفردي والخاص وأن تكون الدولة هي الراعية لكل الانشطة الاقتصادية، شريطة ان يكون ذلك عبر مؤسسات اجتماعية مدنية كما فعلت المانيا بعد هزيمتها وإعادة بنائها. أي تأسيس دولة الرعاية الاجتماعية عبر المؤسسات المدنية، وعلينا أيضا ان نفكر بنهاية الايديولوجيا الأحادية التي ما ان تفشل حتى تستدعي الدين، وكأنها موكولة من اللّه بإدارة العراق والمنطقة. هذه هي النهايات التي يجب ان نتحدث عنها. وعندما يتم لنا ذلك، كما تم لأوروبا منذ عصر النهضة في اواسط القرن السابع عشر ومن ثم في عصر التنوير في اواسط القرن التاسع عشر، عندئذ سننتقل للحديث عن نهايات مفترضة أو واقعية. ولكن الرأسمالية وفلسفاتها لا تدعنا حتى نفكر بأنفسنا عبر منتجنا الثقافي والفكري فهي تريد وعلانية أن تضعنا ضمن منهجية العولمة، أي الهيمنة على الخصوصيات الثقافية، وتعمل على تعميم ثقافتها الرأسمالية وايدولوجيتها الاقتصادية بأذرعها العسكرية والاتصالية، نحن فقراء ياوطني بالرغم مما نمتلكه من قدرات وكفاءات تكنوقراطية، ولكن الخلل ليس في الفئة الثقافية المتنورة، إنما في الأنظمة السياسية الاستبدادية ولو باثواب ديمقراطية الكثرة.

● ***كيف هو واقع الثقافة العراقية الآن؟***

– ما اسهل السؤال، وما اصعب الجواب. الثقافة العراقية بدون رعاية حقيقية من الدولة.. الثقافة العراقية التي تشهد تحولا في آلياتها، إما ان تكون دينية سلفية عادية تخفض من مستوى المثقف إلى مستوى

الإنسان العامي، وإما أن تنهض بمشروع تنويري حديث. الثقافة العراقية الآن تناضل نضالا حقيقيا من أجل حماية نفسها من السقوط في حاضنة السلطة التي تحتقر كل المثقفين ما عدا من ينتمي إليها.. الثقافة العراقية الآن ليس فيها جديد ومبتكر لأنها تعتمد على ثقافة الأموات، الثقافة الساكنة والمتحجرة، والمثقفون وحدهم من يحاول كسر هذه العادية الثابتة بالتمرد الصامت على ما يحيط بهم.. الثقافة العراقية الآن تعيش مرحلة متواصلة مع مرحلة صدام حسين، ولم نشهد تغييرا يوازي التغيير السياسي، وهو الغاء كل ابداع جديد ومتطور لا ينسجم والفكر القائد كما كان!! ولا ينسجم والفكر الديني السلفي كما هو الآن.. الثقافة العراقية الآن يقودها رسميا مثقفون من احزاب كان بعضها في السلطة السابقة بينما المثقفون الأكفاء والمشهود لهم يعتاشون على عملهم في الصحافة وعلى ما يكتبون. الثقافة العراقية الآن، يشرف عليها مثقفون غير اكفاء كان بعضهم مداحا لصدام حسين بقصائد ومقالات بالرغم من وجود شرفاء ومناضلين بينهم لم يفسح لهم المجال بتبوؤ المسؤولية. الثقافة العراقية الآن لا جديد فيها، تكرر نفسها تحفر قبرها بيدها لأن المسؤولين عنها غير مثقفين.

ومع ذلك وبالرغم من كل الاحباطات، فالمرحلة ستنتفض على نفسها وسيجد المسؤولون أنفسهم محاصرين من قبل أعوانهم لأنهم عطلوا مهمة النهوض بالثقافة، وديدن المثقفين التقدميين أنهم سيبقون مناضلين وحسب.

● ***لقد استقبل المفكرون العرب ظاهرة العولمة بالكثير من التخوف والحيرة والخشية واعتبرها البعض ظاهرة سلبية سوف تلغي الخصوصيات والهويات وتهمش الثقافات.. كيف تقرأ هذه الظاهرة وكيف تعرفها؟***

– ظاهرة العولمة جزء من ثقافة الرأسمالية في مرحلتها الإمبريالية الاقتصادية والمعلوماتية الحالية، ومن الصعب الوقوف بوجهها دون مشروع نهضوي حديث يعيد تركيب الثقافة الوطنية وفق معايير جديدة. نحن ثقافيا منسحبون من التجديد لأن فكرة التجديد ترتبط بنهوض دولة حديثة، فكيف بنا ونحن نعيش ثقافة دولة سلفية دينية قديمة. من هنا يسمح السياسيون الحاليون وبشجاعة منهم للثقافة الرأسمالية أن تحتل فكرنا، فهم لا يمتلكون مشروعا مضادا، وليست لهم القدرة على حماية مثقفي العراق من التأثر السلبي بثقافة العولمة، هؤلاء القائمون على مقدرات الثقافة العراقية يقصون الآخرين، ولايهمهم من أمر الثقافة التي يشكل خطابها المعرفي اليوم خطابا ابلغ من خطابهم السياسي، نقول حسبنا اللّه ونعم الوكيل، فنحن نعيش مرحلة التهميش وليس مرحلة النهوض.

● ***إلى أي حد يمكن الجمع بين الدين والفلسفة؟***

– ثمة مفاصل كثيرة تجمع بين الاثنين. الدين في الأصل فلسفة، والفلسفة في الاصل اثارة الأسئلة عن الوجود والعدم والإنسان والفكر. في مجتمعاتنا العربية ثمة تباعد بين الفلسفة الحقيقية والفلسفة التي يؤمن بها رجال الدين المتحكمون بنا، ومن ورائهم أحزابهم وقواهم المادية. ومن تتبع مرحلة ما بعد السقوط يرى كيف أن اميركا ارادت وبقوة الاحتلال ان تهيمن على

مقدرات شعب عريق تفلسف قبل ان يتفلسف اي شعب في العالم، ان يكون العراق تحت هيمنة الإسلام السياسي، وهذه الطريقة الامريكية محاولة لاستجلاب رضا التيارات الاسلامية بعد تفجيرات 11 سبتمبر عام 2001. لذلك لا يمكن الجمع بين الدين والفلسفة في ظل انظمة لا تعترف إلا بفلسفتها. الطريقة نفسها التي عاشتها وتعيشها افكار الحداثة، وهي أن الغرب يجد ثمة عونا له في تخلف الاسلام وهذا يعني عدم تقدم الشرق إلا بحدود يرسمونها له. ما يجمع الدين والفلسفة هو المنهج العلمي لتطوير المجتمع، والمنهج العلمي ضمن ظروفنا الحالية هو الجمع بين الروح والمادة، كما فعلت المانيا في عصر التنوير حين جمعت بين فكر هيجل وماركس، غوته وشوبنهاور، فاغنر ونيتشه، هذا الجمع هو الذي اسس بنية المانية قوية لم تفقد الدين ولم تفقد العلم والرؤية الثورية. ما يحدث في العراق هو استئثار القوى الدينية بالحكم وبمقدرات المجتمع ولذلك ستفشل فشلا ذريعا وستضيع منهجها ورؤيتها وهدفها لأنها تفكر تفكيرا شموليا وإن كان بأثواب الديمقراطية الشكلية الأمريكية. على القوى الدينية ان تفتح عينيها على القوى الاجتماعية التقدمية الاخرى وان تعيش فكرا ووجودا- حتى لو حكمت عشرات السنين بعيداً عن المصاهرة مع الفكر المادي. إن ميزة الفكر الثوري انه يمتلك جذوة لن تنطفئ وإن خفت أوارها والعراق يمتلك منذ القرامطة والمعتزلة تراثا ثوريا قابلا لأن يشكل منهجية تقدمية حديثة.

أدب
و
فن

من ذاكرة الزمن..
احداث وشخصيات عراقية

عبد الرزاق الصافي

استضاف المقهى الثقافي في لندن يوم 25-3 الاستاذ عبد الرزاق الصافي بمناسبة صدور كتابه (من ذاكرة الزمن.. أحداث وشخصيات)، للحديث عن كتابة المذكرات والسير الذاتية والاحداث والشخصيات التي عايشها.

وقبل ان يقدم كلمته، تلا الفنان علي فوزي كلمة يوم المسرح العالمي.

وجاء في كلمة الصافي:

ندوتنا لهذا اليوم التي تولى المقهى الثقافي مشكورا اقامتها، وان كانت لمناسبة صدور كتابي: (من ذاكرة الزمن.. احداث وشخصيات عراقية) رأيت من المناسب، بل من الضروري، ان اتحدث، بمقدار ما يتسع له الوقت عن موضوع كتابة المذكرات والذكريات والسير الذاتية عموما، وفي العراق خصوصا، ذلك ان كتابة المذكرات والسير الذاتية والذكريات هي حقل جديد في الادب العربي، اذ لم يكتب – في حدود علمي– أحد من الادباء والشعراء الكبار مذكرات او ذكريات او سيراً ذاتية، قبل القرن العشرين.(1)

ومن ألمع ما كتب في القرن المذكور كتاب الأيام لطه حسين، من بين الأدباء العرب. كما اشتهرت سيرة الشاعر العالمي الكبير بابلو نيرودا (اشهد اني عشت). وفي العراق ازدهرت الكتابة في هذه الحقول، بعد الحرب العالمية الثانية، وخصوصا بعد ثورة الرابع عشر من تموز 1958. وترد على البال في هذا الخصوص جردة غير متكاملة تضم العشرات من الساسة والأدباء والكتاب والمناضلين. فمن بين الساسة يرد على البال السادة:

– كامل الجادرجي (مذكرات كامل الجادرجي) التي عُني بنشرها ابنه الاستاذ نصير الجادرجي.

– محمد حديد الذي حرص على كتابة مذكراته هنا في لندن وانجزها بالاستعانة بالرفيق رضا الظاهر، وتوفي قبل نشرها من قبل ورثته.

– حسين جميل الذي نشر قبل وفاته جانبا من سيرته الذاتية ولربما تضم مكتبته مسودات اخرى.

– محمد مهدي كبه (في صميم الاحداث)

– توفيق السويدي

– احمد مختار بابان

– فؤاد عارف

– خليل كنه

– سيد محسن ابو طبيخ

ومن العاملين في الحركة الشيوعية العراقية نذكر:

– زكي خيري في (صدى السنين في ذاكرة شيوعي مخضرم) صدر الجزء الاول منها في حياته، والجزء الثاني اعدته زوجته سعاد خيري، التي تنشر سيرة حياتها هذه الأيام في موقع (الحوار المتمدن) على الانترنت.

– بهاء الدين نوري.

– صالح الحيدري.

– احمد باني خيلاني (ابو سرباز) في كتابة (مذكراتي) الذي صدر بالكردية والعربية.

– جاسم حلوائي في (الحقيقة كما عشتها).

– عادل حبه عن ذكرياته في ايران.

– رحيم عجينة في (الاختيار المتجدد) الذي اعدته للنشر زوجته الرفيقة بشرى برتو بعد وفاته.

– صالح مهدي دكله في (من الذاكرة).

– ثابت حبيب العاني في كراس (نضال ثابت) وهو مقابلة نشرتها جريدة المجرشة باشراف الفنان فيصل لعيبي. وتعكف الان ابنته شروق على اعداد مذكراته للنشر.

– سليم اسماعيل.

– باقر ابراهيم.

– عدنان عباس.

– عـزيـز الحـاج في (مع الاعـوام) وكتب اخرى.
– عبد الرزاق الصافي في (شهادة على زمن عاصف وجانب من سيرة ذاتية) صدر منها جزءان.
وفي طليعة الادباء والشعراء ممن كتبوا على شكل مذكرات او رواية عبر شخص بإسم آخر:
– الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري في (مذكراتي) في جزأين.
– الروائي ذو النون أيوب.
– نجيب المانع في (عمر الكته الحروف).
– علي الشوك في رواية (السراب الأحمر).
– د. عز الدين ملا مصطفى رسول الذي يعكف على كتابة مذكراته بالكردية. ولم يصدر منها شيء حتى الآن – في حدود علمي–.
– د. فائق بطي في (الوجدان) صدر منه جزءان.
– كما تولى تحرير مذكرات والده الصحفي الكبير فائق بطي في جزأين بعنوان: ذاكرة عراقية.
كما كتب عدد من العاملين في الحركة القومية مذكرات على شكل كتاب او مقابلة استدرجهم اليها رئيس تحرير الحياة اللندنية الاستاذ غسان شربل.
ومنهم:
– خالد علي الصالح في كتاب مذكرات.
– حازم جواد مقابلة في الحياة.
– صلاح عمر العلي كذلك.
– صبحي عبدالحميد مذكرات.
ومن العاملين في الحقل السياسي الآن الدكتور احمد الجلبي في مقابلة طويلة مع الحياة.
كما لا يفوتني ان اذكر الاستاذ محمد سعيد محمود، الذي نشر هنا في لندن قبل سنوات كتابه: (مذكراتي في الإدارة العامة وضوء على حياتي الإدارية الماضية).
واريد ان اخص بالذكر كتاب الفقيد جعفر الخليلي: هكذا عرفتهم، الذي صدر بثلاثة اجزاء حوت الحديث عن العديد من رجال السياسة والثقافة والأدب والفقه. فقد كان كتابا غنيا وممتعا..

ومن المعروف عالميا وعراقيا ان بعض الساسة يلجؤون الى كتاب متخصصين لكتابة مذكراتهم او سيرهم الذاتية. فقد عرف ان (ديغول) يأخذ على (ونستون) جرجل الاستعانة بأحد هؤلاء المختصين لكتابة مذكراته.

وكذا الحال في العراق فقد تولى الدكتور كمال مظهر احمد تحرير مذكرات احمد مختار بابان وفؤاد عارف. كما تولى الدكتور رشيد الخيون تحرير مذكرات الدكتور محمد مكية. وهو جهد يشكر عليه الدكتوران في خدمة التاريخ العراقي.

وعند كتابة المذكرات يتعرض الكاتب الى خطر الوقوع في الذاتية، فيقوم بتعظيم دوره، وبخس ادوار آخرين. وخطر الوقوع في النسيان عندما لا يرجع الى الوثائق في توثيق الأحداث، ويعتمد على ذاكرته التي يمكن ان تكون تعبانة أو حتى خوانة، ولذا يستدرك بعض الكتاب عند ذكر بعض الوقائع بالقول: (ان لم تخنّي الذاكرة).
ومن ذلك ما نشهده هذه الأيام من كثرة التعليقات والتصحيحات والتدقيقات التي أثارتها وتثيرها الرفيقة سعاد خيري عند

كتابة ونشر سيرتها الذاتية في (الحوار المتمدن) كما ورد سابقا.

وقد حرصت عند الكتابة عن الأحداث والشخصيات ان لا يقتصر الحديث عمن اشاركهم او يشاركونني في الرأي او النظر الى الحياة. بل ان يكون في موقفهم وحياتهم ما هو جدير بالذكر والإشادة.

من ذلك مثلا الكتابة عن الاستاذ منير القاضي، عميد كلية الحقوق الذي كان من أشد انصار نوري السعيد. اذ اتذكر في أحد الأيام في العام 1949، وكنت طالباً في الصف الاول في كلية الحقوق، أن غاب الاستاذ المحاضر، فجاءنا الى الصف ليقول اذهبوا الى المكتبة. وعندما ذهبنا اليها وجدنا الطاولات فيها مليئة بالموسوعة الجنائية التي اصدرتها مديرية التحقيقات الجنائية لتكون دعاية للنظام الملكي ضد الحزب الشيوعي العراقي، غير انها في الواقع صارت من أكثر الكتب دعاية للحزب، إذ حفظت الكثير من وثائقه وبياناته ومواقف رفاقه البطولية في التحقيق. ولم يمنعني هذا من الإشادة بإخلاص استاذي منير القاضي ونزاهته، وروحه المتسامحة. (وبخصوص الموسوعة الجنائية عن الحزب الشيوعي العراقي، قال جميل المدفعي، رئيس الوزراء العراقي مرات عدة ان الحزب الشيوعي العراقي لو صرف ملايين الدنانير لم يكن باستطاعته ان يحصل على الدعاية التي حصل عليها جراء نشر هذه الموسوعة).

ومن ذلك أيضا الكتابة عن خطيب المنبر الحسيني الشيخ محمد علي اليعقوبي لغنى شخصيته وظرافته. وبودي ترطيبا للجو ان أذكر لكم طريفة حدثنا بها عن أحد طلاب الحوزة غير المؤهل للدراسات الجادة، الذي كان يثير ضجيجا اثناء النقاشات الحادة بين طلبة الحوزة. فتآمر الأستاذ مع عدد من الطلبة ليسكتوا فجأة ليعرفوا ماذا يقول الشيخ نجم. فكان ان أثار الطلبة ضجيجا أكبر ذلك اليوم، ولما سكتوا فجأة وجدوا الشيخ نجم يردد (طبيخ ماش ودبس أحسن من كل شي). وعندها عرف الاستاذ ان الشيخ نجم يعاني الضيق معاشياً فأسعفه بكمية من الرز والماش.

وعند الحديث عن الجواهري الكبير تحدثت عن زلته بمدح فيصل الثاني عند تتويجه في العام 1953، وتسمية الزلة هي من عند الجواهري وليس مني.

ولا يراد واقعة أهملها الجواهري عند كتابة مذكراته وهي ان الحزب الشيوعي العراقي تمنى عليه ان لا يشارك في حفل التتويج بقصيدة. غير انه قال لرسول الحزب الرفيق الفقيد عبد علوان الطائي: **انتوا الشيوعيين خالّين دمكم على رحراحة ايدكم. بينما انا شاعر: سلّم لي عالرفاق!**

وبهذه المناسبة اريد ان اقول ان عظمة الجواهري هي ليست في مدحه فيصل الثاني او الملك حسين او الحسن الثاني او حافظ الأسد أو غيرهم بل في قصائده الرائعة عن أبي العلاء المعري وجمال الدين الافغاني وهاشم الوتري ومقصورته ويا أم عوف ويا دجلة الخير وافروديت وأنيتا وعشرات الروائع الأخرى.

وقد سعى الجواهري بقصد او بدون

قصد في تبرير مواقفه التي اثارت بعض الملاحظات عندما قال في قصيدته في تأبين عبدالناصر:

لا يعصمُ المجدُ الرجال وإنما كان العظيمُ المجدَ والأخطاءا اما محنة الملك غازي، وهي أول فصل في الكتاب فقد حرصت على توثيق انه توفي نتيجة اغتيال دبره نوري السعيد وعبدالاله.

وفي الحديث عن الشخصيات سعيت الى ابراز الجوانب الإيجابية لكل منهم، دون السلبيات ذلك ان البشر مثل القمر لكل منهم جانب مظلم، وتذكرت قول المسيح عليه السلام عندما اراد قومه رجم امرأة اتهمت بالزنا يوم قال: (من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر).

ومن هنا يبدو كم هو وحشي حد الرجم المؤدي الى الموت، أو ما يشاع عن قتل شباب الأيمو هذه الأيام في العراق لأنهم يمارسون حريتهم الشخصية في لبس ما يريدون. البطلة التي أصرت على لبس السروال رغم تهديدها بالضرب بالسياط من قبل جلاوزة حكام السودان الحاليين الذين اضطروا للتخلي عن تنفيذ العقوبة الوحشية ضدها تحت ضغط الرأي العام السوداني والعربي والعالمي.

أما عن الذاتية والتحيز فيخطر بالبال موقف الدكتور محمد مهدي البصير في محاضرته التي تحدثت عنها في الكتاب، وهي عن الشعر العراقي الحديث، اذ تحدث عن الرصافي والزهاوي والشبيبيان محمد رضا وباقر وأهمل الحديث عن الجواهري، الذي كان يوم ذاك، اوائل الخمسينات ألمع شعراء العراق بل العرب كلهم، الأمر الذي استدعى تعليق الشاعر حسين مردان الساخر: **هذا اذا ما وصل الجواهري لعد شوكت راح يوصلنا**.

وبعدها جرى استعراض سريع لفصول الكتاب الثلاثين للتعريف بها: احداثا وشخصيات

1- ورد في مداخلة قدمها الدكتور صباح الدين ان ابن سينا كتب شيئاً عن سيرته الذاتية.

دراسة:

الرواية ومتخيّل السرد
"الحلم العظيم" للروائي أحمد خلف نموذجا

تكلمي أيتها الذاكرة
فلاديمير نابوكوف

شوقي بدر يوسف
الاسكندرية. مصر

السرد والمتخيل

تكمن في أزماننا حياة متواترة السنين والأيام، تعجز اللغة احيانا عن احتوائها، وترتيب وقائعها، حيث التركيبة الذهنية الإنسانية تكون في بعض الأحيان أشبه بغربال، تتساقط منه بعض وقائع الحياة، وتركن إلى ظل الذات حيث متخيل الذاكرة كثيرا ما يكون فيها هشا، تتوارى داخله أمور وأحوال تسكن كثيرا في العقل الباطن، وتصبح أمورا مهمشة، ومضمرة، وغائمة المعنى والمبنى في آن واحد. إلا أن المعنى السيري أو البعد الكامن في زوايا ذاكرة الإنسان الكاتب على وجه الخصوص كثيرا ما يستيقظ ويتطلع إلى الخروج إلى الفضاء الخارجي ليصبح أشبه ما يكون برؤية أو حكاية أو سرد له خصوصيته في حاجة ملحة لإعادة استدعاء الماضي مرة أخرى لتحقيق جوانب وأبعاد من حلم عظيم سبق له المراودة سلفا. وقد اعتبرت الكتابة في هذا الجانب من الإبداع مغامرة غير مأمونة العواقب، لما تحمله الذات الكاتبة من مشقة تتطلب إرادة صلبة وجرأة في التعويل على أمور الحياة الكاشفة عن أبرز المحطات وأحدها وأعقدها في سيرة المرء الحياتية. لذا كان لا بد أن يلعب المتخيل دوره المهم في التداخل مع العملية السردية في دفع عجلة الذاكرة لكى تستلهم وتستدعي الماضي ولو بشيء من اعمال هذا المتخيل في تجلياته التي كانت، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال فن الرواية، لأنه هو فن الحياة القادر على تجسيدها، وتعميق بنيتها، وتحديد مسارها، وإزكاء النزعة التخييلية في جوانبها المختلفة، ومن ثم فإن الرواية السيّرية أو روينة السيرة، إن صح هذا التعبير، هي إحدى تجليات الكتابة السردية في مظانها الآنية. وقد لجأ كثير من الكتاب إلى هذا الجانب النصي ليحيل الذاكرة إلى منتج للحياة المستعادة خلال عمرها وأمدها الطويل في

محاولة لفك رموز الماضي، وإعادة النظر في أحداثه، واستعادة الذاكرة مرة أخرى بما تحوي من وقائع وأحوال تتماهى في نسيجها الذاتي مع جوانب التخييل المختلفة، ومن ثم فهي تستعاد أحيانا للنظر فيها بعين الحاضر، والحكم على ما حدث فيها في الزمن الذي كانت فيه، وهي تكتب أحيانا روائيا إما بضمير المتكلم وأحيانا بضمير الغائب، أو بلسان الراوي الملتبس الذي قد يكون هو المؤلف نفسه، ربما هو نوع من الاستمتاع بإيقاف الزمن، والعودة إلى الوراء للتغلب على حالة من الشجن والخوف من الموت، كل ذلك يأتي من خلال آلية سردية لها خلفية المتخيل الآني الممزوج بالواقع الذي كان، والذي ربما استدعته أمور على أرض الواقع ونبشت قبوره القديمة. وفي روايته الأخيرة "الحلم العظيم" يلجأ الروائي أحمد خلف إلى هذا المتخيّل السردي الممزوج والمضفّر بوقائع حياتية مستعادة وفارقة في موقعها السيري ليعمل من خلالها على التاريخ الاجتماعي والإيديولوجي للذات، على خلفية آلية سردية حاكمة، الغرض منها طرح وقائع مستمدة من أفق الحياة وتجلياتها التي كانت، في محاولة لترتيب ملامحها وتحديد معالمها وصهر أحداثها، لتكوّن مجموعة وسلسلة من العلاقات المتداخلة والمتشابكة ربما يكون المتخيّل داخلها هو صاحب اليد الطولى في التعبير والتأويل لطرح ما كانته الأنا، وما كان يجب أن تكونه، وما سبق أن فعلته، وما تتخيله وتسرده عن ذلك الآن.

وبحسب أرسطو فإن المتخيل الأدبي في الحالة السيرية يتجسد خلال العملية السردية، ويستمد معناه من تناسق الأحداث المسرودة وترابطها على ما بينها دائما من اختلافات. وهو ما نجح فيه الروائي القاص أحمد خلف، في أن يضع في روايته أبعادا واقعية ومتخيلة تجسد أحداثا وقعت بالفعل وكان لها صداها وانعكاسها على وقائع الأحداث، وإن لاحت في محاكاة هذه الأحداث رؤيته المستمدة من قدرته على اختلاق بعض الوقائع والإيهام بها في نسيج الأحداث، وهي الأحداث المنبثقة من حلمه العظيم المنسوج من الذاكرة الحالمة، ويبدو نزوع الكاتب في هذا العمل الروائي نابعا من احتفائه بالحكي النابع من التراث، وتوظيفه واحدة من محكيات ألف ليلة وليلة في بعض أحداث الرواية، وحيث يتناص الحدث وبنيته مع بعض نصوصه السابقة، خاصة ما جاء بعض منها في رواية "تيمور الحزين" حين يعود الأستاذ إلى أوراقه القديمة ويفتح كتاب الحكايات الذي أولع به أشد الولع ويقرأ حكاية شهرزاد، عن البنت جمانه والحكيم ريان، كذلك مع إحدى قصصه القصار، وهي قصة "الحارس والأميرة"* وبحسب ما اشتغل عليه التناص في البنية السردية للنص الروائي العراقي، وما كانت عليه نفس البنية في النصوص الحكائية القديمة، سواء ما عوّل عليه الكاتب في روايتي "تيمور الحزين" أو "الحلم العظيم"، فقد "كشف البحث عن مفاصل التناص الأساسية بين بعض القصص العراقية القصيرة المنتخبة، وبين النص القديم، إن كان في متنه أو مبناه وتوصل، بصورة أو بأخرى، إلى أن النص القديم لم يكن عبئا يمارس هيمنته وسطوته على النص الحديث، فالأخير، بمقدار ارتباطه بالأول، فهو متحرر يمتلك خصوصيته وخصبه، ولا

ينحني أمامه. وربما يكون على العكس من ذلك يضارعه في اجتراح دلالات معاصرة". (1) وعليه فقد ظهرت نزعة التوظيف التراثي القديم في نسيج الرواية على ما يبدو وكأنه جزء من النسيج الأساسي للنص وليس عبئا على ما ورد فيه من أحداث، وهو أمر قد يضيف إلى عنصر الدلالة والتأويل ثراءً في التلقي، وإضفاء نزعة جمالية فيما يضيفه المتخيل على ذائقة النص، خاصة في ناحية توظيف المحكية التراثية القديمة مع الأحداث المتخيلة في نسيج النص، ومحاولة بث رؤية جديدة تضاف إلى المتخيل في بداية النص كمحرك لهذا البدء، وكمتخيل تجريبي له مستويان يلعب دوره السردي في بلورة العلاقة السائدة في بنية النص بين الرجل والمرأة في هذا الجانب الحيوي من الحلم العظيم للشخصية. فاستخدام المرأة من الواقع ومزجه بتخيل المرأة الشهرزادية من محكية ألف ليلة وليلة جعل ذائقة هذا النسيج تتماهى في متخيل الحدث والفعل الروائي، ويجسد واقعة ما تحاكيه المرأة لوأد إرادة الرجل في تعامله معها. ولعل هذا هو الذي ظهر من متخيل البدء عند الكاتب عندما أراد أن يحدث جذوة جنسية في المتخيل ويحيل البداية إلى تيمة ورؤية لها وقعها الخاص على فكر المتلقي وذائقته.

متخيل البدء

فمن متخيّل الذاكرة تلوح رؤية الكاتب في هذا النص الروائي لتروّج لمرحلة حياة مليئة بواقع إجناسي متواتر الزمن والفعل والحقيقة، يفصح منذ البداية عن حلم سيرّي طويل الأمد، كمن، واستكن في دهاليز المخيلة والذاكرة سنين طويلة، بدأ مع مرحلة المراهقة والتلصص وبدء التفتح الجنسي، مع أول امرأة دعت هذا الفتى إلى مخدعها، ثم تطاول عليه العمر وراودته آمال وأطياف أن يتحقق حلمه الكبير في أن يصبح كاتبا مهما، إلى أن تحققت بعض من خطوطه المحتشدة بوقائع وتخييل سيري آخر، تقاطع هو الآخر مع كثير من مجريات الواقع في تيمات عدة صنعت هذا الحلم وجسدت منه هذه الرؤية المسرودة في هذا المتن من خلال تنويعات متنوعة، واستدعاء العديد من الشخصيات التي كانت كامنة هي الأخرى في الذاكرة، ومن ثم فقد تداخلت كثيرا مع هذا الحلم، من خلال علاقات وممارسات، وتأويلات، واعترافات، ومكاشفات بعضها من البيئة، والبعض الآخر من العائلة، والبعض الثالث مر مرور الكرام حسبما أظهرته الصورة السردية للمخيلة، وذلك من خلال مجموعة الأصدقاء الذين كانت لهم مساحة عاطفية كامنة ومستقرة وفاعلة داخل الذات. كما استدعت المخيلة أيضا مجموعة النساء، كان لبعضهن بطبيعة الحال، الحضور الأكبر في الذاكرة، حضور لا ينمحي، بل كان هو الفاعل الأصلي في سرد المتخيل وما يدور فيه وحوله من ممارسات. كما كانت له بدايات أولية ومهمة داخل الحدث، وشخصيات أدبية كان تأثيرها في ذائقة الكاتب المعرفية كبيراً من خلال قراءاته، هم أدباء كبار كان لهم تأثير كبير في تحديد أطر الشخصية في حلمها الكبير. كما شكّلت بعض شفرات وأيقونات مهمة في متخيله السردي والأدبي على وجه العموم، بدءا من شخصية الشاعر مظفر النواب، مدرس اللغة العربية في المرحلة الإعدادية، مرورا بنجيب محفوظ والعديد من كتّاب الرواية الذين قرأ لهم الفتى في مراحل عمره

المختلفة، هيمنجواي، ديستويفسكي، كافكا، سارتر، أندريه مالرو، وشخصيات أخرى جاء ذكرها من داخل المنظومة السردية المتواترة في إنجازها، والقائمة على وقائع السيرة الروائية المتواترة في المخيلة والسرد. ولا شك أن هذا البعد القائم حقيقة في نسيج النص والمحتشدة به الأحداث المتداخلة والمتقاطعة مع بعضها البعض، والتى تشي بأن طبيعة المتن هو من النوع الروائي، حيث لم يكن هناك ثمة ميثاق سيري أو اتفاق بين الكاتب أو المؤلف، كما جاء ذكره في المتن، وبين المتلقي حول هذا الجانب المهم في واقعة التلقي، إذ أن الاتفاق لم يكن واضحا على الغلاف، فما جاء على الغلاف هو مفردة رواية، بينما العتبة الأولى للنص تشي في ملامح معناها عن جانب سيري واضح، فثمة حدود تماس تحققت بين الرواية وبين الجانب والبعد السيري في نسيج النص من خلاله جوانب عدة تكمن في هذا الحلم المتماهي داخل الذات، مع لحظات ثرية راودت الكاتب وداعبت المخيلة وهواجسها المتباينة من خلال هذا الفتى المحتشد بالحلم منذ مقتبل العمر. فهذا الحلم الكابوسي العظيم الذي كثيرا ما كان يراوده هو "حلم واحد ظل يطارد المؤلف لعدد من السنين، كلما ركن إلى النوم، في ليل الشتاء متدثرا بالغطاء الصوفي السميك. لم يعرف تفسيراً واحداً لهذا الحلم، حيث يستيقظ والعرق يتصبب من جبهته وسالفيه، وكان الرجل بملامحه الغامضة يلوح به في بئر عميقة ليلقيه دفعة واحدة إلى قاع لا قرار له، ثم يعاود الكرة مرة ثانية.. كان الفتى يصرخ ويشتد صراخه إلى الحد الذي يشعر فيه أن قلبه سيهبط سريعا بين يديه". (2)، كان هذا الحلم المتكرر هو محنته الكبرى الأساسية، وكان البوح به لأي أحد من أهله أو أصدقائه أو رفقته هي المحنة الأخرى الأشد وطأة، حتى إنه في بعض الأحيان كانت تساوره الظنون في عدم إمكانية تحقيقه. هو حلم البحث عن الحضور الإبداعي المثمر، وتحقيق كريزما المؤلف الخاصة بالذات، وهي الكريزما التي تشكّل حضورها المتوهج والمتألق في ساحة التأليف ككاتب للقصص كما أطلق على نفسه بإلحاح شديد في مواضع عدة من نسيج النص. لكنه وسط هذا الزخم الكبير من الأحداث المحتشدة يتقابل المؤلف ويتصادم مع مجريات الحياة المختلفة على كافة الأصعدة الاجتماعية والذاتية والسياسية والدينية، كما يتصادم كثيرا مع ذاته في مواقف عدة، وتتماهى دواخله مع ما تهجس طبيعته أو ما يتداخل ويتعاكس مع ما يتقابل معه من أمور الحياة وأحوالها، خاصة ما يرتبط بعلاقاته مع المرأة، التي كان الصدام معها هو الحدث الدائم، المستمر دائما، ويشتغل فيه النص على أحداث تواترت خطوطها زمنيا، وتشابكت ملامحها وظلالها مكانيا، في عمق هواجس ترفد الواقع والخيال في آن واحد، وبؤر زمانية تتوارى خلفها أحداث عدة، يغلب على أكثرها ما يرفده المسكوت عنه المفرط في فعله في بعض الأحيان داخل النص من ممارسات جنسية وأيروتيكية تدور بين الفتى المؤلف وبين الجارة السمراء، وما ترفده العلاقة بينه وبين أسرته في وقائعها المختلفة من أحوال تطال الأب والأم والأخوة، وأمكنة الكاتب الحياتية منذ بدء تفتحه على صيغ الحياة المختلفة، ومنظومتها في مراحلها الأولية ثم في بؤر الأيديولوجية المنداحة حول المناخ الاجتماعي والسياسي بعد أن حاول

الفتى أن يحقق في محيط الأسرة بعضاً من دين لها في عنقه كبعد إنساني له أبعاده الخاصة.

ويتحلق النص في بعض من جوانبه حول تيمات تابوهية مضمرة ومعلنة في الوقت نفسه، وهي البادئ بها النص والمرتبطة في بدايتها بتلصص الفتى على همس غرف نوم المتزوجين على ناصية الزقاق الذي يسكن فيه، هذا النوع من التلصص نحو أمكنة الحياة المختلفة بزخمها ورحيقها، وتأوهاتها في حلمه الكبير، وهي تحتل مساحة ليست بالهينة كتيمة رئيسية يذهب بها الكاتب نحو كل المنعطفات والطرق والدروب ليحقق من خلالها رؤيته تجاه الواقع المأزوم في معظم جوانبه، وتجاه المرأة بالدرجة الأولى، ثم يأتي بعد ذلك دور المال والشهرة، وكانت أولى محاولته مع المرأة هي تلصصه عليها من مرصده الجديد "مرصده كان نافذة غرفته في السطح، المطلة على الزقاق، يكتفى بمراقبة واحدة منهن، واحدة لا أكثر، يترصدها عن كثب" (3)، ثم تبدأ مطاردة العينين لها في الذهاب والإياب بحيث تحدث ما يشبه استدعاء رؤية الكاتب حول تابوهات الكتابة، والمسكوت عنه فيها والتنامي في إحداث انفجار الرؤية. كانت المرأة هي ديدنه في تلصصه المعهود ولم تسلم من ذلك حتى شقيقة صديقه الشيوعي جلال كريم، وكذلك زوجة أبيها عفيفة التي كانت هي الأخرى مرفأ جديدا من مرافئ الجسد عند الفتى على مستوى الواقعي والخيالي، ولعل هذه النظرة الشبقية للمرأة التي صنعتها جارته السمراء عندما تفتحت مسام الجنس عنده على يديها، وأدمن هو جسدها، وهذه التيمة الشبقية هي التي بدأ بها الفتى نفسه رحلته مع الجنس والمرأة حتى إنها كانت تقول له دائما: "هل تعرف أن لك رائحة رجل في الثلاثين مع أنك ما زلت فتى لا يجوز لى العبث معك، إياك أن تخبر أمك بما يجرى بيننا" (4)، ويستمر الحلم في نفوس الشخوص الحاضرة والفاعلة داخل النص، خاصة أحلام الشخوص المركبة لهذا النص، كل شخصية بحلمها، ووهمها العالق بهواجسها، وذهنها، وهمومها، وتأزمات حياتها، ولعل شخصية عبدالله وهو الشخصية المحورية والفاعلة، وصاحب السلطة على معظم الشخصيات الأخرى المحققة لوقائع حلمه الموؤود والمتمثلة في الولد الفلسطيني، ومحمود عبدالعال والأخ العسكرى والأخ الصغير العليل المقعد، والخائنتين عفيفة الزوجة العشيقة والجارة الشبقية الخائنة شهرزاد، ورجلي اليسار العراقي جلال كريم وجواد الحمراني والأب والأم، وباقي الشخصيات الثانوية العاملة والأخرى غير الفاعلة في بؤرة النص. كذلك الشخصيات الثقافية الحاضرة بملامحها كجانب معرفي وأهمها شخصية "مظفر النواب" الشاعر أو المدرس الجديد الذي كان له جانب مضيء على شخصية الفتى والذى كان حديثه في الفصل الدراسي منسجما مع ما كان يقرأه الفتى في الكتب "وتبين أن الطريقة التي يسوق بها الأستاذ حكايته لهم، لا تختلف كثيرا عن طريقة الكتب، غير أن سؤالا مباغتا طرحه أحد الطلبة على استاذهم الأنيق الذي يتكلم بصوت خفيض ومفردات منتقاة مع انحراف محبب في قامته أو تركيز مقصود لذلك الانحراف في اعلى أحد الكتفين مع ميل طفيف للرأس نحو جهة ما:

– هل صحيح، أنك الشاعر الذي كتب قصيدة الريل وحمد؟" (5)

كانت هذه الشخصيات بأفعالها وردود أفعالها هي البؤرة التي حملت جوانب النص المختلفة، الواقعية والمتخيلة، وهى المحتشد بها كل التيمات الرئيسية والفرعية المجسدة لنسيج النص وبؤر ممارساته. وكانت المرأة هي صاحبة الحضور الكبير في نسغ معظم هذه الممارسات، خاصة حين أفرط الكاتب في البؤر الجنسية التي حواها النص، ولا شك أن فتح مغاليق النص من هذه الناحية، خاصة عندما استخدم الكاتب تيار الوعي في النسيج النفسي لوقائع المشهدية النصية في كل التيمات المستخدمة، الواقعية والمتخيلة، وطرح رؤيته الحكائية المستمدة من تقنيات عدة تنقل فيها الكاتب بين وقائع ومشاهد مختلفة من الحياة من خلال نسق دعم به نظرته إلى الحياة في مختلف أشكالها ومعالمها التي جال فيها طولا وعرضا.

شهرزاد وفتح المغاليق

وظف الكاتب في بؤرة النص الرئيسية نموذجا حيا لموقف المرأة الشهرزادية، الشهوانية، الباحثة عن المتعة في عنف وسطوة شبقيتها، وبحثها عن الخلاص الأنثوي الكامن في واقعها المأزوم والناتج عن ارتباطها بزوج عنين لا هم له سوى عمله وجمع المال، لذا فإنها عندما اكتشفت هذا الفتى الفائر جسديا والمتلصص دائما على حافة نافذتها بحثا عن متعة النظر، وجدت فيه ضالتها المنشودة، وبدأت ترمي عليه شباكها الأنثوية حتى وقع فيها. وقد استخدم الكاتب في طرح هذه الرؤية إحدى محكيات ألف ليلة وليلة وهي حكاية "الحمال والبنات والصعاليك الثلاثة"، وضفر في نسيج هذه التيمة الحكائية الغرائبية تداخل الوهم والحقيقة في تجسيد هاجس المرأة في فتح المغاليق الموصدة عند الرجل، وهى تيمة مستمدة من طبيعة المرأة في هذه المحكية التراثية من خلال دور المرأة في المجتمع الشهرزادي المعروف. كانت المرأة في مخيلة الفتى مجسدة في صورتين لكل منها كيدها الخاص، الجارة السمراء التي ادعت أن اسمها شهرزاد، وحاولت أن تستحوذ على جسده وفحولته المبكرة، ودعته إلى بيتها فدخله في مغامرة لم يحسب عواقبها، كما فعل الحمال– وكان اسمه أيضا عبدالله– عندما دخل قصر البنت البغدادية في حكاية ألف ليلة التراثية "أخذته الحيرة حتى خيل إليه، أن البنت والجارة قد تآمرتا عليه سرا ولا بد أن احداهن تعرف عنه أكثر من الأخرى، ولكن كيف تم ذلك، تلك هي علة حيرته واندهاشه، أن تكونا من طينة واحدة، أو أنهما عاشتا في زمن واحد، لتجعلا من سيرته طرفة على كل لسان" (6). في هذا الجانب المتخيل تتعامد الشخصيتان، وتجسدان في بؤرة الواقع والمتخيل الدور نفسه الذي تلعبه المرأة في الحياة الواقعية، ولكن مع شيء من الاختلاف في الدلالة والتأويل. فنسغ الحكاية وصوغ بنيتها في هذا الموضع، كان يحكمه المتخيل السردي ورؤية الحكاية الناتجة عن قراءات الفتى، لذا كان الحكم فيها لرؤية الكاتب الحكائية السردية المتخيلة، وهي كما قال عنها تزفيتان تودوروف "إذا كان جميع الشخصيات لا ينفك عن القص، فهذا يعني تقديسا ساميا لهذا الفعل، فإن تقص مساو لأن تعيش. والمثل الأكثر صدقا على ذلك هو شهرزاد

التي لا تعيش إلا إذا استطاعت أن تستمر في القص". (7)

ومن ثم كان استلهام النص الشهرزادي في هذا الموضع المتخيل يعطى دلالة على عنف المتخيل وسطوته لدى ذهنية الفتى من خلال واقعه وقراءاته النهمة في الكتب، وهو الذي جعله يشطح بعيدا "حين تيقن الفتى الذي صار مؤلفا، انه دخل ذات يوم قصر البنت البغدادية، وسمحت له أن يكون سيدها وأميرها، بل والعيش معها في القصر الذي تتوافر فيه وسائل الرفاهية والنعيم، أدرك أن الأمر برمته لم يعد محصورا في حدود البلاغة في التعبير عن الحالة وليس مقتصرا على أحاجى الخيال". (8)، وتتماهى الحكاية بغرائبيتها مع الواقع بمتخيله، ويتجسد في كلتا الحالتين كيد النساء القائم على النزعة النسوية الرامية إلى فرض السيطرة، والسطوة الأنثوية على ذكورية الرجل وفحولته واللعب بها وعليها، حتى أن الجارة السمراء عندما احست بحضور زوجها المفاجئ أثناء تواجد الفتى في مخدعها، تدخل الفتى الصندوق وهى تضحك في نفسها، ويشاهد الفتى من فتحة الصندوق المرأة وزوجها في علاقتهما الملتبسة وسط هاجس ألح عليه في ذلك المكان الغريب، وتقاطعت ثمة حكايات وهو داخل الصندوق، حكاية الملك اليتيم والفيلم الهندي الذي شاهده مع أخيه، وتسول له نفسه بعد ذلك وبتحريض من جارته شهرزاد السمراء على قتل الزوج البخيل بائع الحاجيات اليدوية، والعاجز جنسيا، أو هكذا شبه له. كانت سيطرة هذه المرأة عليه قوية للغاية، وقد استمدت قوة سطوتها عليه من بكارة الفتى وقلة خبرته في مجال معاملة النساء، وخياله الرومانسي في ذلك الوقت والنابع من كثرة قراءاته خاصة قراءة الليالي بشبكة سردها القصصي ومحكياتها الغرائبية المتداخلة، ولأن هذه المرأة كانت المرأة الأولى في حياته، لذا فقد اندمج الفتى في عالم هذه المرأة الشبقية حد الثمالة حين بدأ معها أولى تجاربه الجنسية مع النساء، تماما مثلما فعلت المرأة بالحمال في محكية ألف ليلة وليلة التي سردها الكاتب واستخدمها في نسيج النص "ولعل الفتى في متخيله الذاتي، اضطر إلى سؤال نفسه:

– لماذ حكاية الحمال والبنات دون غيرها؟ لا بد أن الحكاية هذه قد حدثت لرجل من بغداد، وسيكون سعيدا إذا ما عرف أن ما قامت به شهرزاد، كان واقعا حصل في يوم ما، وفى عصر من العصور، وأقر مع نفسه كجزء من المقام الجليل للأميرة شهرزاد، بعلمها ومعرفتها، أنها استطاعت بحنكتها الانتقال من وضع صعب إلى وضع مختلف ومغاير له، وهذا ما عزز من إمكانية التصور الذي تلبسته. إذن، رسمت الحكاية مسارا جديدا، وأنه استطاع أن يفعل الشيء نفسه مع عشرات القصص والحكايات التي تستولى على افئدة القراء، وما جرى معه في ذلك الوقت، كان حقيقة أقرها مع نفسه لأنه بطلها الوحيد دون منازع" (9).

لقد فتحت المرأة الشهرزادية الملتبسة – في الواقع والمتخيل– المغاليق الموصدة في وعي الفتى المؤلف، وكانت حكايتها مع الفتى في سردها القصصي حكاية غرائبية يحكمها الوهم والتعالق الذاتي في كل أطرافها، فكان التماهى المتعالق بهذه التيمة

تستأثر على لب الفتى في السر والعلانية، فهي تستخدم معه لعبة الجنس لتستحوذ على عقله وجسده وتوظفهما لأغراضها الخاصة، وكانت جريمتهما الملتبسة في رمزيتها، ما هي إلا شفرة الغرض منها الوقوف على منافع مشتركة بين الفتى قارئ الكتب في توهمه، والمرأة الخائنة في واقعها، هي تريد حريتها من هذا الزوج العاجز جنسيا، وهو يريد المال الذي جمعه هذا الرجل. إلا أن هذه الاستيهامات جميعها كانت بالنسبة للفتى مصدر قلق في كل ممارساته ومحاولاته الاقتراب من أصدقائه وزملائه، أو حتى أسرته خوفا من افتضاح أمره ومعرفتهم سر جريمته. وكان هذا الجدار الحاجز في نفسية الفتى يحول بينه وبين مواجهة الواقع مع كل من يقابله أو يرتبط به بصلة، وكان مقدار الوهم العائش حقيقته يتنامى في معظم ممارساته الفعلية، والمرأة من ناحية أخرى تزكي فيه هذه النزعة الجنسوية، ولعل استخدام الكاتب للحوارات الداخلية، وأسلوب وتيار الوعي في شحن الفعل النفسي ورد الفعل، جراء جريمته التي ارتكبها مع المرأة السمراء، ولعل استخدام هذا الأسلوب كما قال عنه روبرت همفري "أن كاتب تيار الوعي يطمح إلى تصوير الواقع الداخلي للإنسان وما يجيش في كيانه النفسي أو طبيعته الداخلية في موقفها مع العالم الخارجي". (10) وكان تنقّل الفتى في مساراته المختلفة في نسيج النص، واستدعائه لكل مقومات الحياة في شتى صورها، خاصة ما كان يعايشه في ذاكرته الخاصة من أحوال وأمور حشد لها من الذاكرة الكثير مما نجح في استحضاره منها، إلا أن بؤرة المتخيل عنده كانت نشطة ولعل هذا النشاط هو الذي صور له تيمة جريمة القتل التي ارتكبها مع جارته السمراء شهرزاد، مما كان يدفعه كثيرا إلى أن يراجع المرأة حول هذه الجريمة، خاصة عندما كان يسألها عن مال زوجها، وكانت المرأة كثيرا ما تجد الحجج حول هذا الموضوع، حتى إنها في إحدى المرات قالت له "ماذا تفعل لو كان الأمر كله مجرد حكاية ترويها لك الآن امرأة مجنونة؟" (11)

ملامح الأيديولوجية

تكمن في أعمال أحمد خلف رؤية عبثية تصنعها الشخصية وتسير وراءها، ورؤية أيديولوجية يصنعها الحدث ويستمر في تضخيمها والصعود بها إلى أفق يحسبه المتلقي أنه قد بات يتشيع لهذا الجانب تشيعا كبيرا، إلا أنه في رواية "الحلم العظيم" باتت الأيديولوجية شبه غائبة أو حاضرة غائبة في ذهن الشخصية وهاجسها الخاص. عرف عبداللّه أن الأيديولوجية قد أغرقت الكثيرين في بحرها، فهي مجموعة من الأفكار التي تعمل بطريقة تعسفية ومغرقة لرؤوس الناس بدون أن يعرفوا ما لها وما عليها، هي تملي عليهم في كل لحظة الخير والشر، والحقيقي والمزيف وغير ذلك من المتناقضات، هي في نظره نظام مقنّع لا يهدأ، ولا يستريح أبداً، لا يصل إلى بر الأمان كما يعتقد البعض، لذلك كان يحلم دائما بأن يكون كاتبا، كان هذا هو حلمه العظيم. لذا كان في صراعه الكبير بين البعد الإنساني تجاه أسرته وهذا الوهم الكبير المتداخل مع هذا الواجب، هو بؤرة الصراع بين الذات وخارجها. فقد كانت ممارسات

الفتى عبدالله – كما نعتته النساء – وطبيعتها تنبع من الذات المشاركة في حسم كل الأمور، إلا أن واقعه كثيرا ما كان يتداخل مع أوهامه وهواجسه تلك التي كانت تنعقد في كل ممارسة أو إشكالية يقع داخلها. هو مع أسرته في أزماتها ومشاكلها الخاصة، مع أمه وأبيه وأخيه العليل يذهب إلى الطبيب إرضاء لخاطر أمه وشفقة بها وبه، ومع ذاته أيضا حين يستضيف على سبيل المثال صديقه الشاعر الفلسطيني على أنه مديره في العمل حتى يستحوذ على رضاء أسرته حول هذا الموضوع فتقوم بواجب الضيافة كما ينبغي. هو يذهب إلى الحمراني في سجنه على الرغم من علمه بخطورة هذا الأمر. كل هذه الأمور وغيرها كانت بواعث إضافية أضفت على شخصيته علامات استفهام محيرة، ربما كان رد فعلها جاءه من العريف (أبو عروبة) حين اعترضه أثناء عودته لمنزله وباغته بهذه الصفعة القوية التي أذهلته قائلا "أيها الحقير، لقد حيرتنا، من تكون بحق الجحيم، هل أنت شيوعي؟ قومي؟ بعثي؟ خرائي؟ من تكون وماذا تريد بالضبط؟ ثم ما هذه الحرية التي تتمتع بها في التنقل من بيت إلى بيت لا يشبه أحدهما الآخر ولا أية علاقة بينهما؟". (12)، كذلك كانت الأيديولوجية في ذهنية الفتى أيضا مسرحا لواقع مأزوم في ممارساته، هو في هويته لم يحدد تماما ماذا يكون، لكنه في رؤيته لأوهام الأيديولوجية يقف متأرجحا مع اليسار رافضا لهذا اليمين العفن كما يسميه "كان يرى فيه اتجاها مغايرا للحياة ومضادا لكل أمل يمكن ان يرتبط بحياة الفقراء من الناس" (13)، وفى هذا الوهم الكبير الذي استحوذ على هواجسه في السر والعلن، كان يعيش حالة ملتبسة من الحياة، وربما كانت قراءاته النهمة للكتب سببا في التباس مشهده الذاتي وتأرجحه بين الواقع والرومانسية في بعض الأوقات، فهو في متخيله الخاص وسرده لوقائع ما كان في يوم ما، يفترض في هذا الوهم وتماهيه مع الواقع ثمة أشياء متخيلة نحسبها جزءاً من الواقع ولكنها في بعض الأحيان تكون جزءا أساسيا من الخيال، وبحسب ما قاله بول ريكور عن السرد والوجود "إن كون الحياة ذات صلة بالسرد أمر كان معروفا دائما، وقد تكرر قوله كثيرا، فنحن نتحدث عن قصة حياة لنصِف التواشج بين الميلاد والموت" (14) فحين اقبل – في هذه المشهدية المتخيلة – على ارتكاب جريمة قتل الزوج المخدوع بالاشتراك مع الزوجة الخائنة، وأثناء الصراع بين الفتى والرجل وكل منهما يمسك بخناق الآخر كانت هواجسهما معا تتبادل مواقع الصراع، وكل منهما يرفد الآخر بهواجسه الذاتية. فحين كان الزوج المغدور يصارع الموت كانت هواجسه لا زالت تعمل عملها في تفسير ما يحدث "انتفض بقوة وعيناه تجحظان شيئا فشيئا ويرى ما يسود من حوله وينظر مذعورا، وأدرك كم كان زوجا مخدوعا حين عرف أن قاتله هو جارهم الشاب الذي اتهمه بالشيوعية، وبأن استاذه الذي يدرسه في المدرسة هو الآخر شيوعي وأنه يرافق أولادا شيوعيين. أراد الرجل قبل أن يرفس رفسته الأخيرة ويودع الدنيا أن يقول شيئا، لكنه لم يوفق في الصرخة التي ادخرها من سنين طويلة". (15)، كانت هذه الهواجس الذاتية هي جزء

من أنماط العلاقات التي سادت النص ومنحته انتظاما له خصوصيته في ترتيب الزمن وإحكام الواقع مع المتخيل في هواجس سادت أبعادا عدة في هذا النسيج المتماهي مع الحكاية منذ بدايتها وحتى النهاية.

المعمار الفني

إن استشراف هذا العالم الثري في رواية "الحلم العظيم" من خلال وعي الفنان، ورؤيته الخاصة، وفعل الكتابة، وآلية حشد عدد من الموتيفات السردية المجسدة والمعبرة عن تجربة الكاتب، يجعلنا نتطرق إلى الغوص ومحاولة التغلغل في نسيج هذا النص للوقوف على محددات آلية البناء الفني واستكناه المعمار الذي جاء عليه النص من زوايا الشكل واللغة وقضايا الواقع المحمل على وقائع النص وأحداثه، والوقوف على محددات الرؤية وجمالياتها، وطريقة الكاتب في صوغ ورفد وتجميع هذا العالم بهذا الشكل الذي جاء عليه من مخيلة الذاكرة، كما يبدو واضحا من فعل القراءة، حيث الكاتب في معمار النص متواجد برمزه حين الكتابة، وهو المؤلف أو مؤلف القصص كما سمى نفسه، ومتواجد بقلمه الذي يواجه به المواقف والمشاهد والأحداث والشخوص، ومتواجد بدرجة الوعي التي يستخدمها في طرح مفهوم بنية الشكل وطريقة وفعل الكتابة ومحاولة إيجاد شكل مختلف عما سبقه من إبداعات في منجزه الروائي. ومتواجد بتجريبه لبعض آليات الكتابة خاصة في هذا الخطاب السردي المفضي إلى بلورة وقائع هذه الحياة المفعمة والمحتشدة بكل هذه الأحداث والمواقف والمضامين والإشكاليات المتنوعة، حيث التجريب عند الكاتب هو طبيعة في الذات يحاول من خلالها الاستفادة من رؤى جديدة وآليتها الخاصة في الكتابة والتعبير، وهي بحسب إحدى شهاداته حول هذا الجانب حيث يقول "يتحدد التجريب في اهتمامنا الشخصي بعدم الركون إلى شكل قصصي ثابت يستمد معطياته الفنية من مقاولات جاهزة، فمنذ البداية كنت أميل إلى عدم الاستقرار إلى شكل نمطي في الكتابة. ويبدو هذا ناجم عن طبيعة خاصة في التكوين يكشف عن طفولة غير مستقرة، وفتوة تجنح نحو الاكتشاف، وكأن كل شكل جديد في تقنيته يدفعني إلى العمل مجددا في المحاولة وعدم التسليم بمقولات سلفية تنحو نحو التعقل وإرضاء الذوق العام". (16). لذا كانت التجربة الكتابية في رواية "الحلم العظيم" نابعة من رؤية استقرت ملامحها في عالم له ملامح شائكة وتأزمات إنسانية طالت تجربة مثقفي الستينيات في العراق متأثرة في ذلك بمناخ الواقع الثقافي الوجودي والعبثي، وتماهى بطل الرواية مع ذاكرته العائدة بكم كبير من الأسئلة المطروحة يستخدم لها الكاتب التفصيلات الدقيقة، والممارسات الصغيرة، ويحيطها بمعان رمزية تلتبس معانيها في بعض الأحيان عند الشخصية والكاتب معا، كما يلعب الكاتب على زمنين متساويين في الأداء الزمن الماضي وزمن الكتابة عن هذا الماضي.

والرواية في معمارها تقع في خمسة فصول رئيسية تتوالى فيها مواقف ومشاهد وأحداث متلاحقة ومتباينة، استخدم لها شكل التنقل السينمائي المحدد بالمشاهد في هذه الفصول

الخمسة، تبدأ بعتبة أولية تحاول أن تختزل وقائع النص برمته في هذه العبارة الدالة والمؤولة سلفا في المفتتح الاول للرواية حيث يقول الكاتب "ليس صحيحا أن نقلد أبطال الروايات كما لو كانوا أشخاصا حقيقيين أو أنهم مجرد أصدقاء مخلصين لنا. وإذا كان تقليدهم يغرينا، خصوصا في بدايتنا أو خلال تولعنا في سير أحداث روايتهم، فلا مناص من تمردنا عليهم بعد حين من الزمن حيث ننغمر نحن أيضا في لجة الحياة، حياتنا ينبغي أن نعيشها كما نشاء نحن، لا كما يريد أبطال الروايات أو مؤلفوها" (17). هذا المفتتح الاول يعطينا دلالة كاملة على كل مجريات الواقع الحادثة داخل نسيج الرواية، فمنه نستطيع أن نستدل على وقائع حدثت داخل هذا النسيج بأشخاصها الذين ربما هم فعلا أشخاص حقيقيون كانت لهم صلة ما بالكاتب، أو أشخاص أتوا من تجليات المتخيل ليصنعوا داخل الحدث نوعا من التوازن النصي، ويحيلوا بؤرة النص كحبكة تتولد منها أمور وأفعال وممارسات يتوازن معها الفعل ورد الفعل في الواقع والمتخيل على السواء. ولعل الكاتب في رواية "الحلم العظيم" قد استعاد أيضا ما استعاده من رؤى هذا الفعل السيكولوجي الذي تواجد في أكثر من نص من نصوصه الروائية السابقة في "الخراب الجميل"، و"حامل الهوى"، و"موت الأب" على سبيل المثال، ولكن متخيل السرد والحكي والقص هنا بتداخله مع تماهي الأحداث المتشابكة والمعقدة والمتداخلة في ترابط قد ينسجم، وقد ينفرط عقده، مما يغري في هذا المنحى المهم بالبحث عن اليوتوبيا التي سبق أن بحث عنها كبار الكتّاب الذين تحدث عنهم الكاتب في أصول متنه الروائي، وبحسب ما ذكره محمد خضير في كتابه "الحكاية الجديدة" حول فرضية العودة إلى التأويلات القديمة لاستعادتها في حداثة ما تكتبه الذات من رؤى حيث يقول "إننا نملك اليوم احتمال مغادرة مناطق رؤانا، نميل نحو جاذبية بعيدة، ثم نعود إلى مناطقنا وقد أشبعنا معرفة وخبرة ونشوة. في حين أن المتمركزين في (أصول) مناطقهم يستنفدون طاقات أصولهم المحدودة. إن سفرنا وبحثنا نمو طبيعي في المدى المفتوح للتجارب الإبداعية" (18). وعليه فقد تشبع مؤلف القصص بمناطق كثيرة أصبحت هي مرجعية رؤاه الفكرية والإنسانية، وفي ترتيب الزمن والعودة إلى محاولة تفسير حلمه العظيم في أن يصبح كاتبا عظيما "في تلك الأيام التي تهيأ فيها كاتب القصص الى أن يولى فنه خصوصية معينة ليست على حساب شيء آخر، بل على حسابه الخاص، حساب أن تكون الفاتورة معلومة الدفع حتى لو لم تدفع في الوقت المناسب، إلا أنها تصفية حساب مع الزمن لا غير، وما من أحد خاض معركته مع الزمن وربحها، تلك إحدى العبارات التي تعلق بها ردحا طويلا". (19)، ولعل ترتيب الزمن وتناسقه مع استخدام الكاتب لخاصية تيار الوعي في التنقل بين المنطقة المتخيلة من ذهنية الكاتب إلى منطقة الواقع الحادث فيها الفعل القصصي، قد جعل الأحداث تتنامى في كل المشاهد المتواترة بحيث تستمد وكما يقول جيمس جويس وهو بصدد الحديث عن صورة الحلم في القصة التي تبدو فيها أفكارنا كما لو كانت تعلو وتهبط وفقا

لجاذبيتها الصورة "الصورة تتراكم فوق الصورة، والشعور فوق الشعور، وهناك نزوع متزايد دوما لتعديل مواضع الأشياء، هذا مكان ذاك، وترتيبها لا كما هي عليه في الواقع، ولكن الشكل الذي يحب المرء أن يكون عليه". (20). ولعل التداخل في نشر الأحداث المتواترة في هذا النص الروائي الثري، والتقديم والتأخير في نشر رؤى ما ترفده الشخصيات من أفعال ومن ردود أفعال، قد أضاف إلى ذائقة المتلقي نوعا من جماليات الترتيب النصي، وهو ما يتناسب مع هذا الحشد الكبير من الأحوال والأمور التي استدعاها الكاتب من ذاكرته واشتغل في بعض منها على خاصية المتخيل السردي، الذي أضاف أيضا نوعية خاصة من جماليات النص والتي كان من أهم خصائصها أن "تقوم دراسة الترتيب الزمني للنص القصصي على المقارنة بين ترتيب الأحداث وترتيب تتابع هذه الأحداث في الحكاية. وهذا النوع من التحليل مفيد جدا، خاصة أن وقع تطبيقه على الرواية المعاصرة التي يبلبل فيها المؤلف عن قصد المرجع الزمني، منظما نصه القصي، لا حسب تسلسل أحداث الحكاية، بل بالاعتماد على تصوّر جمالي أو مذهبي يجعله يتصرف في تنظيم الأحداث في نطاق نصه القصصي". (21)، وهو ما فعله أحمد خلف مع نصه الروائي "الحلم العظيم" مخالفا بذلك الأشكال التي جاءت عليها إبداعاته الروائية السابقة في كثير من خطوطها ونسقها وواقعيتها، وانتقاده لها، وهي التي قال عنها الكاتب في إحدى شهاداته عن تجربته الإبداعية "إن لجوئي إلى اعتماد المخيلة القصصية هي محاولة مني لتحويل الواقع إلى مادة عمل لا يمكنها الإفلات من اسار اللحظة التي يحتدم فيها كل شيء". (22)

الهوامش
(مجلة الأقلام، ع 5، مايو 1987 ص 61)،
1- المتخيل السردي.. مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، د. عبدالله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 1990 ص 58/59
2 الحلم العظيم (رواية)، أحمد خلف، دار المدى للنشر والثقافة، دمشق، 2009 ص 68
3- الرواية ص 11
4- الرواية ص 21
5- الرواية ص 54
6- الرواية ص
7- تزفيتان تودوروف: ألف ليلة وليلة كما ينظر إليها التحليل البنيوي، مجلة مواقف، ع 16، 1971 ص 146
8- الرواية ص 37
9- الرواية ص 39/38
10- نقلا عن كتاب تحولات الحبكة.. مقدمة لدراسة الرواية العربية، د. خليل رزق، مؤسسة الأشرف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1998 ص 105
11- الرواية ص 285
12- الرواية ص 156
13- الرواية ص 210
14- الوجود والزمن والسرد، بول ريكور، ترجمة وتقديم سعيد الغانمى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999 ص 39
15 الرواية ص 169
16 قراءة في التجريب الشخصي، أحمد خلف، الأقلام، بغداد، ع 6 س 25، يونيو 1990 ص 88
17 الرواية ص 5
18 الحكاية الجديدة، محمد خضير، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمّان/الأردن، 1995 ص 91
19 االرواية ص 98
20 الفن اليوم، هربرت ريد، ترجمة محمد فتحي، دار المعارف، القاهرة، 1981 ص 102
21 مدخل إلى نظرية القصة، سمير المرزوقي وجميل شاكر، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ت ص 79
22 خمسة مداخل إلى تجربة أحمد خلف، د. نادية غازي العزاوي، ج القدس العربي، لندن، ع 4192، 7 نوفمبر 2002 ص 10

قصتان قصيرتان

سلام القريني

القادم الى الضوء

في الاستعلامات الخارجية.. جلس يدخن سيكارته على غير العادة.. يده تهتز وعيناه شاردتان، تجول هنا في أروقة المكان الخالي من أدنى اهتمام، وترنو هناك إلى داخل البناية التي لا يسمح للرجال الولوج اليها.. لذا راقب بصمت وعن بعد حركة النسوة وهن ملتحفات بعباءتهن وقلقهن المشوب بالخوف.. يدخلن ويولولن ويرتلن كلمات مسموعة: (.ياربي تكوم بالسلامة بحق...).. هي الفرحة المخنوقة واللهفة المرهونة بتمام الخلقة (السلامة وتمام الخلق) هاجس الكل!.. صالة الانتظار في المستشفى النسائي التي كانت يوما ما حلبة للعب واللهو وباحتها الوسطية حلبة للملاكمة.. اليوم تشهد عملية صراع من نوع جديد... يطلق عليه الولادة!

– ولد أو بنت لا ضير.. ليس ذاك بمهم. هذا ما صرحت به أحدى النساء التي تنتظر مولودا وقد جلبت زوجة ابنها الوحيد وهي تقارع موجات الطلق المؤلم اللذيذ.

المنظر غير المألوف للشابات اللواتي يخضن المارثون أول مرة، وفي داخل أحشائهن بركان يقترب من الانفجار.. عند سياج الحديقة اتكأت تلك الفتاة وهي تخفي عيونها آلما.. اخذ يدور كسورة الماء في أسفل بطنها المحتضنة للوليد القادم.. هي تحس به يدور ويدور بين أحشائها... شيء يريد الاندفاع او تحطيم قيود تكبله. لا يدوم طويلا إذ لا يلبث أن ينزلق بين فخذيها المتورمتين فتصرخ بقوة تكتم فمها. انه الآن يتقدم إلى الأمام تاركا الكهف المسكون بخطوات الحياة المعقدة التركيب طيلة تسعة أشهر، ليصل آخر المطاف إلى عالم النور الذي لا يخلو من خطر مفاجئ، فالحبل السري يتربص بالمغادر الصغير الذي يتقن فن الدوران، مع ذلك لا بد من اخذ الحيطة وتدارك التفافه حول الرقبة البضة الجملية.. تتسارع خطى القابلات بعد رؤية انفجار (ماء الرأس) المنسكب دون خجل، منذرا بانزلاق الكائن الذي سوف يطلق صرخة التحدي الأولى الرافضة للصمت الذي كان يغلفه.. هو الان تمسكه اليد الحنونة التي نهل من روحها الكريمة ليختم بقدمه، واضعا بصمته الأولى في سجل دفاتر الأحياء.

****

الذاهب إلى الظلمة

غرفته التي يقضي معظم وقت العمل فيها . تقع في الطابق الثالث للبناية الجديدة للمشفى، وتطل على ساحة فسيحة قبالة شعبة الطوارئ الرئيسي الوحيد في المدينة.
لذا تجده مع كل صيحة استغاثة أو كلمات ندب، وعويل، يأخذه الفضول دون تأخير لمد رقبته عبر النافذة، لمعرفة ما يجري في الأسفل!
المنظر ليس بحاجة إلى تفسير فقد بدا جليا... سيارة تحمل على سطحها تابوتا خشبيا، كتب عليه عبارة: (وقف السيد....) ملفوفا ببطانية ملونة.. وحال وقوفها تنادى ثلة من الرجال، وهم يدفعون أولا بأيدهم ياشماغاتهم المزكرشة لما وراء أكتافهم منتخين بداحي باب خيبر أبو الحسنين!
وبكل احترام يضعون ذاك الجسد البارد، الذي قبل ساعات كان يختال بكل الجبروت والعنفوان، ويملأ الجو ضجيجا، على الأرض دونما اهتمام!
وما إن استقامت هاماتهم...حتى انقضت على التابوت ثلة من النسوة وهن يضربن برفق على خشب التابوت البائد، فبدا باحتوائهن مظلما حالك السواد.
يخرج من حناجرهن المبحوحة، كلمات نعي، تنحى منحًى موسيقيا قريبا من مقام المدمي، تتخلله توقفات، لذكر بعض محاسن المرحوم وبتناوب حيث تقول الأولى:

– يابو الوقفات...

ترد الأخرى...

– يابو الطيبات

ثم التي بجانبها...

وهكذا

– يابو ضحكة الحلوة.. يابو طول الحلو....

ليمتد حبل الوصف الجميل، لتصرخ أحداهن بكلمة تشق بها عنان السماء (يبووووووو....)!
حتى يغدو الموقف أكثر سخونة لتبدأ أخرى بفتح سيول دم مخلوط بالدمع اثر اللطم على وجهها، في حين تشق شابة زيقها وتضرب على صدرها وصليل (اليبووو) يخترق الافاق، لتبدأ مرحلة مواراة التراب على الرؤوس.
عند اللحظة هذه يتدخل احد الوقورين متقدما بهيبة... ومحذرا، فقد تخطت النسوة حدود الحشمة ومخالفة الشرع وسنة الحياة ليصرخ وبكلمة واحدة لا غير.
يبتعدن مهزومات.
لينفرد بالتابوت، رجل يزيح الغطاء، كي يعاين الطبيب الجثة ويدقق في بؤبؤ العين ويتفحص الجسد الذي فقد حرارته، ليعلن رسميا منحه شهادة الوفاة، وإدخاله سجل الموتى.

قصص كردية

نزار محمد سعيد

نـزار محمـد سعيـد من مـواليـد دهوك عـام 1952، إختصـاصي في حقلي التنـمية الثقـافية والـبحث الاجتمـاعي، عمل في مجـال التدريـس وفي "طريق الشعب" كما عمل منسقا تنفيذيا للإعلام لدي المعهد الدولي لشؤون المهاجرين في مدينة هـارليم بهولندا. صدرت له مجموعتان قصصيتان: الطاحونة، صهيل الجبل الابيض. كـما له مجموعتان قـصصيتان تحت الطبع. هـذا اضافة الى بعض الـدراسات من بـينها: جـوانب من المجتـمع الكردي مـن خلال تراثه الـشفاهي. دراسات إجتماعية.

لغة الام

خـرجت من الـقطار، وانـا لم افـرغ بعـد، من قـراءة مـوضـوع التفخيم في اللغة الكردية. الـساعة تشير الي الثامنة والـنصف، لـدي وقـت لاحتسي قهـوتي وادخـن سيكـارة، قبل ان يحين مـوعـد المحـاضــرات. اجل لـدي مـتـسع من الــوقت. سيكـون حضــورنـا

في القاعة رقم 20.0. اليوم لا اتخذ مقعدا قـريبا مـن الشبـابيك كمـا فعلته؟ في الاسبوع الفائت.

منذئذ وظهري يؤلمني. لا اعلم من اين تكتسـب الشقراوات الاوربيات حرارتهن وهن لا يـحملن علـي اجسـادهن البضة إلا قلـيلا من الخام. رغم ذلك لا يتحملن الجلـوس ولــو لهـنيهــة مـن دون فـتح الشبابيك والتنعم بالنسمـات الباردة. يا تـرى مـن سيكون البـروفيسـور حسن، ومن أي بلـد، كيف يبـدو وجهه، طوله وشكله؟

إمـا انه مغربي او تـركي، فمـواطنو هـذيـن البلـدين قـد إنتشـروا في بقـاع الارض من الـصين وحتـى جبـال الـواق واق. إنهم غـدوا كحبـات حمص مـنثورة علي صخـور. لو قـدر ان رأوا إثنين من بني الـبشر على سطح المـريخ، فاحدهما من دون ادنــى شك، سـيكون مغـربيـا والآخـر تـركيـا. ولا يسـتبعد ان يكـون كرديـا، فـالكرد قـد إنـتشـروا بـدورهم ايضا في اصقـاع الدنيا، لـدرجة ما ان يعـطس احـدهم في شـارع من شـوارع إحدى الـدول الصناعية، حتى يسمع من

المارة حواليه اعدادا لا يعرفهم يقولون له بلغته "لتعش طويلا"*.

يا ترى أي جديد سيضيفه؟ البروفيسور حسن اليوم الي معلوماتي، تلك التي لم اسمع بها او اقرأها حول الموضوع الذي كثر الحديث عنه هذه الايام "الشعوب الشرقية بين معتقدات الاديان والهوية الوطنية والقومية" ليس لدي اية معلومات عنه، فلقد قرأت قبل ايام الرسالة التي وصلتني من الاكاديمية، تفصح ان البروفيسور حسن الذي يعمل استاذا في إحدي الجامعات الاميركية، سيشترك اليوم في حلقة دراسية، في الساعة التاسعة صباحا.

– صباح الخير، باية لغة تريدونني ان ألقي محاضرتي؟ الدكتور مارتن وانا إتفقنا علي الإنكليزية. بيد انه سواء عندي أكانت بالإنكليزية او الالمانية او الفرنسية او التركية. اية لغة من هذه اللغات تتفقون عليها بإمكاني ان ألقي بها محاضرتي. قال حسن مبتسما.

بدا حسن غير ما كنت قد رسمته في خيالي. رجلاً قصير القامة، ذا انف كظهر سمكة مائل قليلا نحو اليمين. يبدو انه قد تعدى الستين من عمره، هذا ما يفصح عنه شعره الذي طغي بياضه عليى سواده. له صوت جبلي ويذكرني لون وجهه بلون الجوز.

بدلته التي عليه تبدو اكبر من مقاسه برقم، إن لم يكن برقمين إثنين. إذ انه حينما ينزل يديه لا تبدو من نهايات اردانه سوى سباباته الرفيعة.

يرفع بين الفينة والفينة، ربطة عنقه الصفراء المطرزة بازاهير زرقاء نحو الاعلى. كانت تتدلى نحو شبر من حزامه علي قميصه الابيض.

لم اكتسب طيلة محاضرته ولو معلومة واحدة اضيفها إلي معلوماتي. إذ صرف حسن جل وقته بتبديل النظارات، تارة لقراءة بضعة قصاصات من الورق كانت امامه، وتارة اخرى للنظر إلى ما يربو علي المائة من الحضور، بين طلبة واساتذة الاكاديمية وآخرين من الجامعات القريبة من مدينتنا.

وما ان انهى محاضرته حتى سرى الهمس بين الحاضرين، وفي هذه الاثناء اعلن عن فرصة المداخلة والسؤال. وددت ان اسأله سؤالا، إنشغل تفكيري للحظات في صياغته وتشذيبه وترتيبه. لكنني عدلت عن رأيي مخافة من إحراجه. إذ ان شكله ولونه يوحيان بانه من بني ارومتي، هكذا احسست. كان حسن اثناء محاضرته لا يفرق كثيرا بين الاحاديث النبوية وآيات القرآن، إذ غالبا ما كان ينسب احدهما للآخر، يقرأها بالعربية ناصبا المرفوع ورافعا المجرور، ثم يترجمها الى الانكليزية بصورة يحسد إليه.

اشار حسن فيما اشار إلى ان الشعوب المسلمة، لم تواجه اية مشكلة فيما بينها، منذ ظهور الاسلام وإلى يومنا هذا. فالمسلمون اخوة، وحتى افراد العائلة الواحدة، لطالما يواجهون مشاكل فيما بينهم، دون ان تفسد هذه المشاكل للود قضية.

وفي هذه اللحظة تحديدا، تقابلت نظارتانا؛ نظارة استاذي الإيراني

همايون الجالس إلي يساري ونظارتي. رفع همايون حاجبيه إنكارا لحديث حسن، احنيت ورفعت له برأسي لمرات متوالية، وكان لسان حالي يضفي له بان رسالته وصلت.

ضاق صدري واخشى ان اقول شيئا فيه جفاء، لكنني تداركت الامر، فمسحت تلكم الكلمات التي رصفتها لتوي في دماغي، واحدة تلو الاخري.

ابتسمت إبتسامة غامضة ثم قلت لحسن:

– دكتور، لقد قارب وقتنا على النهاية، ولم نسمع منك، من أي شعب تنحدر انت، من بين تلكم الشعوب، التي اهملت حتى ذكر اسمائها؟

– انا كردي. قاله بصوت منخفض.

كنا نحتسي القهوة في حدائق الاكاديمية. شكلت مجموعات من الطلبة والاساتذة حلقات، يتحدثون ويضحكون. الحدائق مزينة بالورود وازاهير الخريف والنصب الفنية ذات القيمة الجمالية الرفيعة، المصنوعة من الاسلحة ومعدات الحروب، من قنابر وبنادق وخوذات. المتوزعة في هذه الزاوية او تلك من الحدائق المترامية الاطراف، والتي اضافت عليها سحرا عجيبا.

– لا ارى حسنا إبن عمنا، اين ذهب قاله زميلي الكردي محركا يده اليسرى يمينا فشمالا وهو يبتسم إبتسامة غامضة.

– انظر، إنه هناك. كان يتوسط ثلة من الطلبة.

دنونا منه، كان يتحدث عن اطفاله ومراحل دراستهم، وما ان وضع نقطة في آخر حديثه حتى سأله زميلي آيدن بلغة امه:

– استاذي، هل لي ان اعرف من أي جزء من كردستان جنابك؟

تفرس وجهه بعينين مرتابتين، ثم رفع يده إلى فيه، راحتها بإتجاهنا، وحركها لمرات متوالية مقطبا جبينه.

رمقني آيدن وقد إتسعت حدقتاه ثم سألني:

– ماذا يخرف، افهمت شيئا؟

اجبته، وانا انظر الى الاستاذ نظرة ساخرة:

– اجل، فهمت، هذا الإنسان إما انه لا يتحدث لسان امه، او يتوجس ان يكون بيننا ثم طالبا تركيا!

* لدى العرب يقولون يرحمكم اللّه.

ضيوف اللّه

فروا.. لم ياخذوا اهبتهم.. فروا ما استطاعوا من سرعة، وانتشروا في ارض اللّه الواسعة زرافات ووحدانا، غير هيابين بما سيؤول إليه مصيرهم.

كانت اياماً كايام الحشر.. وصلوا الحدود وهم كاشباه البشر.

– آذنهم بان يدخلوا. قال آمر فوج حماية الحدود مرتبكا، وهو يهز راسه يمينا فشمالا وشرارات الحزن والاسى تتطاير من عينيه.

عبر بعضهم الحدود دون اوراق او مستمسكات ثبوتية. كانت الوجبة الأولى.

إستيقظ فجاة، رفع الغطاء عن جسده الناحل، ضغط بقبضته اليمنى

التى تشبه الكه فله بير(1) المطرح ونهض على قدميه وهو يرتجف.

اشعل زناده، نظر الي ساعته المدورة التي تشبه القمر المعلق في الهواء البارد، الساعة التي توقفت نبضات قلبها منذ البارحة.

وضع على راسه طاقيته الخضراء، ثم لف عليها عمامة صفراء، كان قد إشتراها من مكة صيف عام 1988 اثناء تأديته لفريضة الحج.

شد شاله (2) على وسطه، امسك عصاه من كفها المقوس الشبيه بظهره، تحسس بيده اليسرى رقبته المتدلية من رقبته حتى اسفل اضلاعه اليمنى، عدلها وتوكل على اللّه.

كان يضع اقدامه ويرفعها حذرا بين افراد عائلته النيام المتراصين على ارضية الغرفة، عند عتبة باب الغرفة دس جوارب الصوف المزركشة في حذائه البلاستيكي، كان قد وضع نيشانا على مؤخرتها لتمييزها عن احذية الآخرين، لا سيما في المسجد وجلسات السمر.

خطواته الحذرة تضرب نسائم الليل الربيعي الباردة. يبدو من مشيته، وكأن قدميه على وشك اللحاق بمؤشري ساعته، التي تشبه القمر.

صبح.. صبح ضبابي.. صبح بلون الحليب.. خطواته تلج في الوحل.. واثار حذاء بلاستيكي وراءه.

شجيرات اسيجة البساتين على جانبي الطريق الضيق، نمت اوراقها بحجم اذن السنجاب.. والقمر يسطع في مياه البرك..

كانت تند عن ضيق تنفسه آهات، حتى وصوله الى النهر الغاضب وهو يجرف الاطيان. يتناهى الى سمعه الضعيف صوت النهر الهادر مختلطا باصوات بكاء الاطفال. في اكثر الاصباح، يغتسلان هو والنهر، وكأنهما يبغيان الذوبان احدهما في الآخر. الاسئلة كذباب الصيف تدور وتدور، حول لحيته البيضاء بياض ثلج الجبل. ما ان يبعد واحدة حتى تحط مكانها عشرات اخر.. كان يتحدث مع نفسه.. كان يتحدث مع احد يراه وهو لا يراه.. منذ مدة قصيرة وهو يصول ويجول في هذه الارجاء ولا يبارحها.

الحاج واحد لكن آلامه واحزانه تبدو كما لو انها قوافل، حينما يختلي مع نفسه، سواء في البيت ام بين الطبيعة ام في المسجد، فإنه كثيرا ما يفكر بالموت، يفكر بكفنه في الكيس المعلق في جدار الغرفة فوق مطرحه ذي الازاهير الملونة. بجانب كتاب اللّه في غطائه الاخضر. اية فسحة في المقبرة خالية؟ يا ترى في اية زاوية سيبني لحده؟ مشاهد الجنة التي رسمها في صفحات خياله.. الآثام والخطايا التي إقترفها في حياته، منها التي يتذكرها. وكذلك الاشخاص ومشاهد المدن والاقطار والامصار التي رسمها في خياله. ومن حين الى حين يحاول ان يغير وجهة فرس افكاره، ولكن غبار محاولاته تظل عالقة في الهواء البارد، لا تلمس الارض. طفقت نجوم السماء تأفل واحدة تلو الاخرى، تودع السماء المغطاة باعمدة دخان نيران اللاجئين.

عشرات الألوف من الفارين، لا تقيهم من الطبيعة الجبلية القاسية جدا، خاصة في مثل هذا الفصل، سوى امتار من النايلون. ومن يملك الامتار يعد من المحظوظين. في الجهة المقابلة للقرية، يتوزعون على حافة النهر وعلى الهضاب وبين الاودية. ايام معدودات ولم تدع نيرانهم اشجارا واقفة إلا قليلا.

عند عتبة باب صالة المسجد وضع حذاءه البلاستيكي جانبا.. لم يكن ثمة حذاء آخر غير حذائه. إجتازت عصاه قبله عتبة الصالة.

– بسسسسسم اللّه.

ما ان اجتاز الباب حتى توقف مذهولا مذعورا، فالصالة ممتلئة من الباب وحتى المحراب، برجال وصبية واطفال ممددين على الحصران.

"لم ار او اسمع مذ وعيت الدنيا، بان احدا بات يوما في جامعنا ولو لليلة واحدة. سمعت عن الظاهرة في بعض الاماكن، ولا سيما في المدن. لكن تقاليدنا لا تسمح، ان ندع غريبا ينام في المسجد، فالضيوف هم عندنا ضيوف اللّه". رغم معاناته من ضيق التنفس، فقد سعل متعمدا مرات متوالية، محدثا صوتا غريبا.. إتسعت حدقتاه فجأة وراء النظارة السميكة.

جالت عيناه في الصالة فرأى الراقدين واحدا تلو الآخر.. إسترق السمع.. صرخ ما استطاع مطلقا صوتا كصوت الخطباء:

– إستفيقوا ايها الرجال، فقد ازف وقت الصلاة.

قطع انفاسه وإسترق السمع ثانية.. لا صوت شخير يسمع.. لا صوت انفاس يعلو.. لا احد يتقلب.. يتحرك.. لا احد يعطي ولا احد يأخذ.

– سبحان اللّه. قالها بصوت مبحوح كما لو ان في حنجرته حجرا.

إستولت الحيرة عليه وازداد إعياءً.. خطا خطوة.. خطوتين.. تعثر على احد الراقدين.. سقط بين اجساد ناتئة العظام.

طارت طاقيته إلى جهة، وعمامته الصفراء الى الجهة الاخرى. مشى على رؤوس الاصابع باحثا عنهما، وجدهما بعد ان داس على ايدي وارجل عدد من الراقدين. خطرت بباله فكرة.. احنى ظهره المقوس وجعل يهز عددا من اكتافهم بهستيرية:

– قوموا.. اسرعوا.. قوموا.....

احس كما لو ان قلبه ينتفض في صدره.. وفي عينيه قلق وألم لا يوصفان. اطلق صيحة فملأ ارجاء المسجد صوتاً:

– يا اهل الخير قوموا.. ما لي اراكم نياما كاصحاب الكهف.

إصطدم صوته بجدار الصالة الكلسي الرطب.. وارتد الرجع إليه وحده. نزع نظارته.. فرك عينيه بباطن كفه اليمني، عينيه اللتين شرعتا لا تميزان مثلما كانتا عليها لايام خلت. اسند رأسه إلى حائط افكاره التي لطالما تشغله هذه الأيام. اراد ان يأخذ نفسا عميقا، ولكن رئتيه خذلتاه، فانفاسه لم تعد تعبق برائحة الرطوبة. قال في سره والدمع يندى من عينيه:

– دعهم يهنؤون بنومهم.. فقد تصارعوا مع اعتى انواع الاسلحة.. ومع الجوع.. مع العطش.. والمطر والبرد القارس..

ما ان يعبروا جبلا حتى يصادفهم آخر وهذا حالهم لاشهر بحثا عن الامان.. دعهم في نومهم فإن اللّه لا يؤاخذهم.

جالت عيناه الصالة وشرر الغضب يتطاير منهما؛ جدران كلسية رطبة.. محراب منخفض.. ستائر خضراء سميكة.. مدفأة اخشاب وانابيبها الباردة الصاعدة وهي تخترق سقف الصالة، اجساد باردة مستلقية على الحصران. فكر مليا لعله يجد جوابا لشكوكه ولا سيما حينما تعثر وسقط بين الاجساد.

وعلى حين غرة تخدرت ساقاه في سرواله الشرنخي (3) العريض وثقل رأسه، وهو يبدو كما لو ان دماغه ينفجر.

عيناه في هذه اللحظة كانتا تفصحان عن اشياء كثيرة، ولكن لسانه قد تعطل، فهو لم يعد ينتج الكلمات. عيناه إغرورقتا ثانية بالدمع.. وارتجفت شفتاه.. حاول ان يطلق عقيرته لكن صوته لم يطاوعه.. قفل راجعا على حافة النهر الهادر، صلى صلاة الصبح على صخرة مستوية. قلما يصلي لوحده. انهى صلاته وبينما كان يهم بمغادرة المكان، حتى طرق سمعه صوت المؤذن وهو يملأ الارجاء. حذاؤه تركت مرة اخرى آثارها على طين الطريق الضيق التي تخترق البساتين. كان يفكر بالمسجد.. كان يفكر بشيء.. يا ترى اين سيصلي الرجال بعد قليل؟

رغم حذره من الطين، كانت خطواته تتجه حينا نحو اليمين، وآخر نحو الشمال، ولا صوت يعلو على صرخات اطفال اللاجئين، معلقة في الهواء البارد وهي تمر فوق الدور الطينية الحزينة، النائمة في حضن جبال بيضاء ناصعة.

1– * الكه فله پير: نبات جبلي تنمو على ساقه اوراق عريضة، خشنة الملمس ذات عروق بارزة، رائحتها زكية. كانت القرويات الكرديات الى وقت متأخر يستعملنها في عمل أكلة الدولمة المعروفة، إلى جانب اوراق العنب.

2– الشال: حزام من قماش كشميري، بعرض نحو شبر، يتزين به عادة الرجال الكرد، لاسيما المعمرين منهم.

3– شرناخ: ولاية من الولايات في كردستان تركيا، قريبة من الحدود العراقية التركية، يلبس الرجال هناك عادة سراويل كردية عريضة.

الترجمة

أنتونيو تابوكى ❖❖
ترجمة –هلال حميد

إنه ليوم رائع، كن على يقين من ذلك، بل أستطيع القول إنه صيف، فلا يمكن للمرء أن لا يعرف الصيف، دعني أقول لك ذلك، فأنا خبير بهذه الاشياء. هل تريد أن تعرف من أي شيء أنا أستنتج أنه صيف؟، آوه... الأمر بسيط جدا، كيف يمكنني أن اوضح لك ذلك؟... آوه.. حسب المرء أن يرى اللون الاصفر. ماذا يعني هذا؟.. اذن، اصغ لي جيدا، ألم يخطر على بالك اللون الاصفر؟... نعم. الأصفر، عندما أقول الأصفر فاني أقصد الاصفر بعينه. لا الأحمر ولا الأبيض، انما الاصفر بالذات، اللون الاصفر بالضبط. ذلك اللون الاصفر على الجهة اليمنى، تلك البقعة الصفراء المنبسطة على الحقول، الشبيهة بالورقة، او الوميض، او اللمعان، أعني شيئاً ما من هذا القبيل، اشبه بالعشب اليابس تحت الشمس، ينبغي عليّ أن أكون أكثر وضوحا؟!... حسنا..

ذلك البيت، نعم، ذلك البيت الذي يبدو قائما فوق الاصفر، والمشيد كله باللون الاصفر. غريب حقا انه لا يرى بشكل جيد، فقط جزءاً صغيراً منه، بودي أن أعرف المزيد عنه، ومن يسكن فيه، ربما تلك السيدة التي تعبر ذلك الجسر الصغير. سيكون مشوقا معرفة المكان الذاهبة اليه، لعلها تتبع تلك العربة، أو تمضي نحو المركب الريفي القريب من شجرة الحور، هنالك في العمق، في

الجهة اليسرى. يمكن أن تكون أرملة، كما تبدو من ملابسها السوداء، وفى يدها مطرية سوداء، لتقيها من حرارة الشمس. لذا، اكرر لك، إنه الصيف، ولا مجال للشك في ذلك.

الآن اريد أن احدثك عن ذلك الجسر، بل لنسميه جسيراً (الجسر الصغير)، فهو جميل جدا، قد شُيد بكامله من الآجر، يمتد من الاساس حتى منتصف القنال. كيف يمكنني أن اشرح لك ذلك؟!... ان جل روعته تكمن في تلك الآلة الميكانيكية المصنوعة من الالواح الخشبية والحبال، فهو مغطى بالمساند والاعمدة، كأنه لعبة، كتلك اللعب المصنوعة للاطفال الاذكياء. نعم، ألا يأتي على بالك اولئك الاطفال متقدي الذكاء؟.. الذين يلعبون دائما بتلك اللعب القابلة للتركيب، أو شيء ما من هذا القبيل؟ اولئك الذين كنت تراهم ذات مرة في بيوت العوائل المحافظة على الاخلاق والتقاليد، والتي نادرا ما تجدها الآن؟... على أية حال.. اعتقد انك الآن فهمت قصدي.

ولكن، اقول لك إن كل هذا وهم، خدعة بصرية، فالجسر الذي يتحرك ويدور برشاقة ليسمح للمراكب بالمرور في القنال، ما هو إلا فخ، مكيدة، بكل معنى الكلمة. وان السيدة العجوز، المسكينة، تغفل ذلك، وحتى لا يمكنها أن تتخيل ذلك. وانها، اذا خطت خطوة أخرى فستقع في الهلاك. صدقني، فهي دون أن تدرك ستضع قدمها على احدى تلك التراكيب الآلية الخبيثة، فتنشأ حركة لا يمكن التنبؤ بها، يليها صوت (كليك) مفاجئ، فتتمدد الحبال، وتتحرك العتلات والمحاور المعلقة، ثم تنحسر وتضيق، ثم تنصفق وتنغلق مثل فكي الكماشة. اما هي فستبقى محصورة هناك، كالجرذ تحت اسنان المصيدة. هذا في أفضل الأحوال. أما في أسوئها، فان العوارض المربوطة بمحاور تلك المساند المشؤومة، اذا تمعنت في التفكير مليا، ستفلت وتندفع بسرعة، تنطبق باحكام ميليمتري، عندئذ، ستنهرس العجوز هرسا، كالبطاطة في المهراس. أما الحوذي فانه سوف لا يفطن لها، لربما أنه أطرش، ثم ان تلك السيدة لا تعني أى شيء بالنسبة له. صدقني، فهو مستغرق بامور أخرى، واذا كان فلاحا، فانه سيكون منشغلا بمزرعة الكروم... ان الفلاحين لا يفكرون إلا بالارض، فهم أنانيون الى حد ما، والعالم في نظرهم يبدأ وينتهي بالحقل والمزرعة. اما اذا كان طبيبا بيطريا، لأنه يمكن أن يكون هناك ايضا طبيب بيطري، فانه سوف يفكر بتلك البقرة المريضة، الموجودة في تلك الحظيرة، هنالك في العمق، وإن كانت مخفية بعض الشيء، لأن حياة البقرة في نظر البيطري أهم بكثير من حياة الانسان، فماذا عساك أن تفعل... فكل واحد ومهنته في هذه الدنيا، أما الآخرون فكل واحد يتدبر حاله بنفسه.

أنا آسف لأنك ماتزال لم تفهم، لكنك اذا تجهد قليلا، فانا متأكد انك ستفهم

كل شيء، فأنت شخص ذكي، والمسألة لا تحتاج الى مزيد من التكهن، أو بالاحرى، تحتاج بعض الشيء. أظن اني زودتك بالمعلومات الكافية، وما عليك إلا أن تربط بين التفاصيل التي ذكرتها لك. على أية حال، انظر، إن المتحف يكاد يغلق أبوابه، اني أرى الحارس يومئ لنا بيده... هؤلاء الحراس، لا أطيقهم، فهم دائما متعجرفون، متغطرسون الى درجة يصعب عليّ أن أصفها لك. على اية حال، سنلتقي هنا غدا، اذا لم تكن منشغلا باشياء آخرى، أليس كذلك؟. كما واقول لك إن هذه الانطباعية لشيء مدهش حقا... انها تخلب الالباب، آه.. هؤلاء الرسامون الانطباعيون! لوحاتهم تفيض بالضياء وبالالوان الزاهية، حتى لتشعر انها تعبق بعطر الزهور والطبيعة، أيه..! نعم، بروفانس.. كنت دائما ولهاً بهذه المناظر. على فكرة... لاتنس العصا، وإلا تدهسك سيارة، لقد أسندتها هنا.. على يمينك، بل، أبعد بقليل.. نعم.. على الجهة اليمنى، ها انتذا قد وصلت، وتذكر أيضا، أن على بعد ثلاث خطوات من هنا، على الجهة اليسرى، هناك درج.

– بروفانس: نسبة الى مقاطعة بروفانس في فرنسا، حيث كانت مرتعا للرسامين الانطباعيين.

** انطونيو تابوكي (1943–2012) كاتب واكاديمي ايطالي حاضر في اللغة والاداب البرتغالية بجامعة سيينا الايطالية. نال عدة جوائز عالمية في الادب، وترجمت اعماله الادبية في اكثر من 18 بلداً. وكان معجباً كثيرا بالكاتب البرتغالي فرناندو بيسوا وترجم اعماله الى الايطالية.

لم يقصدنا روماً

حسينة بنيان

السائحُ في أوهام الجرح
نحو التربة المرويّة

لم يقصدنا.. روماً
برمال الوادي المهجور

فلقد أجهشنا الليل
للشبان المحمولين

ببكاء بائس
بين الحين وبين الحين

وراح اللامع يرسو
يلقون العمر الباقي

في دورته الاسطورية
عند سكون الفسق اللاهب

يتكامل مثل ربيع السّبّان الصرعى
بالخوف المألوف

ليتمّ صلاة الفجر الموقوت
بين الحين وبين الحين

بالرؤية الفجرية
وهجٌ يتناثر من فوق دخان

روماً.. ويفوت
وقلوبٌ تاهت.. منذ زمان

بالخطوات الثقلى.. كان البدر
عوّدها الحزن.. أن تتكلم

فلماذا يعشقه الشعرُ
تحت أنين الجرح

السائح أغلق كلَّ جداول أهلينا
وبقايا الطيب

يحملنا تحت الارجاء
من مطر القتلى

فلقد أجهشها الرحلُ

بصهيل القبر

وسقوط التابوت

اعتراف

أيتها النفسُ.. الغيرُ

كيف تحولين بيني وبينهُ

وأنتِ الأكثرُ جدلاً

لمَ تحتجزي خلف الجدار

عرّفَ عرضه.. وارتفاعه

منذ سنين

وحال بين الفجر وضوئهِ

إياك أن تُرشدي

فكلُّ الخلايا.. أعترفت

وكلُّ الخطايا باتت في قمقمها

المنحدر.....

عند سبات النهر

أبشري بر

فلقد ظلَّ

أبعدَ من التيهان.. قلبي

وأنتِ.. أنتِ

طائرةٌ.....اليم

بين أسراب القبور

قصائد شعرية لعبدالله حسين جلاب

الشاعر عبدالله حسين جلاب من مواليد البصرة عام 1951، ينشر نصوصه منذ السبعينيات، صدرت له عن دار الينابيع- دمشق: خربشات بمخالب الغراب، قصيدة الإيقاع، خلاصات النساج، في الجمال، شعرة قلبي بيضاء. وفي البصرة، صدر له: فاختة البحر، والقوقعة.

ألواح

* اللوحُ الأول

أيَّتُها البحرُ...

ما زلتُ على صخرتك الخضراء

في انتظار البرقِ

على وجهي رذاذٌ من يديك!

* اللوحُ الثاني

حصاني القصبيُّ: ثلاث خوصاتٍ

من نخلةِ البيت، قامتُهُ...

اختفى في عتمةٍ

من أرض السلاحف، تلك!

* اللوحُ الثالث

هُناكَ، وفي مواسم التفاح...

يهبطُ من عُشرٍ، بغتةً، شعاع غريب!

* اللوحُ الرابع

عملاقٌ، هُوَ، الوقتُ

سُلَّمُهُ إلى النجم، يرقى بخطاي!

* اللوحُ الخامس

من شقٍّ في الماء طلعتَ

على عظام السَّاحل المهجور...

في فمِكَ عشبةُ الطوفان!

* اللوحُ السادس

في التابوت: أمشاط الكون...

تمرقُ، بخطاها الخضر، جويرةُ الشمس!

* اللوحُ السابع

أنا طائرٌ بلا ملامحَ

لا ترابَ لي

مرتحلٌ في الأبد!

النائيةُ الرَّفلى غايتي

كعصا الغابر: تشيرُ إلى السَّحابِ

متوحِّدٌ، أنا، معَ الكونِ

للعواصف والمطر الأخضرِ
كعصا الغابر: تشيرُ إلى السَّحابِ
متوحّدٌ، أنا، معَ الكونِ
للعواصف والمطر الأخضرِ
أصغي، وللبرق
فأسمعُ أوّلَ صرخةٍ في وجهِ
منْ أوّل ورقةٍ بيضاءَ
في غصنِ التّكوين
وأشهدُ انحلالها بالنمل.
ظلٌّ بمخالبَ منقضٌّ
تعكسُهُ على فزعِ الأوراقِ
درّةٌ في المحيط.

النباتُ منَ الأرض: رمادُ الموتى
النباتُ أخي...
لأزهاره رفرفةٌ
تحتَ شعاعٍ لا يغربُ
وغصونُهُ الهيدِلُ:
أقراصٌ منها في فمي.
نجمةٌ منَ المجاهل في القلبِ
والنائيةُ الدّفلى غابتي...
أطردُ النباحينَ
وللحماماتِ أشرعُ الوردَ:
تمجّدُ آدمَ...
وتنقرُ تقاطيعَهُ في صخرةِ المياه.

قصيدتان لاوس حسن

مري بذاكرتي

مري بذاكرتي حلما حزينا
مري بذاكرتي واطرقي أبواب الطفولة
مري بذاكرة النسيان...
مري كفراشة خجولة
في خريف الحقول
كموجة رعناء في بحر السكينة،
مري بذاكرتي...
مري عبثا وجنونا و حطمي أسوار الذهول..!!

ففي كل مساء
أجر سلاسل الليل
كي أخبئ تاريخ منفاك
في دمي وأسطر قصة هواك
على قمر نازف
في قوافل العابرين
وفي الصباح تخرجين من رمشي
أنشودة للندى وزهرة سجينة...

وتكبرين و.... تكبرين
مري بذاكرتي
نورسا يداعب ظلال الأفق
ويرسو على شواطئ عينيك الحزينة
وخذيني خلف هذا الخريف
البعيد إلى بحر جديد....
لا تثقلي الذكرى
ولا يبعثره ليل القلق
مري بذاكرتي.....
مري فما زال هناك وطن
وشكل للصدى
وما زال هناك متسع من الحلم
كي أبدأ مرة أخرى
مري بذاكرتي...
نهرا يغسل ذاكرة الورد
ويضيء سر الحكاية في المدينة...!!
مري بذاكرتي.....مري

****

رؤيا

قال لها وصمت الليل لحن حزين..
أنا من فرشت لك أطياف السحر
وقطفت لك وردة من حقول القمر...
لتداوي جرح الساهرين...!!
قالت له...عيناك وجه نهر يضيء الليل بالمرايا....
والنجوم كلام فضي وحزن على وتر
عيناك سحر آلهة بابلية وعبق التكوين...
قال لها...أنت عشقي يا قدر القدر...
أنت زهرة في بستان حزني
وفي غربة ليل يهوى السفر...
أنت حكاية شعب عظيم وأطلال مجد مندثر
أنت أسطورة نسجتها الحكمة في قصص الغابرين...
ومرافئ حلم
تنتظرها سفني في كتب الشوق ومدن العابرين..
قالت له..
وعيون السماء تكحلت بالبنفسج وتجلت بأبهى الصور
وحزن الغيوم ترتيلة ماء ونسمة تداعب أوراق الشجر
ستبقى ذكرانا تخلدنا كل ليلة بنور يحاكي صمت العاشقين
سنولد كل ليلة ألف مرة...
على أنغام سمفونية من زخات المطر

حوار الريح والصمت

حسن لطيف جعفر

حسن لطيف جعفر، من مواليد الحلة عام 1954... شاعر ومترجم، خريج قسم اللغة الانكليزية- كلية الآداب في جامعة بغداد عام 1976 . عضو اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين –فرع بابل.

صدر له: (حرائق الظل) مجموعة شعرية - عام 2007 . وله قيد الطبع المجموعة الثانية (لا احد ينصت لأغانيه) وأيضا مجموعة شعرية مترجمة بعنوان (ألفة) لمجموعة من الشعراء الأوربيين جاهزة للنشر. ومجموعة شعرية ثالثة كتبت في بيروت خلال الشهر الأول من 2012 بعنوان (حوار الصمت والريح).

-1-

الريح والصمت
لا يلتقيان!
إذن
لا جدوى من الحوار!!

-2-

انا...
أنتظر الريح
كي تغسل صمتي.

-3-

كلما...
أهديت للصمت وردة
تسقط...
فتلقفها الريح.

-4-

وكلما طعن الصمت في السن

صار أعلى.

-5-

الريح تترصد بالصمت

كي تتبعه الى منفاه!

-6-

سألت الريح

عن حلٍ أجمل

قالت:

ارحل يا هذا

إرحل!

-7-

حاولت...

التقاط صورةً لك

ايها الصمت

لكن الريح أفسدت كل شيء!

-8-

ايها الصمت...

لن أضيفك الليلة

على مائدتي،

مخافة ان تثمل

وتفسد عليّ صمتي!

-9-

بحثت عن وجهك

أيها الصمت،

فوجدتُ وجهي

يستطيل في المرايا!

-10-

يمكن تصوير الريح

لكن لا يمكن قط

تصوير الصمت

فهو يتفرد بخاصته

الوحيدة

الصمت...Silence

...Silence for ever

-11-

أين انت مني

اين أنا منكِ؟

لقد خسرنا كل شيء

الريح والصمت

والمسكِ!

-12-

آه... ريوجين

البرميل لا يكفي...

فالقبر أوسع

والحقائق التي ضيعت

هي في حقيقتها

حوار الريح والصمت.

-13-

ثمة نافذة...

تفتح يديها لك

ايتها الريح

فلا تكسري سويقات الورد

أو تقطفي بنفسجة الصمت

منها

لعل

ما يدور تحتها لعاشقين

من حديث جميل.. يسفر

عن قبلة

هادئة.

-14-

هنالك....

في المسافات البعيدة

صمت لا تراه العيون

وهنالك...

تحت سماء القلب

ريح عاصفة

في.... سكون!!

-15-

يخيل لي

ايتها الريح

انك ستلقين القبض عليّ

متلبساً بالصمتِ

ولكي تكسبي اللعبة

تسللي...

بهدوءٍ جم.

-16-

أنا بريء

منك أيتها الريح

فالصمت

مثواي الاخير.

-17-

يخيل لي ثانيةً

أيتها الريح

انك مثل كلب أورد

لا تحمد عقباه!

اما أنتَ..

أيها الصمت

فلا تخجل أبداً

كالسنونو أنت

في منفاه.

-18-

ايتها الريح...

قد يصيبك الغرور

فأنت من نسل طغاة

أما أنا

فالمطر صاحبي،

والصمت وأنا، حفاة.

-19-

يا طر...

الصمت لا يكفي،

ولا تكفي الرياح

فأنت الساكن الورد

إنهض فالطرق واسعة..

والجراح هي الجراح.

-20-

إنتبه!!

أيها الصمت

أمامك خطر

ستوقع بك الريح

آجلاً أم عاجلاً

فلا تنسى المطر!

تقرير:

المربد التاسع يحتفى بالشاعر ألفريد سمعان ويجمع الشعراء تحت خيمة إبداع، ثقافة

اعداد: سكرتارية تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)

اعتاد العراقيون ان يحتفوا بمبدعيهم وأحبتهم، ليس وهم احياء بل عندما يغادرون في رحلتهم الابدية. ولكن ثمة في حياتنا استثناءات، ربما "نادرة"، من بينها ما حصل بالنسبة للشاعر الكبير الاستاذ الفريد سمعان.

فتحت شعار "المربد ابداع ثقافة" اقيمت فعاليات مهرجان المربد الشعري التاسع، الذي أطلق عليها هذه المرة: دورة الفريد سمعان، وذلك في مدينة البصرة للفترة 9-11 ايار 2012، بدت البصرة خلال هذه الايام كأنها تحتفي بنفسها وتاريخها تحت خيمة الشعر، فالمحتفى به هو ايضا ابن البصرة البار. تميزت الدورة بكثافة الحضور فهناك اكثر من 250 شاعراً حضروا من مختلف مناطق العراق من زاخو حتى الفاو ومن خانقين حتى الأنبار.. موزائيك عراقي جميل ونادر من النخب الثقافية على تنوع مشاربها ليشاركوا كمدعوين رسمياً إلى المهرجان، و12 شاعراً عراقياً أتوا من منافيهم المنتشرة في جهات الأرض، و17 شاعراً من بلدان عربية وأجنبية. أما عدد المدعوين فأكثر من ذلك بكثير. بعد عزف النشيد الوطني والوقوف دقيقة حداد تخليدا لذكرى شهداء العراق، اعلن عريف الحفل الشاعر عبد السادة البصري انطلاق فعاليات المهرجان، وهو يقول:

العراق عين العالم، البصرة عين العراق، والمربد عين البصرة. ثم استعرض حياة المحتفى به الفريد سمعان. والقى وكيل وزارة الثقافة طاهر الحمود كلمة اكد فيها ان الشعر كالماء والنخل، يتجدد ويؤثر ويغير، مشددا على دور الثقافة في التغيير الاجتماعي الديمقراطي.

من جانبه القى رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق فاضل ثامر كلمة رحب في مقدمتها بالضيوف من البلدان العربية وأدباء المهجر، مستعرضا الصعوبات التي واجهت وتواجه الثقافة العراقية جراء سياسة التهميش التي تتعرض لها والتشكيك بأغراضها.

وفي كلمة أخيرة رحب رئيس اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين في البصرة الشاعر كريم جخيور بضيوف المربد متمنياً لهم طيب الإقامة في مدينة السياب والخليل.

ثم بدأ فاصل فني تمثل بعرض مسرحي مكثف انجزته فرقة " شناشيل ". كما ساهم الفنان عزيز خيون بقراءة درامية لقصيدة بدر شاكر السياب " غريب على الخليج" .

بعد ذلك القى عدد من الشعراء قصائدهم وهم ياسين طه حافظ، موفق محمد، طالب عبد العزيز، الشاعرة المغربية لطيفة مسكيني، نجاة عبد اللّه، ومن دهوك الشاعر حسين سليفاني، والسوداني عمار معتصم، وليد الصراف من نينوى، يحيى السماوي ، عارف الساعدي ومسار رياض.

جلسة خاصة للمحتفى به

شهدت قاعة قسم الترجمة في جامعة البصرة، جلسة الاحتفاء الخاصة بالشاعر الفريد سمعان والتي بدأت بعرض للأزياء للفنانة نبيلة جياد، بعدها القى الشاعر الكبير والمُحتفى به كلمة استعرض فيها ذكرياته الحميمة مع ابرز

رموز البصرة ومبدعيها. وقدم رئيس اتحاد ادباء ديالى القاص صلاح زنكنه درعاً تذكارياً للشاعر الفريد سمعان، فيما قدم الشاعر خضر خميس درعاً اخر للمحتفى به من المنتدى الثقافي في سوق الشيوخ. كما ثمن وكيل وزارة الثقافة فوزي الاتروشي في كلمة القاها في الجلسة دور الشاعر المبدع الفريد سمعان، مبيناً سعادته بتكريم المبدعين وهم أحياء. ثم اقيمت الجلسة النقدية الثانية، احتفاء بالشاعر الفريد سمعان قدمها الباحثون (جميل الشبيبي، مقداد مسعود، علوان السلمان، عبد العزيز لازم) وأدار الجلسة الناقد بشير حاجم.

الجلسة المسائية في اليوم نفسه خصصت لبحث محور تجربة المنفى في الشعر العراقي من قبل النقاد ياسين النصير، المعقب د. صبحي ناصر، د. رحمن غركان، المعقب د. محمد أبو خضير، الباحث ضياء الثامري، المعقب، طالب عباس هاشم، كما القيت قراءات شعرية في هذه الجلسة لعدد آخر من الشعراء من البلدان العربية والعراقيين.

أما يوم الختام فقد شهدت جلسته الصباحية المحور النقدي (الشعر العراقي والهوية) وترأس الجلسة د. خليل شكري هياس بمشاركة الباحث د. جاسم الخالدي والناقد علي سعدون معقبا، ومن ثم ورقة الناقد حسن السلمان عقب عليها الشاعر والناقد جمال جاسم امين. أما البحث الثالث فكان للناقد عبد الغفار العطوي، اعقبتها قراءات شعرية لعدد من الشعراء منهم : ياسين عدنان/ المغرب، شاكر سيفو، عبد اللّه ابو شمس/الأردن، رابح ظريف/ الجزائر، حسينة عباس، وآخرون. وبعد ختام الجلسة المسائية قدم نادي السينما في اتحاد أدباء البصرة فيلما سينمائيا (وهلا لوين) للمخرجة اللبنانية نادين لبكي قدم له الناقد السينمائي كاظم مرشد السلوم بقوله: إن هذا الفيلم معني بطرح الأسئلة والإجابة عليها وهو ما ينفرد به، وثيمته الرئيسة الحرب الأهلية اللبنانية.

حفل الختام

بأغاني "الخشابه" البصرية المميزة أسدل الستار على فعاليات مهرجان المربد الشعري التاسع– دورة الفريد سمعان. ابتدأ حفل الختام بعرض فيلم سينمائي قصير بعنوان (أقدام تشنق الورد) تأليف أحمد السعد وإخراج بهاء الكاظمي، بعدها قرأ الشعراء: حسن شهاب الدين، إيمان الفحام، باسم فرات، حنين عمر، كريم جخيور، محمد العزام، عمر السراي، أحمد عبد السادة، مجاهد أبو الهيل، حسين القاصد، ياس السعيدي، ماجد الحيدر، مروان عادل قصائدهم التي اختتمت بقراءة من الشعر الدنماركي للشاعرة (جيرد ليكنسون) والشاعر (راسموس جريف) وقام بالترجمة الشاعر منعم الفقير.

ثم قرأ الشاعر طالب عبد العزيز البيان الختامي للمهرجان، جاء فيه: إن

انعقاد هذا المهرجان الشعري في ظل التحولات الديمقراطية التي يشهدها العراق الجديد، لهو دليل على إيمان المثقفين العراقيين بالقيم الجديدة التي يسعى العراق إلى إرساء دعائمها في المجتمع، وهو تأكيد على أن الإبداع العراقي ماضٍ في صناعة ثقافة عراقية خليقة بسمعة العراق وشعرائه وأدبائه.

وفي الختام لا بد من الاشارة الى أن تكريم الشاعر الكبير الفريد سمعان يتمتع بأهمية مزدوجة فهو من جهة شاعر يضم منجزه الابداعي اربعة عشر ديوانا شعريا. ومن جهة اخرى هو انه ليس شاعرا محايدا في موقفه من صراعات مجتمعه بل تعمدت اشعاره بطعم السجون والتعذيب والملاحقة بسبب مواقفه الوطنية، ورغم كل الصعوبات لم ييأس الفريد سمعان ولا اهتزت قضية الشعب والوطن أمام ناظريه. ومن عهد بعيد اختار الفريد سمعان درب الأدب والتزم تطلعات الأدباء الحقيقيين فكان مع الرهط الأول الذين رفعوا بجدارة راية الإبداع التي أضاءت حياة الملايين من أبناء شعبنا العراقي، وجعلتها أكثر غنى وإنسانية. وكل هذا اضاف الفريد سمعان الى اسمه هالة من الألق والموقف الوطني الناصع.

في مناسبة تكريمك مبدعنا الكبير، الفريد سمعان، تهديك (الثقافة الجديدة) خالص التهاني المعطرة بأمنيات الصحة والعافية والعطاء الثر والتألق الدائم في مشوارك الادبي والنضالي، وأنت تطأ عتبة الخامسة والثمانين من عمرك المديد الذي أوقدت فيه شموعا كثرا، كانت فنارا ودليلا للسائرين صوب الوطن الحر والشعب السعيد وهم يقتفون أثرك النبيل في الأدب والنضال.

ولكَ في أفق الحرية والأمل الذي يصنعه شعبنا بإصرار اليوم، مكانة أصيلة وعطاء متدفق.

سلام لحضورك البهي عبر السنين، ولزمنك الجميل الآتي.

مطبوعات وصلتنا..

* ضوء على ولادة المجتمع العراقي المعاصر – أ.د. سليم الوردي، ، بغداد، 2009.
* كامل شياع، اليوتوبيا معيارا نقديا، ترجمة سهيل نجم، مراجعة د.صلاح نيازي، دار المدى، 2012.
* هجرة العمالة من المغرب العربي الى أوربا: هولندا نموذجا– هاشم نعمة فياض، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2012.
* 13 سؤالا عن تطور موقف الحزب الشيوعي العراقي من خيار الحرب والاحتلال ونتائجها، اعداد د.صالح ياسر، دار الرواد للطباعة والنشر، بغداد، 2012.
* الرواق الطويل – احمد خلف، ، دار المدى، الطبعة الاولى 2012.
* مجلة الأقلام العدد الثالث – تموز/اب/ايلول 2011.
* مجلة الغد، العدد الخامس – 2012.
* مجلة (إنانا) العدد الاول، كانون ثاني– شباط – اذار/2012.
* Greg Muttitt, Fuel on the Fire, Oil and Politics in Occupied Iraq, The Bodly Head, London, 2011.
* أثر الأزمات الخاصة على تعطيل الدساتير– دراسة تحليلية مقارنة، تأليف محي الدين حسن يوسف.
* افلاطوني كمبرج –قصص، المؤلف :عبد اللّه طاهر /صدر في عمان – عن دار أزمنة للطباعة والنشر
* الجديد في القضية النفطية العراقية – فؤاد قاسم الأمير / صادر عن دار نشر "الغد" وتوزيع دار الملاك للفنون والآداب والنشر.
* طبول العذاب في الثمانين العجاف،جبار خضير صكر الحيدر، فيشون ميديا، السويد، 2011.